



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
بُورِيقِ الْقِزْبَاوِيِّ

المجلد الثامن والثلاثون





حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

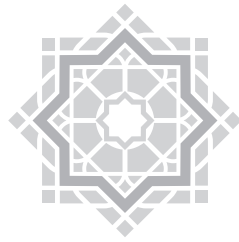
الطبعة الأولى

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م



للطباعة والنشر والتوزيع

مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَاضِي



الْجُزُورُ الثَّالِثُ

الْفَقِيرُ وَالصَّوْلِي

فِقْهُ السُّلُوكِ وَالْأَخْلَاقِ

٨٠ التَّوْبَةُ إِلَى اللَّهِ

٨١ الْوَرَعُ وَالزُّهْدُ





مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقُرْضَاوِيِّ



المحور الثالث

الفقه وأصوله
(فقه السلوك والأخلاق)



التَّوْبَةُ إِلَى اللَّهِ

الإمام يوسف القرضاوي



من الدستور الإلهي للبشرية

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحریم: ٨].



من مشكاة النبوة الخاتمة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تُذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يُذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم». رواه مسلم.

وعنه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء، ثم تُبْتَم، لتاب الله عليكم». رواه ابن ماجه.

عن الأغر المزني رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإنني أتوب في اليوم إليه مائة مرة». رواه مسلم.

عن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الله ﻋَظِمْ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها». رواه مسلم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ النبي ﷺ قال: «إن عبداً أصاب ذنباً - وربما قال: أذنب ذنباً - فقال: ربّ أذنبتُ - وربّما قال: أصبتُ - فاغفر لي! فقال ربّه: أَعْلِمَ عبدي أنّ له ربّاً يغفر الذّنبَ ويأخذُ به؟ غفرتُ لعبدي. ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً - أو أذنب ذنباً - فقال: ربّ أذنبتُ - أو أصبتُ - آخر، فاغفره! فقال: أَعْلِمَ عبدي أنّ له ربّاً يغفر الذّنبَ ويأخذُ به؟ غفرتُ لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنباً - وربما قال: أصاب ذنباً - قال: ربّ أذنبتُ - أو قال: أذنبتُ - آخر، فاغفره لي. فقال: أَعْلِمَ عبدي أنّ له ربّاً يغفر الذّنبَ ويأخذُ به؟ غفرتُ لعبدي - ثلاثاً - فليعمل ما شاء». متفق عليه.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره، وقد أضلّه في أرضٍ فلاة». متفق عليه.





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على معلّم الناس الخير، هادي البشرية إلى الرشـد، وقائد الخلق إلى الحق، ومُخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد، سيّدنا وإمامنا، وأسوتنا وحبينا: محمّد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه، ومن اتّبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

(أمّا بعد)

فهذا هو الجزء الرابع من هذه السلسلة: «في الطريق إلى الله»، وهو يتعلق بمنزلة عظيمة من منازل السائرين إلى الله، والسالكين طريقه ﷺ، وهي: التّوبة.

ومن علماء السُّلوك من يقدّم التّوبة على غيرها من منازل السّالكين، ومقامات الصّالحين، كما فعل الإمام الغزالي في كتابه «منهاج العابدين»، حيث جعل «عقبة التّوبة» هي العقبة الثانية بعد «عقبة العلم»، الذي اعتبره أول ما يجب عبوره واجتيازه لمن ينبغي الوصول إلى الله تعالى، أي: إلى رضوانه وحسن مثوبته.

وفي «الإحياء» جعل للتوبة الكتاب الأول من «ربع المنجيات»، ولكنني في هذه السلسلة لم ألتزم ترتيباً معيناً، إنّما أقدم للنشر ما يفتح الله تعالى عليّ بإنجازه، وقد يمكن ترتيبها فيما بعد ترتيباً منطقياً.

إنّ علم التوبة علمٌ مهمٌّ، بل ضروري، والحاجة إليها ماسّة، وخصوصاً في عصرنا، وقد غرق النّاس في الذنوب والخطايا، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم، وتكاثرت عليهم المغريات بالشر، والمعوقات عن الخير، وتكالتبت على صُدّهم عن سبيل الله، وإغرائهم بسبل الشيطان: وسائلُ جهنميّة، وأجهزة جبارة، تُقرأ وتُسمع وتُشاهد، وتؤثّر بالصوت وبالصورة، وبالنغم واللحن، وبالتّمثيل والتّهويل، وتعاونت على ذلك شياطين الإنس والجن، وأعداء الداخل والخارج، وساعد على ذلك الأنفس الأمّارة بالسوء، وركونها إلى الدنيا، ونسيانها للموت، وللحساب، وللجنة والنّار، وغفلتها عن ربّها وخالقها الواحد القهار، فلا عجب إذا أضاعوا الصلوات واتّبعوا الشهوات، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وفرّطوا في حدود الله، وحقوق الناس، واستمرّؤوا أكل أموال النّاس بالباطل، ولم يبالوا بما كسبوا من مال: أكان من حلالٍ أم من حرام.

ألا ما أحوج النّاس إلى نذيرٍ يصرّخُ فيهم أن أفيقوا من سكرتكم، وانتبهوا من رقدتكم، وثوبوا إلى رشدكم، وتوبوا إلى ربكم، قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، إلّا من أتى الله بقلب سليم!

في هذا الجزء اجتهدنا أن نوقظ القلوب الغافلة، ونردّ العقول الشاردة، ونقوّي العزائم المسترخية، وأن نبين للناس أهمية التّوبة وضرورتها وفضلها، ووجوب فوريتها، ونبين مقوماتها وأركانها وأهم

أحكامها، كما نبين ثمراتها ومكاسب التائب من ورائها في الدنيا والآخرة، كما بينا الموانع منها، والعقبات في طريقها، ثم البواعث عليها، وقد أطلنا في ذلك لشدة الحاجة إليه في عصر الشهوات والغفلات والشبهات.

ولقد اهتم علماء السُّلوك جميعاً بالتَّوْبَةِ، وتحدثوا عنها؛ عن حقيقتها وأركانها، وشروطها: من أبي القاسم الجُنَيْد وأبي سليمان الدَّاراني وذي الثُّون المصري ورابعة العدوية، وغيرهم.

وكذلك المؤلفون في السلوك: من المحاسبي إلى المكي إلى القشيري إلى الغزالي إلى ابن القيم، إلى من بعدهم.

ولقد بين الإمام الغزالي في مقدمة كتاب «التَّوْبَةِ» من «الإحياء» أنَّ «التَّوْبَةَ عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلَّام الغيوب مبدأ طريق السَّالِكين، ورأس مال الفائزين، وأول أقدام المرئيين، ومفتاح استقامة المائِلين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين، ولأبينا آدم عليه السلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين.

وما أجدر بالأولاد الاقتداء بالآباء والأجداد! فلا غرو إن أذنب الآدمي واجترم، ومن أشبه أباه فما ظلم، ولكنَّ الأب إذا جبر بعد ما كسر، وعمر بعد أن هدم، فليكن النزوع إليه في كلا طرفي النفي والإثبات، والوجود والعدم، ولقد قرع آدم سنَّ الندم، وتندَّم على ما سبق منه وتقدَّم، فمن اتخذه قدوة في الذَّنْب دون التَّوْبَةِ، فقد زلَّت به القدم، بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة والمقربين، والتجرُّد للشرِّ دون التلافي سجيَّة الشياطين، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشرِّ ضرورة الآدميين؛ فالمتجرِّد للخير مَلَك مقرب عند الملك الديان،

والمتجرّد للشرّ شيطان، والمتلافي للشرّ بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان؛ فقد ازدوج في طينة الإنسان شائبتان، واصطحب فيه سجّيتان، وكلّ عبدٍ مصحّح نسبته، إمّا إلى المَلَك، أو إلى آدم، أو إلى الشيطان؛ فالتائب قد أقام البرهان، على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حدّ الإنسان، والمصرّ على الطغيان مسجّل على نفسه بنسب الشيطان، فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرّد لمحض الخير، فخارج عن حيّز الإمكان؛ فإنّ الشرّ معجونٌ مع الخير في طينة آدم عجنًا مُحكَّمًا، لا تُخلّصه إلّا إحدى النّارين: نار النّدم، أو نار جهنّم»^(١).

ولقد كان عمدتي ومرجعي الأول: كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، ثم ما جاء عن سلف الأمة. وقد اجتهدت ألاّ أعتمد على حديث ضعيف في حكم أو توجيهه، وأن أبين من أخرج الحديث ودرجته باختصار، فما لم يكن صحيحًا ولا حسنًا لا آخذ به، ولو كان في الترغيب والترهيب، وإذا ذكرته فللاستئناس لا غير، أو أكون ناقلًا له عن غيري، مبينًا ضعفه غالبًا.

هذا، وقد انتفعتُ في هذا البحث بجملة كُتب وخصوصًا لعلماء السلوك، أهمها كتابان أساسيان:

أولهما: كتاب «مدارج السّالّكين شرح منازل السّائرين إلى مقامات إياك نعبد وإياك نستعين» للإمام أبي عبد الله شمس الدين ابن قيم الجوزية، الشهير بـ «ابن القيم»، وفيه أبدع وأجاد، بقلم الأديب البليغ المتدفّق، وروح الداعية المرَبّي المحلّق، ووجدان الرباني العارف المتذوّق، ونظر الفقيه الأصولي المتعمّق، وتجريد الموحد الصادق المحقّق، وهو حين يطلق لقلمه العنان، يتدفّق تدفّق السيل الهادر، ويموج

(١) إحياء علوم الدين (٢/٤، ٣)، نشر دار المعرفة، بيروت.

موج البحر الزاخر، ويورد الأوجه، ويوضح الأسباب، ويبين الأحكام، ويشرح الحقائق.

وقد استفدت منه كثيرًا، ونقلتُ كلامه بنصه في كثير من المواضع.

كما نقلت من كتابه «الداء والدواء» في بيان أثر المعاصي.

والثاني: كتاب «إحياء علوم الدين»، وهو الموسوعة الشهيرة في علم السلوك، وهو يشتمل على أربعين كتابًا، مقسّمة إلى أرباع أربعة، كما هو معلوم: ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات، وأول كتاب في ربع المنجيات، هو كتاب التَّوْبَةِ.

والغزالي فقيه أصولي منطقي مرتّب الفكر، تعتمد تصانيفه على حسن التقسيم والتبويب، وترتيب الأفكار، وضرب الأمثال، وروعة الأسلوب، وقد استفاد منه كل من بعده، كما استفاد هو ممّن قبله - وخصوصًا «قوت القلوب» لأبي طالب المكي.

وقد اقتبستُ منه كثيرًا من الأفكار، كما نقلتُ كلماته بنصها في بعض الأحيان.

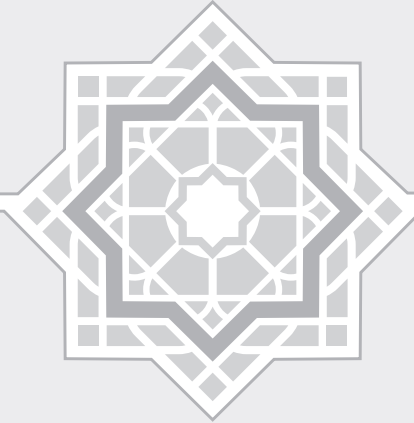
أسأل الله الكريم أن ينفع بهذه الصحائف: كاتبها وقارئها وناشرها، وكل من أسهم فيها بجهد، لترجع القلوب إلى ربّها، كما أسأله سبحانه أن يتوب علينا توبةً نصوحًا، يكفّر بها سيئاتنا، ويرفع بها درجاتنا، ويدخلنا بها جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، ﴿رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا وَأَغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحریم: ٨].

الدوحة: صفر الخير ١٤١٨هـ - يونيو ١٩٩٧م

يوسف القرضاوي



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرِظَاوِيِّ



الباب الأول وجوب التَّوْبَةِ وَفَضْلُهَا

- وجوب التَّوْبَةِ وَضُرُورَتِهَا.
- التَّوْبَةُ مِنَ النِّفَاقِ.
- التَّوْبَةُ مِنَ الْكِبَائِرِ.
- التَّوْبَةُ مِنْ كِتْمَانِ الْحَقِّ.
- تَوْبَاتُ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْقُرْآنِ.
- التَّوْبَةُ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ.
- هل تجب التَّوْبَةُ مِنَ الصَّغَائِرِ؟
- وجوب التَّوْبَةِ عَلَى الْفُورِ.



وجوب التَّوْبَةِ وضرورتها

التَّوْبَةُ من الذنوب التي يقع فيها المؤمن - وهو في طريقه إلى الله - فريضة دينية لازمة، أمر بها القرآن الكريم، وحثت عليها السُّنَّة النبويَّة، وأجمع على وجوبها العلماء جميعًا: علماء الظاهر، وعلماء الباطن، أو علماء الفقه، وعلماء السلوك، حتَّى قال سهل بن عبد الله: من قال: إِنَّ التَّوْبَةَ ليست بفرض، فهو كافر، ومن رضي بقوله فهو كافر. وقال: ليس من الأشياء أوجب على هذا الخلق من التَّوْبَةِ، ولا عقوبة أشدَّ عليهم من فقد علم التَّوْبَةِ، وقد جهل النَّاس علم التَّوْبَةِ^(١).

التَّوْبَةُ فِي الْقُرْآنِ:

ولقد عُنِيَ الْقُرْآنُ بِالتَّوْبَةِ أبلغ العناية في آيات كثيرة من سُورِهِ الْمَكِّيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ، ستمُّرُّ بنا في مواضعها إن شاء الله.

تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا:

ومن أبرز ما جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي

(١) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (٣٠٣/١)، تحقيق د. عاصم إبراهيم الكيالي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ
أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿التحریم: ٨﴾.

وهذا آخر نداء إلهي للمؤمنين في القرآن، يأمرهم بالتوبة إلى الله
توبة نصوحًا: خالصة صادقة، والأمر من الله تعالى في كتابه العزيز يدل
على الوجوب، ما لم يصرف عنه صارف، ولا صارف هنا، وذلك ليكونوا
على رجاء أمرين أو هدفين أساسيين، يسعى إلى تحقيقهما كل مؤمن،
وهما:

١ - تكفير السيئات.

٢ - ودخول الجنات.

وكل مؤمن في أمس الحاجة إلى هذين الأمرين: أن تكفر سيئاته،
وتغفر ذنوبه، ولا يخلو إنسان من أن تكون له سيئات وذنوب بمقتضى
التكوين البشري، الذي امتزج فيه عنصران مختلفان: عنصر طيني أرضي،
وعنصر رُوحى سماوي، فأحدهما: يشدّه إلى أسفل، والآخر: ينزع به إلى
أعلى، الأول: يمكن أن يهبط به إلى حضيض الأنعام أو أضل سبيلاً،
والآخر: يمكن أن يرقى به إلى أفق الملائكة، وربما خير مقيلاً.

من أجل هذا كان كل إنسان عرضة لأن يسيء ويذنب، وكانت حاجته
إلى التوبة النصوح، لتكفير ما بدر منه من سيئات.

والأمر الآخر: دخول الجنات، ومن ذا الذي يستغني عن دخول
الجنات؟ فأهم ما يشغل المؤمن هو مصيره الأبدي، هذه قضية المصير
الأولى للإنسان: أينجو يوم القيامة أم يهلك؟ أيفوز ويسعد أم يخيب

ويشقى؟ والنجاة والفوز والسعادة في الجنَّة، والهلاك والخيبة والشقاوة في النَّار ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

توبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون:

ومِمَّا جاء في القرآن عن التَّوْبَةِ قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وفي هذه الآية أمر الله جميع المؤمنين أن يتوبوا إليه، لم يستثن منهم أحداً، مهما علا كعبه في الاستقامة، ومهما ارتقى في سُلَّم المتقين، فهو في حاجة إلى التَّوْبَةِ. فمن المؤمنين من يتوب من الكبائر إذا ألمَّ بها، وهو ليس بمعصوم. ومنهم: من يتوب من صغائر المحرمات، وقلَّ من يسلم منها. ومنهم: من يتوب من الشبهات، ومن اتَّقَى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه. ومنهم: من يتوب من المكروهات. بل منهم: من يتوب من الغَفَلَاتِ تعتري القلوب. ومنهم: من يتوب من الوقوف عند حال أدنى، حيث لم يرتقِ إلى ما هو أعلى.

فتوبة العوامِّ غير توبة الخواصِّ، غير توبة خواصِّ الخواصِّ، ولهذا قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين! ولكنَّ الجميع مطالبون في الآية الكريمة بالتَّوْبَةِ لعلهم يفلحون.

ويعلِّق صاحب «القاموس» على هذه الآية في كتابه «البصائر» فيقول: «هذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان، وخيار خلقه: أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم، ثم علَّق الفلاح بالتَّوْبَةِ (لعلكم تفلحون) تعلَّق المسبَّب، وأتى بأداة (لعل) المشعرة

بالتَّرجي، إيدانًا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلاَّ التَّائبون»^(١).

وقال بعض علماء السلوك: التَّوبة واجبة على الكل، حتَّى الأنبياء والأولياء، فلا تظن أن التَّوبة اختصَّت بآدم عليه السلام حيث قال تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۖ ثُمَّ أَجْبَاهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢].

بل هو حكم أزلي مكتوب على جنس البشر، لا يمكن فرض خلافه، ما لم تتبدَّل السُّنَّة الإلهية التي لا مطمع في تبديلها، فالرجوع - يعني التوبة - إلى الله في حقِّ كلِّ إنسانٍ يكون ضروريًا، نبيًا كان أو غيبًا، وليًا أو غويًا^(٢)، يقول أبو تمام:

فلا تحسبنَ هِنْدًا لها الغدْرُ وَحَدَهَا سَجِيَّةُ نَفْسٍ، كُلُّ غَانِيَةٍ هِنْدُ^(٣)!
ويشير إليه حديث: «كلُّكم خطَّاءون، وخير الخطَّائين التَّوابون»^(٤).

وكما أنَّها - أي التَّوبة - واجبة على الجميع، هي واجبة في كلِّ حال، أي على الدوام، وذلك لعموم الأدلة، كقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ وذلك لأنَّ كلَّ بشر لا يخلو عن معصية بجوارحه، إذ لم يخل

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٣٠٤/٢)، تحقيق محمد علي النجار، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

(٢) انظر: الإحياء (٩/٤).

(٣) ديوانه بشرح الشنتمري (٥٠٧/١)، تحقيق إبراهيم نادن، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب.

(٤) رواه أحمد (١٣٠٤٩)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٩)، وقال: حديث غريب. وابن ماجه في الزهد (٤٢٥١)، والحاكم في التوبة والإنابة (٢٤٤/٤)، وقال الذهبي: عليّ لين. وصحَّحه ابن القطان في بيان الوهم والإيهام (٤١٤/٥)، وقال: غرابته هي أن عليّ بن مسعدة، ينفرد به عن قتادة. وقال ابن حجر في بلوغ المرام (١٤٩١): إسناده قوي. وحسَّنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٣١٣٩).

عنها الأنبياء والأخيار، كما ورد في القرآن والأخبار من خطاياهم وتوبتهم وبكائهم.

فإن خلا أحد في بعض الأحوال عن معصية الجوارح، فلا يخلو عن الهم بالذنوب في القلب، فإن خلا عن الهم، فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله، فإن خلا عنه، فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وبصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص وله أسباب، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن الطريق إلى ضده، وإنما يتفاوتون في مقادير النقصان لا في أصله^(١).

ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون:

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

فبعد أن نهى الله المؤمنين عن السخرية بعضهم ببعض - رجالاً أو نساءً - وعن لمز بعضهم لبعض بالطعن والتجريح، واعتبر القرآن من لمز إخوته المؤمنين كأنما لمز نفسه، فالمسلمون كنفس واحدة، كما نهى عن التنازع بالألقاب. فكل هذه الأمور تنقل الإنسان من درجة الإيمان إلى دركة الفسوق، فبعد أن كان يسمّى مؤمناً صار يسمّى (فاسقاً)، وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان.

(١) انظر: شرح عين العلم وزين الحلم (١٧٥/٢)، وهو مختصر لإحياء علوم الدين، تحقيق ونشر إدارة الطباعة المنيرية، مصر، ١٣٥١هـ.

ثم يقول تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، وهذا دليل على وجوب التَّوْبَةِ، وإلا كان من الظالمين، والظالمون لا يفلحون ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، ولا يحبُّهم الله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧]: ولا يهديهم الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، وهم الذين لا ينجون من النَّار ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا ﴿[مريم: ٧١، ٧٢].

آيات آخر:

ومن آيات القرآن: ما رغب في التَّوْبَةِ، وحثَّ عليها، وبين فضائلها وآثارها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

دعوة المشركين والكفار إلى التوبة:

ومن آيات القرآن: ما دعا أهل الشرك إلى التَّوْبَةِ، وفتح لهم الباب للانخراط في المجتمع المسلم، واكتساب أخوته، كما قال تعالى في سورة التَّوْبَةِ بعد الأمر بقتال المشركين الناكثين للعهود: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]، ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ١١].

كما دعا النصارى إلى التَّوْبَةِ من قولهم بالوهية المسيح، أو أنه جزء من ثلاثة أجزاء أو «أقانيم» تكوّن الإله! وهو عبد من عباد الله، جرى عليه ما يجري على البشر، وكان داعياً إلى عبادة الله وحده، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۚ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۚ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ

ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ
وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿المائدة: ٧٢ - ٧٤﴾.

بل فتح الله الكريم باب التوبة للكفرة الطغاة الذين عذبوا المؤمنين
والمؤمنات، وألقوا بهم في أحاديث ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ * وَهُمْ عَلَى
مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿[البروج: ٥ - ٧]، فقد قال تعالى بعد أن ذكر قصة
هؤلاء المؤمنين، وأنهم لم ينقموا منهم إلا إيمانهم بالله العزيز الحميد،
قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنَوْا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلْحَرِيقٌ﴾ [البروج: ١٠]. يقول الحسن البصري معلقاً على هذه الآية:
انظر إلى هذا الكرم والجود: قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة
والمغفرة^(١)!

حتى الردة - أي الكفر بعد الإيمان - تقبل التوبة، كما قال تعالى:
﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ
الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ * أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ
اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُنْظَرُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿آل عمران: ٨٦ - ٨٩﴾.

التوبة من النفاق:

وكما دعا القرآن إلى التوبة من الكفر الظاهر المعلن، دعا إلى التوبة
من الكفر الباطن المغلف بإيمان اللسان، وهو المعروف باسم «النفاق»،

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٨٦/٦)، تحقيق محمد حسين شمس الدين، نشر دار الكتب
العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ.

وأهله هم «المنافقون» الذين يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٨﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴿٩﴾ [البقرة: ٨ - ١٠].

والتوبة من هذا النفاق لا تكون بمجرد إعلان الإسلام، فهو معلن من قبل، بل بأوصاف أربعة ذكرها القرآن في سورة النساء، فبعد أن وصفهم في تلك السورة بما جلى حقيقتهم، وكشف مستور دخائلهم: من ولائهم للكافرين من دون المؤمنين يبتغون عندهم العزة ﴿بَشِيرُ الْمُتَنَفِّقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُغُونَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٨﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩]. ومن تربصهم بالمؤمنين، وإمساكهم العصا من الوسط بينهم وبين الكافرين ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]. ومن ذبذبتهم وخداعهم لله ولرسوله، وكسلهم عن أداء فرائضه وغفلتهم عن ذكره ﴿إِنَّ الْمُتَنَفِّقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢، ١٤٣].

بعد أن جلى الله تعالى أوصاف المنافقين، لم يغلق الباب في وجوههم، بل فتح لهم باب التوبة بشروطها، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَنَفِّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦].

فمن تمام توبتهم أن يصلحوا ما أفسدوه بالنفاق، وأن يعتصموا بالله

بدل اعتصامهم بالناس، وأن يخلصوا دينهم لله، حتَّى يخلصهم الله لدينه، وبذلك ينضمُّون إلى قافلة المؤمنين الصادقين.

وفي سورة أخرى يقول تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يُوعَدُونَ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعْذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٧٤].

التَّوْبَةُ مِنَ الْكِبَائِرِ:

وكما ذكر القرآن التَّوْبَةَ مِنَ الشُّرْكِ وَالنِّفَاقِ، ذكر التَّوْبَةَ كَذَلِكَ مِنَ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ، مثل قتل النفس التي حرم الله إلَّا بالحق، والزنى الذي جعله الله فاحشة وساء سبيلاً، وقد عطف القرآن هاتين الكبيرتين على أكبر الكبائر، وهي الشرك، فقال سبحانه في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهْكًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

ويلاحظ أن كثيراً من الآيات تتحدث عن الإيمان بعد التَّوْبَةِ، وتعطفه عليها، كما في هذه الآية، في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَغَسَّيْنَا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص: ٦٧]، وقوله تعالى بعد أن ذكر جملة من رسله وأنبيائه وأتباعهم الأخيار الذين إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرُّوا سجداً وبكياً، ثم قال: ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠].

وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]. فما سرُّ هذا العطف: عطف الإيمان على التوبة؟ والذي يظهر لي أنَّ الإيمان يُخدش خدشًا كبيرًا باقتراف الكبائر، حتَّى إنَّ بعض الأحاديث النبوية لتنفى الإيمان عن مقترف الكبيرة حين يقترفها، كما في حديث «الصحيحين»، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»^(١).

لهذا كانت التَّوبَةُ إعادة أو ترميمًا لهذا الإيمان.

التَّوبَةُ مِنْ كَتْمَانِ الْحَقِّ:

ومن الذنوب الكبيرة التي أشار القرآن إلى ضرورة التَّوبَةِ منها: ذنب كتمان الحق وعدم بيانه للناس، وهذا من ذنوب أهل العلم الذين يجب عليهم أن يبلغوا رسالات الله، ويبينوا للناس حكم الله، ويقولوا الحق، ولا يكتُموا عن الخلق، كما فعل أهل الكتاب الذين ذمَّهم الله تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ، فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وذلك أنَّهم كتموا البشارة بمحمد ﷺ في كتبهم، وحرَّفوا وبدَّلوا، من أجل متاع الدنيا الذي سمَّاه الله «ثمنًا قليلًا»، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧].

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم (٢٤٧٥)، ومسلم في الإيمان (٥٧)، عن أبي هريرة.

بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ ۖ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿البقرة: ١٧٤، ١٧٥﴾.

فانظر إلى هذا الوعيد الهائل البالغ لهؤلاء الكاتمين، الذي يتضمن العذاب المادي: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾، والعذاب المعنوي: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ والخسران في صفقتهم، فقد ﴿اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ﴾، وما ذلك إلا لأنهم أضلوا عباد الله بكتمانهم الشهادة بالحق ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠].

من أجل هذا كانت التوبة مطلوبة طلباً مؤكداً من هؤلاء، حتى ينجوا من هذا العذاب، ومن لعنة الله ولعنة اللاعنين، يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿البقرة: ١٥٩، ١٦٠﴾.

فاشترط في قبول توبتهم: أن يصلحوا ما أفسدوه، ويبيّنوا ما كتموه. وإذا كان هذا جرم من كتم الحق، فما بالكم بجرم من «شوّه الحق»، وحاول أن يجعله في صورة الباطل، ليصدّ الناس عنه، ويزين لهم ضده، بلسانه أو بقلمه؟ لا ريب أن جرمه أعظم، وذنبه أشد خطراً، وهو ما يقع فيه كثير من الكاتبيين والمؤلفين والصحفيين والإذاعيين والفنانين والخطباء، وأمثالهم ممن يصنعون عقول الناس وميولهم واتجاهاتهم.

ولا تصح توبة هؤلاء بمجرد الندم والعزم، بل لا بد أن «يصلحوا ويبيّنوا»، لقد أفسدوا كثيراً من العقول والضمائر، وضلّلوا كثيراً من

الناس، فعليهم أن يُزيلوا أسباب هذا الإفساد من كتب أو أشرطة أو «أفلام» ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فإن لم يستطيعوا برئوا منها علانية في الصحف وغيرها من وسائل الإعلام المُمكنة، وعليهم أن يبينوا بوضوح: موقفهم الجديد، ورجوعهم عمّا كانوا عليه من قبل، في شجاعة ويقين^(١).

فضل التَّوْبَةِ والتَّائِبِينَ فِي الْقُرْآنِ:

وفي الحثِّ على التَّوْبَةِ والترغيب فيها، جاء قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وأي درجة أعلى من درجة الحصول على حبِّ ربِّ العالمين؟

وجاء في وصف عباد الرحمن الذين شَرَّفَهُمُ اللَّهُ بالانتساب إليه، ووعدهم الجنَّةَ، يُلقَّون فيها تحية وسلاماً، خالدين فيها، حُسُنَتْ مستقرّاً ومقاماً قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

وأيُّ فضلٍ أعظم من أن يُقبلَ التَّائِبُ عند الله، حتَّى إنَّه ليبدِّل سيئاته حسنات؟

وفي بيان سعة مغفرة الله تعالى ورحمته للتَّائِبِينَ يقول جل شأنه: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

(١) كما فعل ذلك د. مصطفى محمود، والأستاذ خالد محمد خالد، وآخرون ممَّن هداهم الله.

فهذه الآية فتحت الباب على مصراعيه لكل مذنّبٍ وخطّاء، وإن بلغت ذنوبه عَنان السماء، كما قال ﷺ: «لو أخطأتم حتّى تبلغ خطاياكم السماء، ثم تُبتم لتاب الله عليكم»^(١).

ومن فضائل التائبين: أنّ الله شغل ملائكته المقربين بالاستغفار لهم ودعاء الله تعالى أن يقيهم عذاب الجحيم، وأن يدخلهم جنات النعيم، وأن يقيهم السيئات، فهم في همومهم في الأرض، وحملة العرش مشغولون بهم في السماوات، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧ - ٩].

وجاءت آيات وفيرة في كتاب الله تنبئ عن قبول توبة التائبين إذا صدقت توبتهم، بأساليب شتى، معللة بفضل الله تعالى ومغفرته ورحمته، التي لا تضيق بعاصٍ، وإن عظمت معصيته.

كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤].

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

وفي وصف ذاته سبحانه ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: ٣].

(١) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٤٨)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٢٤٦/٤): إسناده حسن. وجود إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٤٧٤٥)، عن أبي هريرة.

وخصوصًا من تاب وأصلح، وبعبارة أخرى: من تاب وعمل صالحًا كما في قوله في السارق والسارقة: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩].

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].

وجاء مدح الله تعالى باسمه «التَّوَابُ» في أحد عشر موضعًا في القرآن، كما في دعاء إبراهيم وإسماعيل: ﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَابُّ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وكما في قول موسى لبني إسرائيل بعد عبادتهم العجل: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُّ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

وقال تعالى مخاطبًا رسوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

توبات الأنبياء في القرآن:

وقد ذكر لنا القرآن توبات أنبيائه وأصفيائه ممّا وقعوا فيه من زلات، سارعوا بالندم عليها، والتّوبة والاستغفار منها، عسى الله أن يغفرها لهم، ويتقبل توبتهم.

وقدوة التَّائِبِينَ هو أبو البشر آدم عليه السلام الذي خلقه الله بيديه، ونفخ فيه من رُوحه، وأسجد له ملائكته، وعَلَّمَهُ الأسماء كلها، وأظهر فضله على الملائكة بعلمه، ولكنَّ آدم الذي نجح في امتحان العلم والمعرفة، لم ينجح «من الدور الأول» في امتحان الإرادة، فقد ابتلاه الله بأول تكليف منه، وهو النهي عن الأكل من الشجرة: شجرة واحدة نُهي عنها، وأُبيح له أن يأكل من كل أشجار الجنة رغداً حيث شاء، هو وزوجه، وهنا ضعفت إرادته، ونسي نهْيَ رَبِّهِ أمام وسوسة الشيطان وإغرائه، فأكل منها، ووقع في المعصية، ولكنَّه سرعان ما غسلها، وطهَّرَ نفسه من آثارها بالتَّوْبَةِ والاستغفار: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ، فَغَوَىٰ ﴿١﴾ ثُمَّ أَجْبَاهُ رَبُّهُ، فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿٢﴾﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢].

وذكر لنا القرآن توبة موسى الذي اصطفاه برسالاته وبكلامه، وأنزل عليه التوراة، وجعله من أولي العزم من الرسل، وأَيَّدَهُ بتسع آيات بيِّنات، وقد وقع منه ذنب قبل «الرسالة»، وهو الحميَّة لرجل من شيعته، استغاثه على رجل من قوم فرعون، فوكزه موسى فقضى عليه: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٢﴾﴾ [القصص: ١٥، ١٦].

ووقع منه هفوة بعد «الرسالة»، حين: ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِيْ اَنْظُرْ اِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِيْ وَلَكِنْ اَنْظُرْ اِلَى الْجَبَلِ فَاِنْ اُسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرِنِيْ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا اَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ بُتُّ اِلَيْكَ وَاَنَا اَوَّلُ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴿١﴾﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وهنا قال الله له: ﴿يَمُوسَىٰ اِنِّيْ اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِيْ وَبِكَلِمِيْ فَخُذْ مَا اَتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِيْنَ ﴿٢﴾﴾ [الأعراف: ١٤٤].

ولمّا رجع موسى إلى قومه من مناجاته لربه أربعين ليلة، ووجد قومه قد عبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري، واتخذوه إلهًا، غضب غضبًا شديدًا، وقال: بئسما خلفتموني من بعدي! وألقى الألواح التي فيها التوراة كلام الله، ألقى بها في الأرض من الغضب، وفيها كلام الله، وأخذ برأس أخيه هارون يجرّه إليه، وهو رسول مثله، وأخوه يقول له: يا ابن أمّ، لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي، إنّ القوم استضعفوني، وكادوا يقتلونني، فلا تشمت بي الأعداء، ولا تجعلني مع القوم الظالمين.

هنا أحسّ موسى ﷺ بما دفعه إليه الغضب، وإن كان غضبًا لله: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

وذكر لنا القرآن توبة نبيّ الله يونس عليه السلام حين دعا قومه إلى الله، فلم يستجيبوا له، فلم يصبر عليهم، وغاضبهم، وهجرهم مفارقًا لهم، فأراد الله أن يبتليّه بمحنة تطهّره، وتبرز نفاسة معدنه، ومدى يقينه بربه، وصدقه معه، فقد ركب في سفينة، فلمّا كانت في عرض البحر، هاجت بها الرياح، ولعبت بها الأمواج، وظنّوا أنّهم أحيط بهم، وقال الركاب: لا بدّ أن نخفّف السفينة، حتّى لا تغرق بالجميع، فلا بدّ من أن يُلقوا ببعض من فيها في البحر، ليفدي بقية الركّاب، وتم ذلك بالقرعة والاستهام، وجاء السهم على يونس، ولم يكن بُدّ من التسليم والرضوخ، فألقي في البحر، فالتقمه الحوت - أو النّون - وهو مُلّيم، أي: ملوم على مغاضبته لقومه، ويأسه منهم، وتركه لهم، دون تكرار المحاولة، وهنا تجلّى يقين يونس ذي النّون - أو صاحب الحوت - فنادى في الظُّلمات التي يعانيتها: ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت، بكلمات سجّلها الكتاب الخالد القرآن، حين لخص قصّته

بقوله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُفَجِّى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

كلمات ثلاث قصار نادى بها يونس، لها دلالاتها العظيمة:

الأولى: تدلُّ على التوحيد، توحيد الألوهية، الذي به بعث الله الرسل وأنزل الكتب، وقامت به سوق الجنة والنار: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾.

والثانية: تدل على التنزيه عن كل نقص، وهو معنى التسبيح الذي تقوم به السماوات والأرض وكل المخلوقات، وإن من شيء إلا يسبح بحمده: ﴿سُبْحَانَكَ﴾.

والثالثة: تدلُّ على الاعتراف بالذنب، والتقصير في حقِّ الرب، وظلم النفس بالتفريط ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا عنوان التوبة.

فلا عجب أن كان لهذه الكلمات الصادقة المخلصة أثرها العاجل الناجز في الدنيا قبل الآخرة ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُفَجِّى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

وأصبحت هذه الكلمات بدلالاتها الثلاث: التوحيد والتنزيه والاعتراف: أسوة في الابتغال والدعاء عند الكرب، حتَّى جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وصحَّحه: «دعوة أخي ذي النون، ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه: لا إله إلا أنت سبحانك إنِّي كنت من الظالمين»^(١).

(١) رواه أحمد (١٤٦٢)، وقال مخرَّجوه: إسناده حسن. والترمذي في الدعوات (٣٥٠٥)، والحاكم في الدعاء (٣٨٢/٢)، وصحَّح إسناده ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٨٣)، عن سعد بن أبي وقاص.

وذكر لنا القرآن توبة داود عليه السلام فيما حكاه لنا في سورة «ص» حين جاءه خصمان، وتسوّرا عليه المحراب، ففزع منهما، فقالا: ﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأُحْكَمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجَّةً وَلِي نَجَّةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجَّتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّآبٍ ﴿ص: ٢٢ - ٢٥﴾.

ترى ماذا نفهمه هنا من خطيئة داود في هذه القصة، التي ظنَّ أنها كانت فتنة، وابتلاء له، فاستغفر ربه، وخرَّ راكعًا وأناب:

الذي يبدو من ظاهر القصة: أنه عليه السلام تسرّع ولم يثبت، واستجاب لداعي الانفعال بمجرد أن سمع كلام أحد الخصمين، فبادر بالحكم على خصمه، دون أن يسمع منه، ويتيح له الفرصة للدفاع عن نفسه، وما ينبغي للقاضي العادل أن يتأثر بكلام أي خصم أو بمظهره، حتى يحقق ويدقق، ويسمع من كل الأطراف، وتقوم لديه الحجة، وتتضح له المحجة، ولهذا قيل: إذا جاءك أحد الخصمين إحدى عينيه مقلوعة، فانتظر حتى ترى خصمه، فلعل عينيه مقلوعتان!

ومن هنا جاء الأمر الإلهي بعد ذلك لداود ينهاه عن التأثر بالعواطف والأهواء في حكمه، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

وهل كان هذا الخصمان رجلين من بني آدم حقيقة، أو كانا ملكين في صورة رجلين، عرضا عليه القضية امتحانًا واختبارًا، ثم لم يلبثا أن اختفيا، ولم يعرف لهما أثر؟

أَيَّامًا مَا كَانَ أَحَدُ الْإِحْتِمَالِينَ، فَالْمَغْزَى وَاحِدًا، وَلَا مَبْرَرَ لاعتبار هذا من ضرب المَثَلِ، وَأَنَّهُ تَعْرِضُ بِداودَ نَفْسَهُ، فِي طَمَعِهِ فِي امْرَأَةِ جَارِهِ، كَمَا تَصَوَّرُهُ الْإِسْرَائِيلِيَّاتُ الْمَشَوَّهَةُ لَصُورَةِ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ، حَتَّى نَزَلَتْ بِهِمْ إِلَى دَرَكٍ يَتَرَفَعُ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنْ عَامَةِ النَّاسِ، فَكَيْفَ بِرَجُلٍ سَخَّرَ اللَّهُ الْجِبَالَ لِيَسْبَحْنَ مَعَهُ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ، وَقَالَ عَنْهُ فِي أَوَّلِ قِصَّتِهِ: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، وَقَالَ فِي آخِرِهَا: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾.

وَالْآيَاتُ الْمُتَعَلِّقَةُ بِالتَّوْبَةِ كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ، وَتَأْتِي فِي مَوَاضِعِهَا مِنْ هَذَا الْكِتَابِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

التَّوْبَةُ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ:

وَفِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ نَجَدُ الْأَحَادِيثَ الْوَفِيرَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْبَةِ، وَبَيَانَ فَضْلِهَا، وَالتَّرْغِيبَ فِيهَا، بِأَسَالِيبَ شَتَّى، حَتَّى إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(١).

وَأَكْتَفَى بِبَعْضِ مَا ذَكَرَهُ الْحَافِظُ الْمُنْذِرِي فِي كِتَابِهِ «التَّرْغِيبُ وَالتَّرْهيبُ»، وَأَذْكَرَ أَهَمَّ مَا انْتَقَيْتَهُ مِنْهَا فِي كِتَابِي «الْمُنْتَقَى مِنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ».

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ وَجَلَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مَسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ، لِيَتُوبَ مَسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(٢).

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٢) (٤٢)، وأحمد (١٧٨٤٧)، عن الأغر المزني.

(٢) رواه مسلم في التوبة (٢٧٥٩)، وأحمد (١٩٥٢٩).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لو أخطأتم حتى تبلغ الشمس ثم تبتم؛ لتاب الله عليكم»^(١).

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سعادة المرء أن يطول عُمره، ويرزقه الله الإنابة»^{(٢)(٣)}.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مثل المؤمن ومثل الإيمان كمثل الفرس في آخيته، يجول ثم يرجع إلى آخيته، وإن المؤمن يسهو ثم يرجع، فأطعموا طعامكم الأتقياء، وأولوا معروفكم المؤمنين»^(٤).

«الآخية» - بمد الهمزة، وكسر الخاء المعجمة، بعدها ياء مثناة تحت مشددة - هي: حبل يدفن في الأرض مثنيًا، ويبرز منه كالعروة تشد إليها الدابة، وقيل: هو عود يعرض في الحائط تشد إليه الدابة.

وعن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «كل ابن آدم خاطيء، وخير الخطائين التوابون». رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم، كلهم من وراية علي بن مسعدة^(٥)، وقال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث علي بن مسعدة عن قتادة، وقال الحاكم: صحيح الإسناد^(٦).

(١) سبق تخريجه ص ٢٧.

(٢) الإنابة: الرجوع، والمراد إلى الله بالتوبة والاستغفار ونحوهما.

(٣) رواه أحمد (١٤٥٦٤)، وقال مخرجه: حسن لغيره، وهذا إسناد محتمل للتحسين. والحاكم في التوبة والإنابة (٢٤٠/٤)، وصحح إسناده ووافقه الذهبي.

(٤) رواه أحمد (١١٥٢٦)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. وابن حبان في الرقائق (٦١٦)، وأبو يعلى (١٣٣٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٥٣٤): رواه أحمد وأبو يعلى ورجالهما رجال الصحيح غير أبي سليمان الليثي وعبد الله بن الوليد التجيبي وكلاهما ثقة. عن أبي سعيد الخدري.

(٥) قال فيه ابن حجر: صدوق له أوهام. التقريب ص ٤٠٥، ترجمة (٤٧٩٨)، تحقيق محمد عوامة، نشر دار الرشيد، سوريا، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٦) سبق تخريجه ص ١٨.

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا، فَقَالَ: يَا رَبِّ، إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ، فَغْفِرَ لَهُ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا آخَرَ - وَرَبَّمَا قَالَ: ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ - فَقَالَ: يَا رَبِّ، إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ لِي. قَالَ رَبُّهُ: عَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ. فَقَالَ رَبُّهُ: غَفَرْتُ لِعَبْدِي فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»^(١).

قوله: «فليعمل ما شاء» معناه - والله أعلم -: أَنَّهُ مَا دَامَ كَلَّمَا أَذْنَبَ ذَنْبًا اسْتَغْفَرَ وَتَابَ مِنْهُ، وَلَمْ يَعِدْ إِلَيْهِ؛ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: «ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا آخَرَ» فليُفْعَلْ إِذَا كَانَ هَذَا دَأْبَهُ مَا شَاءَ؛ لِأَنَّهُ كَلَّمَا أَذْنَبَ كَانَتْ تَوْبَتُهُ وَاسْتَغْفَارُهُ كَفَّارَةً لَذَنْبِهِ فَلَا يَضُرُّهُ، لَا أَنَّهُ يَذْنُبُ الذَّنْبَ، فَيَسْتَغْفِرُ مِنْهُ بِلِسَانِهِ مِنْ غَيْرِ إِقْلَاعٍ، ثُمَّ يَعَاوَدُهُ، فَإِنَّ هَذِهِ تَوْبَةُ الْكَذَّابِينَ.

وقد تقدم^(٢) حديث: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نَقْطَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ مِنْهَا»^(٣) الحديث.

وعن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَتْ قَرِيشٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ادْعَ لَنَا رَبَّكَ يَجْعَلَ لَنَا الصِّفَا ذَهَبًا، فَإِنْ أَصْبَحَ ذَهَبًا اتَّبَعْنَاكَ، فَدَعَا رَبُّهُ، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ:

- (١) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٥٠٧)، ومسلم في التوبة (٢٧٥٨).
- (٢) أي: في المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب (٥٠٥/١) حديث رقم (٩٠٨)، نشر المكتب الإسلامي، بيروت ودمشق، ط ٣، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م. والحديث رواه الترمذي في التفسير (٣٣٣٤)، والنسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٢٥١)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٤٤)، وابن حبان في الرقائق (٩٣٠)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن. والحاكم في التفسير (٥١٧/٢) ووافقه الذهبي. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (١٦٢٠).
- (٣) رواه أحمد (٧٩٥٢)، وقال مخرجه: إسناده قوي. والترمذي في التفسير (٣٣٣٤)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الزهد (٤٢٤٤)، والطبري في تفسيره (٢٦٧/١)، والحاكم في التفسير (٥١٧/٢)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، عن أبي هريرة.

«إِنَّ رَبَّكَ يَقْرُوكَ السَّلَامُ، وَيَقُولُ لَكَ: إِنْ شِئْتَ أَصْبَحَ لَهِمُ الصَّفَا ذَهَبًا، فَمَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ عَذَّبْتَهُ عَذَابًا لَا أَعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ» قال: «بَابُ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ». رواه الطبراني ورواه رواته رواية الصحيح^(١).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يَغْرُغْ». رواه ابن ماجه والترمذي وقال: حديث حسن^(٢).

«يَغْرُغُ» - بغينين معجمتين، الأولى مفتوحة والثانية مكسورة وبراء مكررة - معناه: ما لم تبلغ رُوحه حلقومَه؛ فيكون بمنزلة الشيء الذي يتغرغر به.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ». رواه ابن ماجه والطبراني، كلاهما من رواية أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، ولم يسمع منه، ورواه الطبراني رواية الصحيح^(٣)، ورواه ابن أبي الدنيا والبيهقي مرفوعاً أيضاً من حديث ابن عباس، وزاد: «والمستغفر من الذَّنْبِ وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه» وقد روي بهذه الزيادة موقوفاً، ولعله أشبه^(٤).

(١) رواه الطبراني (١٥٢/١٢)، وأحمد (٢١٦٦)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والحاكم في التفسير (٣١٤/٢)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٤٩٦): رجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه أحمد (٦١٦٠)، وقال مخرجه: إسناده حسن. والترمذي في الدعوات (٣٥٣٧)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٣)، عن ابن عمر.

(٣) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٥٠)، والطبراني (١٥٠/١٠)، والبيهقي في الشهادات (١٥٤/١٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٠٨)، عن ابن مسعود.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في التوبة (٨٥)، والبيهقي في الشهادات (١٥٤/١٠)، وقال عقبه: هذا إسناده فيه ضعف. وفي شعب الإيمان (٦٧٨٠)، وقال الذهبي في تنقيح التحقيق (٢٥٩/٢): إسناده مظلم.

وعن عبد الله بن معقل^(١) قال: دخلت أنا وأبي على ابن مسعود رضي الله عنه ، فقال له أبي: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «الندم توبة»^(٢)؟ قال: نعم. رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «والذي نفسي بيده، لو لم تذبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم»^(٤). رواه مسلم وغيره^(٥).

عن عمران بن الحصين رضي الله عنه ، أن امرأة من جُهينة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي حبلى من الزنى، فقالت: يا رسول الله، أصبت حدًا، فأقمه عليّ. فدعا نبي الله صلى الله عليه وسلم وليها، فقال: «أحسن إليها، فإذا وضعت فأتني بها»، ففعل، فأمر بها النبي صلى الله عليه وسلم ، فشُدَّت عليها ثيابها، ثم أمر بها فُرِجَتْ، ثم صَلَّى عليها، فقال له عمر: تصلّي عليها يا رسول الله وقد زنت؟ قال:

(١) في الأصل وفي طبعة الشيخ منير، وكذا في المستدرک: عبد الله بن مغفل، وهو غلط ناسخ أو طابع، والصواب: عبد الله بن معقل بن مقرن المزني كما هو واضح من سند الحديث عند أحمد، فقد رواه في مسند ابن مسعود (٣٥٦٨).

(٢) أي الركن الأعظم في التوبة: الندم، كما في حديث: «الحج عرفة». فلا ينفي ذلك وجوب العزم والإقلاع في تحقق التوبة النصوح.

(٣) رواه الحاكم في التوبة (٢٤٣/٤)، ووافقه الذهبي. وفات المنذري أن ينسبه إلى أحمد، كما أشرنا، وقال مخرّجوه: صحيح، وهذا إسناد حسن. كما رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٥٢)، وصحّحه الألباني لغيره في صحيح الترغيب (٣١٤٧).

(٤) ذلك لأن من أسمائه سبحانه «الغفار»، فلمن يغفر إذا كان كل عباده معصومين لا يذنبون؟! فلا ينبغي لمذنب أن يئس، مهما يكن ذنبه كبيرًا، فإن مغفرة الله أكبر منه، وهو تعالى يقول: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

(٥) رواه مسلم في التوبة (٢٧٤٩)، وأحمد (٨٠٨٢).

«لقد تابت توبة لو قُسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله وَعَجَّلَ؟». رواه مسلم^(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدلّ على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدلّ على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، من يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء. فانطلق حتى إذا نصّف الطريق، فأتاه ملك الموت^(٢)، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط. فأتاها ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيّتهما كان أدنى فهو له! فقاوسوا، فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة».

وفي رواية: «فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر، فجعل من أهلها».

وفي رواية: «فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقرّبي، وقال: قيسوا بينهما، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له».

وفي رواية: قال قتادة: قال الحسن: ذكّر لنا أنّه لما أتاه ملك الموت نأى ب صدره نحوها. رواه البخاري ومسلم وابن ماجه^(٣) بنحوه.

(١) رواه مسلم في الحدود (١٦٩٦)، وأحمد (١٩٨٦١).

(٢) في نسخة: «حتى إذا نصّف الطريق أتاه الموت».

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٠)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٦)، كما رواه ابن ماجه في الديات (٢٦٢٢).

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ ﻋَزَّ وَجَلَّ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَاللَّهُ لَأَفْرَحَ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أَهْرُولَ». رواه مسلم واللفظ له، والبخاري بنحوه^(١).

وعن شريح - هو ابن الحارث - قال: سمعت رجلاً من أصحاب النبي ﷺ يقول: قال النبي ﷺ: «قَالَ اللَّهُ ﻋَزَّ وَجَلَّ : يَا ابْنَ آدَمَ، قُمْ إِلَيَّ أَمْشِ إِلَيْكَ، وَامْشِ إِلَيَّ أَهْرُولُ إِلَيْكَ». رواه أحمد بإسناد صحيح^(٢).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لِلَّهِ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ بِأَرْضِ فِلَاةٍ». رواه البخاري ومسلم^(٣)، وقد رويها أيضاً عن ابن مسعود بصيغة أوسع من هذه^(٤).

وعن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحْسَنَ فِيمَا بَقِيَ غُفِرَ لَهُ مَا مَضَى، وَمَنْ أَسَاءَ فِيمَا بَقِيَ أَخَذَ بِمَا مَضَى وَمَا بَقِيَ». رواه الطبراني بإسناد حسن^(٥).

وعن عَقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مَثَلَ الَّذِي يَعْمَلُ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ يَعْمَلُ الْحَسَنَاتِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ كَانَتْ عَلَيْهِ دَرْعٌ ضَيِّقَةٌ قَدْ خَنَقَتْهُ، ثُمَّ عَمِلَ حَسَنَةً فَانْفَكَتْ حَلْقَةً، ثُمَّ عَمِلَ حَسَنَةً أُخْرَى، فَانْفَكَتْ

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥)، ومسلم في التوبة (٢٦٧٥).

(٢) رواه أحمد (١٥٩٢٥)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٥٠٠): رجاله رجال الصحيح غير شريح بن الحارث، وهو ثقة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٩)، ومسلم في التوبة (٢٧٤٧).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٨)، ومسلم التوبة (٢٧٤٤).

(٥) رواه الطبراني في الأوسط (٦٨٠٦)، وحسن إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٥٣٧).

أخرى، حتّى يخرج إلى الأرض». رواه أحمد والطبراني بإسنادين رواة أحدهما رواة الصحيح^(١).

وعن ابن مسعود^(٢) رضي الله عنه قال: إنّ رجلاً أصاب من امرأة قبله. وفي رواية: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّني عالجت امرأة في أقصى المدينة، وإنّي أصبت منها ما دون أن أمسّها^(٣)، فأنا هذا، فاقض فيّ ما شئت. فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت نفسك. قال: ولم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً، فقام الرجل فانطلق، فأتبعه النبي ﷺ رجلاً، فدعاه، فتلا عليه هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النِّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، فقال رجل من القوم: يا نبي الله، هذا له خاصّة؟ قال: «بل للناس كافة». رواه مسلم وغيره^(٤).

وعن أبي طويل شطب الممدود أنّه أتى النبي ﷺ فقال: رأيت من عمل الذنوب كلها، ولم يترك منها شيئاً، وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلّا أتاها^(٥)، فهل لذلك من توبة؟ قال: «فهل أسلمت؟». قال: أمّا أنا فأشهد أن لا إله إلّا الله، وأنك رسول الله. قال: «تفعل الخيرات، وترك السيئات، فيجعلنّ الله لك خيرات كلّهن». قال: وغدّراتي

(١) رواه أحمد (١٧٣٠٧)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. والطبراني (٢٨٤/١٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٥٣٦): رواه أحمد والطبراني، وأحد إسنادي الطبراني رجاله رجال الصحيح.
(٢) في الأصل (أبي هريرة)، والمثبت من صحيح مسلم.
(٣) «دون أن أمسّها» أراد: أصبت منها شيئاً غير الجماع، وفي نسخة: «أصبت منها دون...» إلخ غير «ما».

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في مواقيت الصلاة مختصراً (٥٢٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٣).

(٥) الحاجة: أراد به الصغير، والداجة: أراد به الكبير من الذنوب.

وفجراتي؟! قال: «نعم». قال: الله أكبر! فما زال يكبر حتى توارى. رواه البزار والطبراني واللفظ له، وإسناده جيّد قوي^(١).

هل تجب التَّوْبَةُ من الصَّغَائِر؟

وقد أثار العلامة ابن رجب الحنبلي في كتابه «جامع العلوم والحكم» سؤالاً مهماً عن صغائر الذنوب: هل تجب التَّوْبَةُ منها كالكبائر أو لا؟ لأنّها تقع مكفّرة باجتناب الكبائر، لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نَكُفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، قال: «هذا ممّا اختلف النَّاس فيه:

- فمنهم من أوجب التَّوْبَةَ منها، وهو قول أصحابنا وغيرهم من الفقهاء والمتكلِّمين وغيرهم.

وقد أمر الله بالتَّوْبَةِ عَقِيبَ ذِكْرِ الصَّغَائِرِ وَالْكَبَائِرِ، فقال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴿إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

وأمر بالتَّوْبَةِ من الصَّغَائِرِ بِخُصُوصِهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

(١) رواه البزار كما في كشف الأستار (٣٢٤٤) وفيه: «تعمل الخيرات، وتُسِر السيئات». والطبراني (٣١٤/٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٥٣٨): رواه الطبراني والبزار بنحوه، ورجال البزار رجال الصحيح، غير محمد بن هارون أبي نسيط، وهو ثقة. وقال الحافظ في الأمالي المطلقة ص ١٤٥: هذا حديث حسن صحيح غريب.

- ومن النَّاس من لم يوجب التَّوْبَة منها، وحُكي عن طائفة من المعتزلة.

- ومن المتأخرين من قال: يجب أحد أمرين، إمَّا التَّوْبَة منها، أو الإتيان ببعض المكفَّرات للذنوب من الحسنات.

- وحكى ابن عطية في «تفسيره» في تكفير الصغائر بامتنال الفرائض واجتناب الكبائر قولين:

أحدهما: وحكاه عن جماعة من الفقهاء وأهل الحديث: أنَّه يُقَطَّع بتكفيرها بذلك قطعًا، لظاهر الآية والحديث.

والثاني: وحكاه عن الأصوليين: أنَّه لا يُقَطَّع بذلك، بل يُحْمَل على غلبة الظن وقوة الرجاء، وهو في مشيئة الله وَجَلَّ، إذ لو قطع بتكفيرها، لكانت الصغائر في حكم المباح الذي لا تبعة فيه، وذلك نقض لعُرى الشريعة^(١).

قلت: قد يقال: لا يقطع بتكفيرها؛ لأنَّ أحاديث التكفير المطلقة بالأعمال جاءت مقيَّدة بتحسين العمل، كما ورد ذلك في الوضوء والصلاة، وحينئذ فلا يتحقَّق وجود حسن العمل الذي يوجب التكفير، وعلى هذا الاختلاف الذي ذكره ابن عطية ينبني الاختلاف في وجوب التَّوْبَة من الصغائر^(٢) اهـ.

(١) المحرر الوجيز لابن عطية (٤٤/٢)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ.

(٢) جامع العلوم والحكم (٤٤٦/١، ٤٤٧)، تحقيق شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٧، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

والحق أَنَّ التَّوْبَةَ مطلوبة من كل مكلف، وأنَّ جميع المؤمنين مأمورون بالتَّوْبَةِ، كما ذكرته الآية الكريمة ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

وقد ذكرنا أَنَّ هناك من يتوب من الكبائر، وهناك من يتوب من البدع، وهناك من يتوب من صغائر الذنوب، ومن يتوب من الشبهات. وهناك من يتوب من الغفلات.

وهناك من يتوب من الحالة التي كان عليها إذا ترقى إلى حال أحسن، وهذه هي توبة النبي ﷺ الذي كان يقول: «يا أَيُّهَا النَّاسُ، توبوا إلى الله، فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(١).

وجوب التَّوْبَةِ على الفور:

وإذا كانت التَّوْبَةُ واجبة على المؤمنين جميعًا، فَإِنَّ الإتيان بها على الفور: واجب آخر، فلا يجوز تأخيرها ولا التسويف بها، فَإِنَّ ذلك خطر على قلب المتدين، إذا لم يسارع بالتطهر أولاً بأول، فيُخشى أن تتراكم آثار الذنوب، واحداً بعد الآخر، حتَّى تُحدث سواداً في القلب، أو زيفاً فيه. كما جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نَّكَتَ فِي قَلْبِهِ نَقْطَةً، فَإِنْ هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَتْ، فَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُو قَلْبَهُ، فَذَاكَ الرَّاغِبُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»^(٢).

(١) سبق تخريجه ص ٣٣.

(٢) سبق تخريجه ص ٣٥.

وقال ابن القيم: «المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور، ولا يجوز تأخيرها، فمتى أخرها عصي بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى، وهي توبته من تأخير التوبة! وقل أن تخطر هذه ببال التائب، بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر، وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة»^(١) اهـ.

وأخطر شيء على من وقع في المعصية هو: التسويف بمعنى أن يقول: سوف أرجع، سوف أتوب. ولا يفعل، ولهذا قيل: «سوف» جند من جنود إبليس! وقيل: أكثر أهل النار المسوِّفون. وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُلْهِكُمْ أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِكُمْ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٩ - ١١].

ومن فضائل المبادرة: أنها تعين المكلف على اقتلاع الذنب قبل أن يستفحل، ويرسخ في أرض القلب أصله، وتنتشر في الأعمال فروع، ويزداد كل يوم تشبُّثاً بالجذور، وتشعُّباً في الفروع.

وما مثل المسوِّف إلا كمثل من احتاج إلى قلع شجرة، فرآها قوية، لا تنقلع إلا بمشقة شديدة جليّة، فقال: أدخرها سنة، ثم أعود لأقتلعها، وهذا من حماقته وغبائه، فهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه! فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته،

(١) مدارج السالكين (٢٧٢/١)، تحقيق محمد حامد الفقي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت،

ط ٢، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

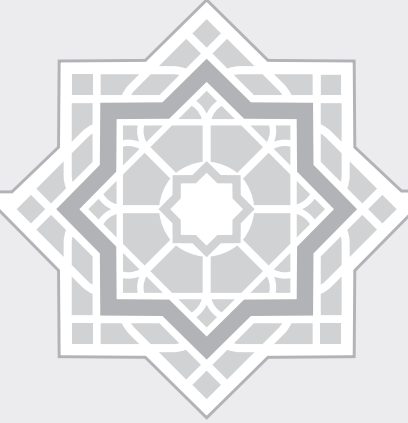
إِذْ عَجَزَ - مع قوته - عن مقاومة ضعيف، فكيف ينتظر الغلبة عليه، إذا ضعف هو في نفسه، وقوي الضعيف؟!

وكثيرًا ما يسوِّفُ المسوِّفون، حتَّى يأتي الوقت الذي ترفض فيه التَّوْبَةُ، ولا يقبلها الله تعالى، وذلك حين يفقد الإنسان الاختيار، وتكون توبته توبة اضطرار، مثل توبة فرعون حينما أدركه الغرق، فقال: آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فكان الرد الإلهي: ﴿ءَاكُنْ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

وإذا وصل المكلف إلى وقت معاينة الموت وحضوره، فهنا لا تنفعه توبة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُنْ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٧، ١٨].



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرِظِي



الباب الثاني
مقومات التوبة



- التَّوْبَةُ النُّصُوحُ.
- مجرد الكلام باللسان ليس توبة.
- التَّوْبَةُ كما شرحها الغزالي.
- شرح العناصر المكوّنة لحقيقة التَّوْبَةِ.
- الاستغفار.
- شروط الاستغفار وآدابه.





مقومات التوبة

مادة «ت. و. ب» في لغة العرب: تدلُّ على الرجوع والعودة، والتَّوْبَةُ إلى الله تعني: الرجوع إليه والعودة إلى رحابه والوقوف على بابه.

ذلك أنَّ الأصل في الإنسان: أن يكون مع الله تعالى، موصول الحبال به، لا يبعد عنه، ولا يستغني عنه سبحانه لحياة جسمه، كما لا يستغني عنه لحياة رُوحه، بل لعل حاجته إليه في الآخرة أشد من حاجته إليه في الأولى؛ لأنَّ حاجة جسمه تشاركه فيها البهيمة العجماء، أمَّا حاجة الرُّوح، فهي التي تميّزه عن غيره من الأنعام والحيوانات، فقد خلقه الله تعالى على طبيعة مزدوجة، فيها: قبضة الطين، كما فيها: نفخة الرُّوح، وهذه هي التي جعلته أهلاً لأن تسجد له الملائكة تكريماً واحتفالاً بشأنه، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ ﴿٧٠﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ، سَاجِدِينَ ﴿٧١﴾﴾ [ص: ٧١، ٧٢].

فلم يأمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم إلا بعد تسويته ونفخ الروح فيه:

فإذا أطاع الإنسان ربّه فقد أعلى نفخة الرُّوح على قبطة الطين، وبعبارة أخرى: فقد أعلى الجانب الرُّوحي على الجانب المادي، أعلى الجانب الربّاني الأعلى، على الجانب الطيني الأدنى، وبهذا

يسمو الإنسان ويرتقي، ويقرب من ربه سبحانه بقدر جهده في الارتقاء الرُّوحي.

وإذا عصى الإنسان ربّه، انعكست الآية، واستعلى الطين على الرُّوح، وغلب الجانب المادي الأدنى على الجانب الرباني الأعلى، وبهذا يهبط الإنسان ويتدنّى، ومن ناحية أخرى يبعد عن الله تعالى بقدر إيغاله في الذنوب والمعاصي.

والتَّوبَةُ تتيح له الفرصة لتدارك الفأثت، وتصحيح المسار، فيرتقي بعدما هبط، ويقترّب من ربه بعدما بُعد، ويرجع إليه بعدما شرد.

التَّوبَةُ النصوح:

والتَّوبَةُ التي أَمَرَ بها المؤمنون هي «التَّوبَةُ النصوح» التي جاء فيها قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا...﴾ [التحریم: ٨]، فما معنى التَّوبَةُ النصوح؟

يقول الحافظ ابن كثير في «تفسيره»: «أي: توبة صادقة جازمة، تمحو ما قبلها من السيئات، وتلُمُّ شعث التَّائب وتجمعه، وتكفّر عنه ما كان يتعاطاه من الدناءات»^(١).

فالنصوح: صيغة مبالغة من ناصح، كالشكور والصبور، مبالغة من: شاكر وصابر. ومادة (ن. ص. ح) في العربية تعني: الخُلوص، يقال: نصح العسل، إذا خلا من الغشّ، وسلّم من الشوائب الغريبة، فالنصح في التَّوبَةِ، مثل النصح في العبادة، وفي المشورة: تخليصها من كل غشّ ونقص وفساد، وإيقاعها على أكمل الوجوه، والنصح ضدّ الغشّ^(٢).

(١) تفسير ابن كثير (١٩٠/٨).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٣٠٩/١).

وقد اختلفت عبارات السلف في بيان حقيقة التَّوْبَةِ النصوح، حتَّى أوصلها الإمام القرطبي في تفسيره إلى ثلاثة وعشرين قولاً^(١)، والحق أنَّ مرجعها إلى شيء واحد، ولكن كل واحد منهم عبّر عن حاله، أو عن عنصر أو أكثر منها.

وذكر ابن جرير وابن كثير وابن القيم عن عمر^(٢) وابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنه: التَّوْبَةُ النصوح: أن يتوب من الذَّنْب ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضرع^(٣).

وروى أحمد عن ابن مسعود مرفوعاً: «التَّوْبَةُ من الذَّنْب: أن يتوب منه ثم لا يعود فيه»^(٤) وسنده ضعيف، والموقوف أصح كما قال ابن كثير.

وقال الحسن البصري: هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى، مجمِعاً على ألا يعود فيه.

وقال الكلبي: أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك «أي: يمتنع» بالبدن.

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٩٧/٨ - ٢٠٠)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٣٢)، والحاكم في التفسير (٤٩٥/٢)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وصحَّح إسناده ابن حجر في المطالب العالية (٣٧٦١).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير (١٠٦/٢٣، ١٠٧)، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر دار هجر، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، وتفسير ابن كثير (١٩٠/٨)، ومدارج السالكين (٣٠٩/١).

(٤) رواه أحمد (٤٢٦٤)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف. وضعَّف إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٥٢٤)، وقال ابن كثير في تفسيره (١٩٠/٨): تفرد به أحمد من طريق إبراهيم بن مسلم الهجري، وهو ضعيف، والموقوف أصح.

وقال سعيد بن المسيّب: توبة نصوحًا: أي تنصّحون بها أنفسكم. جعلها بمعنى ناصحة للتائب، مثل: ضروب، مبالغة في ضارب. وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنى المفعول، أي نصّح فيها التائب، ولم يشبها بغشّ، فهي إمّا بمعنى: منصوحٌ فيها، كركوبة وحلوبة، بمعنى: مركوبة ومحلوّبة، أو بمعنى الفاعل، أي ناصحة كخالصة وصادقة.

وقال محمد بن كعب القرطبي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيئ الإخوان^(١).

مجرد الكلام باللسان ليس توبة:

ليست التّوبة قولاً باللسان، كما يفهم كثير من العوام، حين يذهب أحدهم إلى بعض شيوخ الدين، فيقول له: يا سيدي الشيخ توبّني! فيقول الشيخ: ردّد ورائي أو قلّ معي: تبتُّ إلى الله، ورجعت إلى الله، وندمت على ما فعلت، وعزمت على ألاّ أعود إلى المعاصي أبداً، وبرئت من كل دين يخالف دين الإسلام.

فإذا ردّد هذه الكلمات وراء الشيخ خرج من عنده وظنّ أنّه قد تاب! وهذه من الجهل القبيح من الطرفين: من العامي ومن الشيخ أيضاً، فالتّوبة ليست مجرد كلام يلوّكه اللسان، ولو كان كذلك ما - كان - أسهلها!

(١) انظر: تفسير البغوي (١٦٩/٨، ١٧٠)، تحقيق محمد عبد الله النمر وآخرين، نشر دار طيبة، ط ٤، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ومدارج السالكين (٣٠٩/١).



التَّوْبَةُ أَمْرٌ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعَمَّقُ وَأَصْعَبُ، إِنَّ عَمَلَ اللِّسَانِ مَطْلُوبٌ فِيهَا بَعْدَ أَنْ تَتَحَقَّقَ وَتَتَأَكَّدَ، لِيَعْتَرِفَ بِالذَّنْبِ وَيَسْأَلَ اللَّهَ الْمَغْفِرَةَ، أَمَّا مَجْرَدُ الْإِسْتِغْفَارِ، أَوْ إِعْلَانِ التَّوْبَةِ بِاللِّسَانِ دُونَ عَقْدِ الْقَلْبِ؛ فَهُوَ تَوْبَةُ الْكَذَّابِينَ، كَمَا قَالَ ذُو النُّونِ الْمَصْرِيُّ، وَهُوَ مَا قَالَتْهُ السَّيِّدَةُ رَابِعَةً: إِنَّ اسْتِغْفَارَنَا يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِغْفَارٍ^(١)! حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ: اسْتَغْفِرَ اللَّهُ مِنْ قَوْلِي: اسْتَغْفِرَ اللَّهُ^(٢). أَيُّ: بِاللِّسَانِ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ وَنَدَمٍ بِالْقَلْبِ!

أَمَّا حَقِيقَةُ التَّوْبَةِ فَهِيَ عَمَلٌ عَقْلِيٌّ وَقَلْبِيٌّ وَبَدَنِيٌّ، تَبْدَأُ بِعَمَلِ الْعَقْلِ يَتَّبِعُهُ عَمَلُ الْقَلْبِ، فَيُثْمَرُ عَمَلُ الْبَدَنِ، وَلِذَا قَالَ الْحَسَنُ: هِيَ نَدَمٌ بِالْقَلْبِ، وَاسْتِغْفَارٌ بِاللِّسَانِ، وَتَرْكٌ بِالْجَوَارِحِ، وَإِضْمَارٌ إِلَّا يَعُودَ إِلَى الذَّنْبِ^(٣).

التَّوْبَةُ كَمَا شَرَحَهَا الْغَزَالِيُّ:

والتَّوْبَةُ كَمَا شَرَحَهَا الْإِمَامُ الْغَزَالِيُّ فِي «إِحْيَائِهِ» مَعْنَى مَرْكَبٍ مِنْ ثَلَاثَةِ عُنَاوِينَ: عِلْمٌ وَحَالٌ وَعَمَلٌ. فَالْعِلْمُ: الْأَوَّلُ، وَالْحَالُ: الثَّانِي، وَالْعَمَلُ: الثَّالِثُ.

قَالَ: وَالْأَوَّلُ مُوجِبٌ لِلثَّانِي، وَالثَّانِي مُوجِبٌ لِلثَّالِثِ، إِجْبَابًا اقْتِضَاهُ أَطْرَادَ سُنَّةِ اللَّهِ فِي الْمُلْكِ وَالْمَمْلُوكِ.

(١) تَنْبِيهِ الْغَافِلِينَ لِلْسُّمْرِقَنْدِيِّ ص ١٠٨، تَحْقِيقُ يَوْسُفَ عَلِيٍّ بَدْيَوِيٍّ، نَشْرُ دَارِ ابْنِ كَثِيرٍ، ط ٣، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م. وَإِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ (٣١٣/١). وَذَكَرَهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي التَّذَكُّرَةِ بِأَحْوَالِ الْمَوْتَى عَنْ قَوْلِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ص ٢١٤، تَحْقِيقُ د. الصَّادِقِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، نَشْرُ دَارِ الْمَنْهَاجِ بِالرِّيَاضِ، ط ١، ١٤٢٥هـ.

(٢) قَالَتْهُ رَابِعَةً. كَمَا ذَكَرَهُ الرَّائِغُ الْأَصْفَهَانِيُّ فِي مُحَاضَرَاتِ الْأَدْبَاءِ (٤٨٤/٢)، نَشْرُ شَرَكَةِ دَارِ الْأَرْقَمِ بْنِ أَبِي الْأَرْقَمِ، بَيْرُوتَ، ط ١، ١٤٢٠هـ.

(٣) قُوَّةُ الْقُلُوبِ (٣٠٣/١)، وَالتَّبَصُّرَةُ لِابْنِ الْجَوْزِيِّ (٣٦٩/١)، نَشْرُ دَارِ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ، بَيْرُوتَ، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.



قال رَحِمَهُ اللهُ: «أما العلم، فهو معرفة عِظَمِ ضرر الذنوب، وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب، فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقينٍ غالب على قلبه: ثار من هذه المعرفة تألُّمٌ للقلب بسبب فوات المحبوب، فإنَّ القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألَّم، فإنَّ كان فواته بفعله تأسَّف على الفعل المفوَّت، فيسمَّى تألُّمه بسبب فعله المفوَّت لمحبوبه «ندماً»، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى، انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمَّى إرادةً وقصدًا إلى فعل له تعلُّق بالحال وبالماضي وبلاستقبال، أمَّا تعلُّقه بالحال فبالترك للذنوب الذي كان ملابسًا، وأمَّا بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنوب المفوَّت للمحبوب إلى آخر العمر، وأمَّا بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر.

فالعلم هو الأول، وهو مطلع هذه الخيرات، وأعني بهذا العلم: الإيمان واليقين، فإنَّ الإيمان عبارة عن التصديق بأنَّ الذنوب سموم مُهلكة، واليقين عبارة عن تأكُّد هذا التصديق، وانتفاء الشك عنه، واستيلائه على القلب، فيثمر «نور» هذا الإيمان مهما أشرق على القلب «نار» الندم، فيتألَّم بها القلب، حيث يُبصر بإشراق نور الإيمان أنَّه صار محجوباً عن محبوبه، كمن يشرق عليه نور الشمس، وقد كان في ظلمة، فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب، أو انحسار حجاب، فرأى محبوبه، وقد أشرف على الهلاك، فتشتعل نيران الحبِّ في قلبه، وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك.

فالعلم والندم والقصد المتعلِّق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي: ثلاثة معانٍ مرتَّبة في الحصول، فيطلق اسم «التوبة» على مجموعها.

وكثيرًا ما يطلق اسم التَّوْبَةِ على معنى «الندم» وحده، ويجعل العلم كالسابق والمقدّمة، والترك كالثمرة والتابع المتأخّر، وبهذا الاعتبار قال عليه السلام «الندم توبة»^(١). إذ لا يخلو الندم عن علمٍ أوجبه وأثمره، وعن عزم يتبعه ويتلوه، فيكون الندم محفوفًا بطرفيه أعني: ثمرته ومُثمره»^(٢). اهـ.

شرح العناصر المكوّنة لحقيقة التوبة:

وممّا ذكره «الغزالي» وغيره يتبيّن لنا: أنّ حقيقة التَّوْبَةِ التي أمر الله بها المؤمنين جميعًا لعلهم يفلحون، كما أمرهم أن تكون توبتهم إليه توبة نصوحًا، إنّما تتكوّن من عناصر أو مقوّمات ثلاثة، مرتّبة بعضها على بعض، كما بيّن أبو حامد رحمته الله.

١ - العنصر المعرفي في التوبة:

أول هذه العناصر أو المقومات هو العنصر المعرفي الإدراكي، الذي يتجلّى في معرفة الإنسان خطأه وخطيئته، حين وقع في معصية ربّه، وانكشف الغشاوة عن عينيه حتّى يبصر، والوقر عن أذنيه حتّى يسمع، والظلمة عن عقله حتّى يدرك، في لحظة من لحظات اليقظة والعودة إلى سلامة الفطرة، هنا يعرف جلال ربه، وعزة مقامه، وعظيم حقّه وعجل، ويعرف تفريط نفسه في جنب الله تعالى، وطاعته لعدوّه الشيطان، وخسرانه المبين في الآخرة والأولى، إن استمر سائرًا في ركاب إبليس وجنوده.

(١) سبق تخريجه ص ٣٧.

(٢) إحياء علوم الدين (٤/٣، ٤).

وهنا يحتاج الإنسان إلى تركيز فكره، وإعمال عقله، والتأمل العميق في نفسه وفيما حوله: في مبدئه، ومسيره، ومصيره، في معنى حياته، وفي موته، وما بعد موته، في نعم الله المتتابعة عليه، وموقفه منها، في أن خير الله تعالى إليه نازل، وشره إلى الله صاعد، في تحبب الله إليه بنعمه وهو الغني عنه، وتبغضه إلى الله بالمعاصي، وهو أفقر شيء إليه، في أنه تعالى لم يغلق بابه عن عباده، وإن ظلموا وأسرفوا على أنفسهم، وأنه يناديهم دائماً: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

هذه الوقفة اليقظة مع النفس هي حجر الأساس في بنیان التوبة، فهي التي تدفع القلب إلى الندم، والإرادة إلى العزم، واللسان إلى الاستغفار، والبدن إلى الامتناع والإقلاع.

وهذا ما نبّه عليه القرآن في قول الله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤].

بهذا الترتيب الذي دلّ عليه العطف بحرف «الفاء».

فالأول هو العلم الذي يعرف به أربابه أنه الحق من ربهم، فيرتب عليه أن يؤمنوا به، فالعلم إذن دليل الإيمان وقائده، ويترتب على الإيمان إخبات القلوب وخشوعها.

وقال تعالى في وصف المتقين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فهؤلاء ذكروا الله تعالى، فاستغفروه لذنوبهم، فالاستغفار إنما جاء ثمرةً لذكر الله، والذكر هنا: إنما هو نوع من المعرفة؛ لأن المقصود به ليس هو ذكر اللسان، كما قد يتوهم بعض الناس، إنما هو الذكر ضد

النسيان، وهو لون من ألوان المعرفة، كما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤].

إنَّ العلم في الإسلام مقدَّم على أحوال النفس، وعلى أعمال الجسم، ولا غرو أن كانت أول آية نزلت في القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]. والقراءة هي مفتاح العلم.

وقال الإمام البخاري في صحيحه: باب: العلم قبل العمل، واستدلَّ لذلك بقول الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، فقدَّم الأمر بالعلم على الأمر بالاستغفار.

وقال القشيري في «رسالته»: «أول التوبة: انتباه القلب عن رقدة الغفلة، ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحالة، ويصل إلى هذه الجملة بالتوفيق والإصغاء إلى ما يخطر بباله من زواجر الحق سبحانه، بسمع قلبه، فإنه جاء في الخبر: «واعظ الله في قلب كل مسلم»^(١). وفي الخبر: «وإنَّ في البدن لمضغة إذا صلحت صلح جميع البدن، وإذا فسدت فسدت جميع البدن، ألا وهي القلب»^(٢). فإذا فكَرَ بقلبه في سوء ما يصنعه، وأبصر ما هو عليه من قبيح الأفعال: سنح في قلبه إرادة التَّوْبَةِ، والإقلاع عن قبيح المعاملات، فيمُدُّه الحق سبحانه بتصحيح العزيمة، والأخذ في جميل الرُّجْعَى، والتَّاهِبِ لأسباب التَّوْبَةِ»^(٣).

(١) رواه أحمد (١٧٦٣٤)، وقال مخرَّجوه: صحيح. والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢١٤٣)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٨٨٧)، عن النّوَّاس بن سَمْعَانَ.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، عن النعمان بن بشير.

(٣) الرسالة القشيرية (٢٠٨/١)، تحقيق د. عبد الحليم محمود، ود. محمود بن الشريف، نشر دار المعارف، القاهرة.

٢ - العنصر الوجداني الإرادي:

والعنصر الثاني في التوبة: هو عنصر نفسي، يتعلق بالوجدان والإرادة، وبتعبير آخر: بالانفعال والنزوع. في هذا العنصر: ما يتصل بالماضي، وما يتصل بالمستقبل.

أ - الندم اللاذع:

فما يتصل بالماضي، فهو المعبر عنه بـ «الندم»، وفيه ورد الحديث: «الندم توبة»^(١). وذلك لأنه الركن الأهم في التوبة، كما في حديث «الحج عرفة»^(٢)؛ لأنه الركن الأهم في الحج، حتى نقل القشيري عن بعض أهل التحقيق أنه قال: «يكفي الندم في تحقيق التوبة؛ لأنّ الندم يستتبع الركنين الآخرين «العزم والإقلاع»، فإنه يستحيل أن يكون نادماً على ما هو مصرّ على فعله، أو عازم على الإتيان بمثله»^(٣).

والندم: شعور أو انفعال أو توتر عاطفي، هو عبارة عن حسرة لما فرط من الإنسان من ذنوب في حقّ ربه، وفي حقّ خلقه، وفي حقّ نفسه، هذه الحسرة أشبه بالنار التي تلذع القلب لذعاً، بل قد تكويه كيّاً، كلما تذكر ذنبه وتفریطه، وتذكر حقّ ربّه تعالى عليه. إنّها حالة «احتراق داخلي» عبّر عنه بعض الصوفية بقوله في تعريف التوبة: ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ. وقال آخر: هي نار في القلب تلتهب، وصدع في الكبد لا ينشعب^(٤)!

(١) سبق تخريجه ص ٣٧.

(٢) رواه أحمد (١٨٧٧٤)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود (١٩٤٩)، وابن ماجه (٣٠١٥)،

كلاهما في المناسك، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٣١٧٢)، عن عبد الرحمن بن يعمر.

(٣) الرسالة القشيرية (٢٠٨/١).

(٤) انظر: الإحياء (٤/٤).

وقد صوّر لنا القرآن الكريم هذا الجانب النفسي الانفعال لبعض التائبين، فأبدع التصوير، وأحسن التعبير، وذلك في قصة الصحابة الثلاثة الذين خُلفوا، ولم ينهضوا مع رسول الله في غزوة العسرة، غزوة تبوك التي كانت أول لقاء للرسول الكريم مع أقوى دولة في الأرض: دولة الروم، ولم يقدموا للرسول أعذارًا كاذبة، كما فعل بعض المنافقين، فأمر النبي ﷺ بمقاطعتهم، فبلغ بهم الندم والأسى مبلغًا عظيمًا، عبّر عنه القرآن بقوله: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

ولهذا قال ذو النُّون: حقيقة التوبة: أن تضيق عليك الأرض بما رحبت، حتّى لا يكون لك قرار، ثم تضيق عليك نفسك؛ كما أخبر الله في كتابه: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ الآية.

ومن مظاهر هذا الندم: الاعتراف بالذنب، وعدم الفرار من المسؤولية عنه، وطلب الصفح والمغفرة عنه من الله تعالى.

كما رأينا في قصة آدم بعد أكله هو وزوجه من الشجرة: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وكما رأينا في قصة نوح حين شفع إلى ربه في ولده الكافر، فكان الرد الإلهي: ﴿يٰنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

هنا أحس نوح ﷺ بخطئه، وندم عليه، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

وكما رأينا في قصة موسى، حين وكز الرجل القبطي فقضى عليه، ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴿[القصص: ١٥، ١٦].

وكما رأينا في قصة ذي النون يونس: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَاصًّا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

رغم أن هذه الذنوب التي وقعت من هؤلاء الرسل لا تعدو أن تكون من صغائر المعاصي، وخصوصاً إذا لاحظنا الظروف والملابسات التي وقعت فيها، فسنجد لها ظروفاً مخففة، ولكنهم عليهم صلوات الله لرهافة حسهم، ويقظة ضمائرهم، وقوة شعورهم بحق ربهم؛ استعظموا هذه الذنوب، وأقرّوا بأنهم ظلموا بها أنفسهم، فسارعوا إلى استغفار ربهم، إنه هو الغفور الرحيم.

ب - العزم الجازم:

وإذا كان الندم في التوبة يتعلّق بالماضي وما وقع فيه من تفريط، فهناك أمر يتعلّق بالمستقبل، وما يتوقّع فيه من تلافٍ للتفريط، وتعويض بالإصلاح، وذلك بالعزم الجازم على ترك المعصية التي يتوب منها، تركاً كلياً لا رجعة فيه بحال، كما لا يرجع اللبن إلى الضرع إذا خرج منه، وهذا أمر مرده إلى الإرادة، ويجب أن تكون إرادة قوية مصممة، لا إرادة مترخية واهنة، تقدم رجلاً، وتؤخر أخرى، تعزم اليوم، وتفسخ في الغد، أو تتوب في الصباح، وتراجع في المساء!

والمهم في هذا العزم: أن يكون قوياً مصمماً جازماً ساعة التوبة،

بحيث لا يشعر لحظتها بأيّ تردّد أو حنين إلى المعصية، أو تفكير في إمكان معاودتها مرة أخرى. ولا ينقض التوبة: أن تضعف إرادة التائب بعد فترة، ويغلبه هواه، ويغترّه شيطانه، فتزل قدمه، ويسقط في حفرة المعصية من جديد.

وهنا يُطلب منه أن يبادر بالتَّوْبَةِ، فيندم ويعزم من جديد، ولا يقنط من قبول توبته إذا كانت صادقة، فقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥]، والأَوَّاب: كثير الأوبة إلى الله تعالى، كلما أذنب ذنبًا علم أنَّ له ربًّا يغفر الذنوب ولا يبالى، فرجع إليه واستغفره، فغفر له.

قال الإمام ابن كثير: فأما إذا جزم بالتَّوْبَةِ، وصمّم عليها، فإنّها تجب ما قبلها من الخطيئات، كما ثبت في الصحيح: «الإسلام يجب ما قبله»^(١)، و«التَّوْبَةُ تجب ما قبلها»^(٢).

قال ابن كثير: وهل من شرط التَّوْبَةِ النَّصُوح: الاستمرار على ذلك إلى الممات، كما تقدم في الحديث^(٣) وفي الأثر: ثم لا يعود فيه أبدًا^(٤)، أو يكفي العزم على أن لا يعود في تكفير الماضي، بحيث لو وقع منه

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٢١)، بلفظ: «أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله». عن عمرو بن العاص.

(٢) هذا الشطر الأخير لم أقف عليه، وقال الألباني في الضعيفة (١٠٣٩): لا أعرف له أصلاً.

(٣) يعني حديث زر عن أبي بن كعب، قال: قلت لأبي بن كعب: فما التوبة النصوح؟ فقال: سألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «هو الندم على الذنب حين يفرط منك، فتستغفر الله بندامتك منه عند الحاضر، ثم لا تعود إليه أبدًا». وقد سبق تخريجه ص ٥١.

والأثر أيضاً عن زر عن أبي: قيل لنا أشياء تكون في آخر هذه الأمة عند اقتراب الساعة.. وذكر أشياء ثم قال: وليس لهؤلاء صلاة ما أقاموا على هذا حتى يتوبوا إلى الله توبة نصوحًا. رواه البيهقي في الشعب (٥٠٧٤).

(٤) سبق تخريجه ص ٥١.

ذلك الذنب بعد ذلك، لا يكون ضاراً في تكفير ما تقدّم، لعموم قوله ﷺ: «التَّوْبَةُ تَجِبُ مَا قَبْلَهَا»^(١)؟

وناقش ذلك ابن القيم في «المدارج»، وذكر الرأيين: رأي من يشترط عدم معاودة الذنب بحال، وقال: متى عاد إلى الذنب، تبيّن أن توبته كانت باطلة غير صحيحة، ورأي الأكثرين، وهو أن ذلك ليس بشرط، وإنّما صحة التَّوْبَةِ تتوقف على الإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم الجازم على ترك معاودته، فإذا عاوده مع عزمه حال التَّوْبَةِ على ألا يعاوده، صار كمن ابتدأ المعصية، ولم تبطل التَّوْبَةُ المتقدّمة.

قال: «والمسألة مبنية على أصل، وهو: أن العبد إذا تاب من الذنب ثم عاوده، فهل يعود إليه إثم الذنب الذي قد تاب منه ثم عاوده، بحيث يستحق العقوبة على الأول والآخر، إن مات مصرّاً؟ أو إن ذلك قد بطل بالكلية، فلا يعود إليه إثم، وإنّما يعاقب على هذا الأخير؟

وفي هذا الأصل قولان:

فقلت طائفة: يعود إليه إثم الذنب الأول، لفساد التَّوْبَةِ، وبطلانها بالمعاودة، قالوا: لأنّ التَّوْبَةَ من الذنب بمنزلة الإسلام من الكفر، والكافر إذا أسلم هدم إسلامه ما قبله من إثم الكفر وتوابعه، فإذا ارتدّ عاد إليه الإثم الأول مع إثم الرّدّة، كما ثبت في الصحيح، عن النبي ﷺ أنّه قال «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أُخِذَ بالأوّل والآخر»^(٢). فهذا حال من أسلم وأساء في

(١) تفسير ابن كثير (١٩١/٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في استتابة المرتدين (٦٩٢١)، ومسلم في الإيمان (١٢٠)، عن

ابن مسعود.

إسلامه، ومعلوم أنَّ الرَّدَّةَ من أعظم الإساءة في الإسلام، فإذا أخذ بعدها بما كان منه في حال كفره، ولم يسقطه الإسلام المتخلل بينهما، فهكذا التَّوْبَةُ المتخللة بين الذَّنْبين لا تسقط الإثم السابق، كما لا تمنع الإثم اللاحق.

قالوا: ولأنَّ صحة التَّوْبَةِ مشروطة باستمرارها، والموافاة عليها، والمعلّق على الشرط يُعَدُّ عند عدم الشرط، كما أنَّ صحة الإسلام مشروطة باستمراره والموافاة عليه. قالوا: والتَّوْبَةُ واجبة وجوبًا مضيّقًا مدى العمر، فوقتها مدة العمر، إذ يجب عليه استصحاب حكمها في مدة عمره، فهي بالنسبة إلى العمر كالإمساك عن المفطرات في صوم اليوم، فإذا أمسك معظم النهار، ثم نقض إمساكه بالمفطرات: بطل ما تقدّم من صيامه، ولم يعتد به، وكان بمنزلة من لم يمسك شيئًا من يومه.

قالوا: ويدل على هذا: الحديث الصحيح، وهو قوله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا»^(١). وهذا أعم من أن يكون هذا العمل الثاني كفرًا موجبًا للخلود، أو معصية موجبة للدخول، فإنّه لم يقل: «فيرتد فيفارق الإسلام» وإنّما أخبر: أنّه يعمل بعمل يوجب له النار. وفي بعض السُّنَنِ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ سِتِينَ سَنَةً، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الْمَوْتِ جَارٍ فِي وَصِيَّتِهِ، فَدَخَلَ النَّارَ»^(٢). فالخاتمة السيئة أعم من أن تكون خاتمة بكفر أو بمعصية، والأعمال بالخواتيم.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٢)، ومسلم في القدر (٢٦٤٣)، عن ابن مسعود.

(٢) رواه أحمد (٧٧٤٢)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. وأبو داود (٢٨٦٧)، والترمذي (٢١١٧)، وقال: حديث حسن غريب. كلاهما في الوصايا، عن أبي هريرة.

واحتج الفريق الآخر - وهم القائلون بأنه لا يعود إليه إثم الذنب الذي تاب منه بنقض التوبة - بأن ذلك الإثم قد ارتفع بالتوبة. وصار بمنزلة ما لم يعمل، وكأنه لم يكن. فلا يعود إليه بعد ذلك، وإنما العائد إثم المستأنف لا الماضي.

قالوا: ولا يشترط في صحة التوبة العصمة إلى الممات، بل إذا ندم وأقلع وعزم على الترك: محا عنه إثم الذنب بمجرد ذلك، فإذا استأنفه استأنف إثمه.

قالوا: فليس هذا كالكفر الذي يحبط الأعمال، فإن الكفر له شأن آخر، ولهذا يحبط جميع الحسنات، ومعاودة الذنب لا تحبط ما تقدمه من الحسنات.

قالوا: والتوبة من أكبر الحسنات، فلو أبطلتها معاودة الذنب لأبطلت غيرها من الحسنات، وهذا باطل قطعاً، وهو يشبه مذهب «الخوارج» المكفرين بالذنب. و«المعتزلة» المخلدين في النار بالكبيرة التي تقدمها الألوف من الحسنات. فإن الفريقين متفقان على خلود أرباب الكبائر في النار. ولكن «الخوارج» كفروهم، و«المعتزلة» فسقوهم. وكلا المذهبين باطل في دين الإسلام، مخالف للمنقول والمعقول وموجب العدل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

قالوا: وقد ذكر الإمام أحمد في «مسنده»، مرفوعاً إلى النبي ﷺ «إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْعَبْدَ الْمَفْتَئِنَ التَّوَّابَ»^(١).

(١) رواه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٦٠٥)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف جداً شبه موضوع. وأبو يعلى (٤٨٣)، وضعف إسناده العراقي في تخريج الإحياء ص ١٣٣٨، عن علي بن أبي طالب.

قلتُ: وهو الذي كلَّمَا فُتِنَ بالذنب تاب منه، فلو كانت معاودته تُبطل توبته لما كان محبوباً للرب، ولكان ذلك أدعى إلى مقتته.

قالوا: وقد علق الله سبحانه قبول التَّوْبَةِ بالاستغفار، وعدم الإصرار، دون المعاودة، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُمْ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] والإصرار: عقد القلب على ارتكاب الذَّنْبِ متى ظفر به، فهذا الذي يمنع مغفرته.

قالوا: وأمَّا استمرارُ التَّوْبَةِ: فشرط في صحَّة كمالها ونفعها، لا شرط في صحَّة ما مضى منها، وليس كذلك العبادات، كصيام اليوم، وعدد ركعات الصلاة، فإنَّ تلك عبادة واحدة، لا تكون مقبولة إلاَّ بالإتيان بجميع أركانها وأجزائها، وأمَّا التَّوْبَةُ: فهي عبادات متعددة بتعدد الذنوب، فكل ذنب له توبة تخصُّه، فإذا أتى بعبادة وترك أخرى، لم يكن ما ترك موجِّباً لبطلان ما فعل، كما تقدَّم تقريره.

بل نظير هذا: أن يصوم من رمضان ويفطر منه بلا عذر، فهل يكون ما أفطره منه مبطلاً لأجر ما صامه منه؟

بل نظير من صَلَّى ولم يصُمْ، أو زَكَّى ولم يحُج.

ونكتة المسألة: أنَّ التَّوْبَةَ المتقدِّمة حسنة، ومعاودة الذَّنْبِ سيئة، فلا تبطل معاودته هذه الحسنة، كما لا تبطل ما قارنها من الحسنات.

قالوا: وهذا على أصول أهل السُّنَّة أظهر، فإنَّهم متَّفِقون على أنَّ الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة من وجهين مختلفين، ويكون محبوباً لله مبغوضاً له من وجهين أيضاً، بل يكون فيه إيمان ونفاق، وإيمان وكفر، ويكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الآخر، فيكون من أهله،

كما قال تعالى: ﴿هُم لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٦٧]. وقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]. أثبت لهم الإيمان به، مع مقارنة الشرك، فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله لم ينفعهم ما معهم من الإيمان بالله، وإن كان معه تصديق لرسله، وهم مرتكبون لأنواع من الشرك لا تخرجهم عن الإيمان بالرسول وباليوم الآخر، فهؤلاء مستحقون للوعد أعظم من استحقاق أرباب الكبائر.

وشركهم قسمان: شرك خفي، وشرك جلي، فالخفي قد يغفر، وأما الجلي فلا يغفره الله إلا بالتوبة منه، فإن الله لا يغفر أن يشرك به.

وبهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار، ثم خروجهم منها ودخولهم الجنة، لما قام بهم من السببين.

فإذا ثبت هذا، فمعاود الذنب: مبعوض لله من جهة معاودة الذنب، محبوب له من جهة توبته وحسناته السابقة، فيرتب الله سبحانه على كل سبب أثره ومسببه بالعدل والحكمة، ولا يظلم مثقال ذرة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦] اهـ^(١).

٣ - الجانب العملي في التوبة:

وكما أن في التوبة جانباً أو عنصراً معرفياً: يتمثل في العلم بمقام الله تعالى وعظيم حقه على عباده، وسابغ نعمه عليهم من ناحية، والعلم بأضرار المعاصي والخطايا وآثارها في الدنيا والآخرة، ووقوفها حجاباً بين الإنسان وربه، وحاجزاً دون وصوله إلى الفلاح والفوز المنشود ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٧٦ - ٢٨٢).

وفي التَّوْبَةِ كذلك جانب أو عنصر قلبي وجداني إرادي، يتمثل في نار الندم المحرقة لحطب الذنوب، ودموع الأسف الغاسلة لأحوال الخطايا، ونور العزيمة الصادقة المصمّمة على عدم العودة إلى المعصية المتوب منها مهما تكن المغريات بها والدوافع إليها.

فإنَّ في التَّوْبَةِ أيضًا جانبًا أو عنصرًا عمليًا لا بدَّ منه، لتتم به حقيقة التَّوْبَةِ، وتؤتي ثمارها في النفس وفي الحياة.

وهذا الجانب العملي له أصل، يتفرع منه فرعان، وربما فروع.

أ - الإقلاع عن المعصية في الحال:

أمّا الأصل فهو: الترك والإقلاع عن المعصية في الحال، ولا معنى للتوبة إذا ظل المرء مقيمًا على معصيته، لم يفارقها ولم يهجرها، فمَمَّ تاب إذن؟! وإنَّما اعتُبر الترك عملًا؛ لأنَّه كفَّ النفس عمّا تشتهيه من المعصية إلى ما يجب عليها من الطاعة، ولا ريب أنَّ هذا الكفَّ من هذه الوجهة عمل ورياضة وجهاد في سبيل الله، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ب - الاستغفار:

وأمّا الفرعان لهذا الأصل فأولُّهما: «الاستغفار» بمعنى طلب المغفرة والعفو من الله تعالى، كما قال الأب الأول: آدم. والأم الأولى: حواء. بعد أن أكلَا من الشجرة: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وكل تائب في أمْسٍ الحاجة إلى الاستغفار، كما دعا إلى ذلك القرآن والسُّنَّة، وبينه السلف الصَّالحون.

ونظرًا لأهمية الاستغفار، وتكرُّر الأمر به، والحث عليه، في القرآن والحديث، سنفرد له فصلًا مستقلًا للحديث عنه.

ج - تغيير البيئة والأصحاب:

والفرع الثاني: تغيير البيئة الاجتماعية المتلطّخة بالقاذورات، التي كان يعيش فيها في عهد المعصية والانحراف، والبحث عن بيئة نظيفة طاهرة، سليمة من الأمراض المعدية، ونعني بهذه الأمراض: أمراض الخطايا والذنوب والانحرافات، فإنّها أشدَّ خطرًا من أمراض الأبدان، وأسرع تأثيرًا منها.

وإذا كان تأثير الأمراض العضوية المعدية خطرًا على الفرد وحده، فإنَّ خطر الانحراف والمعاصي على الفرد والمجتمع كله، وهو ليس خطرًا على الماديات والمحسّات وحدها، بل على المعنويات والأخلاقيات أيضًا، وهي ليست خطرًا على الدنيا وحدها، بل هي خطر على الدنيا والآخرة جميعًا.

ومعنى هذا: أنَّ على التائب أن يهجر «أصدقاء السوء» الذين أغرّوه بالمعصية، وجروا إليها رجله، حتّى سقط فيما سقطوا فيه منها، فشرب الخمر، أو لعب القمار، أو تعاطى المخدّرات، أو تاجر في المحرّمات، أو قبل الرشوة، أو وقع في حبائل النساء، أو تجسّس أو تعامل مع الأعداء، أو أضاع الصلوات واتبع الشهوات.. إلى غير ذلك من صنوف الخطايا.. فلا بدّ له أن يستبدل بهؤلاء الأصحاب الأشرار أصحابًا أخيارًا أطيهارًا، مجرد رؤيتهم تذكّر بالله، وكلامهم يرشد إلى طاعة الله، وأعمالهم تهدي إلى طريق الله.

لا بدَّ للتَّائب أن يدع مصاحبة «نافخ الكير» إلى مصاحبة «حامل المسك» كما أرشدنا إلى ذلك المعلم الأول رسول الله ﷺ^(١).

إنَّ أثر الأصدقاء والأصحاب في الإنسان: أثر عميق، عبَّر عنه الحكماء والشعراء من قديم، حتَّى قال الشاعر:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلُ، وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فكلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنِ يَقْتَدِي^(٢)!
وقال الآخر:

واحذرْ مصاحبةَ اللئيمِ فَإِنَّهَا تُغْدِي، كما يُغْدِي السليمُ الأجرُ^(٣)!

والأصدقاء نوعان: صديق يأخذ بيدك إلى الجنَّة، والآخر يجرُّك إلى النَّار جرًّا، وقد حكى القرآن لنا عن خطر هذا الصنف الأخير في الإضلال والصدِّ عن سبيل الله، وقد لا يعرف ذلك ضحاياهم إلَّا في الآخرة، حين ينكشف الغطاء، ويرى النَّاس الحقائق مجردة، يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَوَيْلَ لِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

(١) إشارة إلى حديث: «مثل المجلس الصالح والسوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك: إمَّا أن يحذيك، وإمَّا أن تبتاع منه، وإمَّا أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير: إمَّا أن يحرق ثيابك، وإمَّا أن تجد ريحًا خبيثة». متفق عليه: رواه البخاري في الذبائح والصيد (٥٥٣٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٦٢٨)، عن أبي موسى.

(٢) من شعر طرفة بن العبد صاحب المعلقة. انظر: ديوانه ص ٣٢، تحقيق مهدي محمد ناصر الدين، نشر دار الكتب العلمية، ط ٣، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

(٣) من شعر صالح بن عبد القدوس. انظر: صالح بن عبد القدوس حياته، بيئته وشعره لترجمان عباس ص ١١٠، نشر منشورات الجمل، بيروت، ط ١، ٢٠١٣م.

وهكذا نرى كل الأصدقاء في الدنيا أعداء يوم القيامة، يكفر بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضاً، ويرأ بعضهم من بعض، ويقول كل منهم لصاحبه: أنت الذي أضللتني وأغويتني. إلا صنفاً واحداً من الأصدقاء والأخلاء، وهم أهل التقوى، الذين يخشون ربهم، ويخافون سوء الحساب. يقول تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. ومن هنا نبه بعض علماء السلوك من السلف إلى تغيير الأصدقاء، حين قال: التوبة: ندم بالجنان، وعزم على ترك العصيان، واستغفار باللسان، وإقلاع بالأبدان، وهجر سيئ الخلان^(١).

وهذه نظرة تربوية صحيحة ومجربة، وهو ما نبه عليه القشيري ونصح به التائب أن يبدأ به: هجران إخوان السوء، فهم الذين يحملونه على ردّ القصد إلى التوبة، ويشوشون عليه صحة عزمه على الطاعة^(٢).

يؤيد هذا ما جاء في الحديث الصحيح: حديث الرجل الذي قتل مائة نفس، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدلّ على رجل عالم، فقال له: إنّه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، من يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإنّ بها أناساً يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنّها أرض سوء.. الحديث^(٣).

د - إتباع السيئة الحسنة:

وهنا فرع آخر مكمل لهذين الفرعين، ومؤكّد للتوبة، وهو: إتباع السيئة الحسنة لتمحو أثرها وتطهر نجسها، وهو ما أمر به رسول الله ﷺ

(١) قاله القرطبي. انظر: تفسير القرطبي (١٩٨/١٨).

(٢) الرسالة القشيرية (٢٠٨/١، ٢٠٩).

(٣) الحديث متفق عليه عن أبي سعيد الخدري، وقد سبق تخريجه ص ٣٨.

أَبَا ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ أَوْصَاهُ تِلْكَ الْوَصِيَّةَ الْجَامِعَةَ، فَقَالَ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتُ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»^(١).

والمراد: أن يبادر المسلم الذي صدرت منه المعصية أن يلحقها بطاعة، من صلاة أو صدقة، أو صيام، أو فعل خير، أو استغفار، أو ذكر وتسبيح، إلى غير ذلك من ألوان الحسنات، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي الْتَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤].

قال ابن العربي: «والحسنة تمحو السيئة، سواء كانت قبلها أم بعدها، وكونها بعدها أولى، إذ الأفعال تصدر عن القلوب، وتتأثر بها، فإذا فعل سيئة فقد تمكَّن في القلب اختيارها، فإذا أتبعها حسنة، نشأت عن اختيار في القلب، فتمحو ذلك، وظاهر قوله «تمحُّها»: أنها تُزال حقيقة من الصحيفة، وقيل: عبَّر به عن ترك المؤاخذة»^(٢).

وأفضل ما تكون الحسنة بعد السيئة إذا كانت من جنسها.

فمن كانت سيئته الغيبة لشخص معين، فالحسنة ينبغي أن تكون مدحه أمام من اغتابه عنده، أو الاستغفار له من الله.

ومن كانت سيئته السخرية بالناس، فلتكن حسنته توقيهرهم، وإكرامهم وذكرهم بكل خير.

ومن كانت سيئته قراءة كتب السوء، فلتكن حسنته قراءة القرآن، وكتب الحديث، وعلوم الإسلام.

(١) رواه أحمد (٢١٥٣٦)، وقال مخرَّجوه: حسن لغيره. والترمذي في البر والصلة (١٩٨٧)، وقال هذا حديث حسن صحيح. عن أبي ذر.

(٢) انظر: فيض القدير (١٢٠/١)، نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط ١، ١٣٥٦هـ.

ومن كانت سيئته عقوق الوالدين، فلتكن حسنته المبالغة في برّهما وإكرامهما، والإحسان إليهما، وخصوصًا في حالة الكبر.

ومن كانت سيئته قطع الرحم، والإساءة إلى ذوي القربى، فلتكن حسنته الحرص على صلتهم، وإن قطعوا، وإعطائهم وإن حرموا.

ومن كانت سيئته الجلوس في مجالس المجنون واللغو المحرّم، فلتكن حسنته الجلوس في مجالس الخير والذكر والعلم النافع.

ومن كانت سيئته العمل في الصحافة المعادية للإسلام ودعائه، فلتكن حسنته العمل في الصحافة المضادة لها، بنشر الخبر الصادق، والرأي السديد.

ومن كانت سيئته تأليف الكتب المضلّة، الداعية إلى المنكر في القول والعمل، والمحرّضة على إثارة الشبهات في الفكر، والشهوات في السلوك، فلتكن حسنته تأليف كتب مناقضة لها في الاتجاه، داعية إلى الخير، أمرّة بالمعروف، ناهية عن المنكر.

ومن كانت سيئته إشاعة الأغاني الخليعة، وإثارة الغرائز الهاجعة بشتى المثيرات، فلتكن حسنته نشر العفة، والدعوة إلى الحياء والإحسان.

ومن كانت سيئته ظلم الناس، والعدوان على الضعفاء، وعلى حرّماتهم وحقوقهم المادية والأدبية، فلتكن حسنته الحرص على إقامة العدل، وإنصاف المظلومين، والوقوف بجانب المستضعفين، والدفاع عنهم، وردّ ما أمكن من الحقوق إليهم.

ومن كانت سيئته السير في ركاب الطغاة المستكبرين من الحكّام وتصديقهم في كذبهم، وإعانتهم على ظلمهم لشعوبهم، كانت حسنته



مقاومة هؤلاء الظلمة ما استطاع، وكشف المستور من مساوئ هؤلاء أمام الجماهير، وفضح مخازيهم وسرقاتهم، حتّى ينفِضَ النَّاسُ عنهم.

وهكذا ينبغي أن تكون الحسنة التي يمحو بها التَّائِبُ سيئته ما استطاع: مناقضة لها، مزيلة لأثرها، مطهّرة للنفس من رواسبها، وذلك بسلوك طريق المضادّة، كما بين ذلك الإمام الغزالي؛ فإنّما يُعالج المرض بضدّه، فكل ظُلْمة ارتفعت إلى القلب بمعصية، فلا يمحوها إلّا نور يرتفع إليها بحسنة تضادّها، والمتضادات هي المتناسبات. فكذا ينبغي أن يمحو كلّ سيئة بحسنة من جنسها ما استطاع.

وهذا التدرّج والتحقيق من التَّلُطُّف في طريق المحو، فالرجاء فيه أصدق، والثقة به أكثر من أن يواظب على نوعٍ واحدٍ من العبادات، وإن كان ذلك أيضًا مؤثّرًا في المحو.

هذا، وسلوك طريق المضادّة في التكفير والمحو: مشهود له في الشرع، حيث أوجب القرآن الكريم في كفّارة القتل الخطأ: تحرير رقبة، وذلك أنّ الرق نوع من الموت الأدبي بفقد الحرية، وفي عتق الرقيق وتحرير رقبته إحياءٌ معنويٌّ له، فحيث لا يمكن الإنسان إحياء نفس حسًا، فليحيها معنًى، وذلك بالتحرير^(١).

٤ - أن تكون التَّوْبَةُ لله:

وهناك ركن مطلوب في التَّوْبَةِ، وإن لم يذكره الكثيرون، أراه ملحوظًا، وإن لم يكن ملفوظًا، وهو: أن يكون الإقلاع عن الذَّنْب والندم

(١) انظر: الإحياء (٤/٣٥، ٣٦).

عليه والعزم على عدم معاودته كلها من أجل الله تعالى، رغبة في ثوابه، وخشية من عقابه.

فمن أقلع عن شرب الخمر؛ لأنَّ الطبيب حذَّره من شربها، وأنها ستودي بصحته، فتركها من أجل ذلك لم يعدَّ تائبًا، ولم يكن تركه توبة. ومن أقلع عن الزنى؛ لأنَّه أصيب بمرض «الإيدز»، أو خشي الإصابة به، أو غير ذلك من الأمراض التناسلية، فخاف على نفسه، وهجر الزنى، لم يكن ذلك توبة شرعية.

ومن أقلع عن الاتجار بالمخدرات، خوفًا من مطاردة الشرطة، ومن عقوبة الإعدام التي تنتظره، لم يكن تائبًا، ولا إقلاعه توبة.

ومن خسر ماله في القمار، فأقلع عنه، لإفلاسه وضياع ثروته، لم يكن ذلك توبة منه، ولم يدخل هو في زمرة التائبين.

ومن عَقَّ أباه، فحرمه من ماله وميراثه، فندم على عقوقه، لم يكن ندمه هذا توبة، ولا جزءًا منها؛ لأنَّه ندم على الدنيا، لا على معصية الله جل شأنه.

وقد رأينا القرآن الكريم يحكي لنا قصة ابني آدم بالحق، إذ قتل الشرير منهما أخاه الطيب، وقد حمل جثته مدة طويلة، ولم يعرف كيف يواريها، إذ كان هذا أول ميت في تاريخ البشرية: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ، كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُوَيَّلَتِي أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّدِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

فندم هذا الأخ الشرير ليس لمعصيته لربه، وقتله لأخيه، بل لحمله تلك المدة، وعجزه أن يعرف طريقة لدفنه، ولذلك لم يشفع له هذا الندم.



ولكن إذا حرَّكت مصائب الدنيا وخسائرها بواعث الإيمان في قلب الإنسان، وجعلته يراجع نفسه، ويتذكَّر آخرته، فتاب عنه ذلك، فهو من المقبولين إن شاء الله.

* * *



الاستغفار

الاستغفار: طلب المغفرة، أي محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره. قال ابن القيم: «وحقيقة المغفرة: وقاية شرِّ الذنب، ومنه: المِغْفَرُ لما بقي الرأس من الأذى، وإنما تطلب المغفرة من الله وَعَلَى، فَإِنَّ مِنْ أَسْمَائِهِ تعالى: «الغفور»، و«الغفار» و«غافر الذنب»، ومن صفاته أَنَّهُ: ﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

والقرآن يذكر لنا أَنَّ رسل الله تعالى إلى الأمم قد أمروهم بالاستغفار، إمَّا مفردًا، أو مقرونًا بالتَّوْبَةِ، كما ذكر تعالى عن نوح ودعوته لقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

وكما ذكر سبحانه عن هود ودعوته إلى قومه عاد، حيث قال: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

وكذلك قال صالح لقومه ثمود: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ * هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

وكذا قال شعيب لقومه أهل مدين: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبَّ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

وقال الله تعالى لخاتم رسله محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

والاستغفار الحقيقي يتضمّن التَّوْبَةَ، كما أنّ التَّوْبَةَ تتضمّن الاستغفار، وكلُّ منهما يدخل في مسمّى الآخر عند الانفراد.

وأما إذا اقترنا في سياق واحد، كما في قوله: ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فالاستغفار يعني: طلب وقاية شرٍّ ما مضى من ذنوبه، والتَّوْبَةُ تعني: الرجوع وطلب وقاية شرٍّ ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

قال الإمام ابن القيم: «فهاهنا ذنبان: ذنب قد مضى، فالاستغفار منه: طلب وقاية شرّه، وذنب يخاف وقوعه، فالتَّوْبَةُ: العزم على ألا يفعله.

والرجوع إلى الله يتناول النوعين: رجوع إليه ليقيه شرٍّ ما مضى، ورجوع إليه ليقيه شرٍّ ما يستقبل من شرِّ نفسه وسيئات أعماله.

وأيضاً فالاستغفار من باب إزالة الضرر، والتَّوْبَةُ طلب جلب المنفعة؛ فالمغفرة: أن يقيه شرَّ الذنب، والتَّوْبَةُ: أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه، وكلُّ منهما يستلزم الآخر عند إفراده»^(١).

وحاجة الإنسان إلى مغفرة الله: حاجة أساسية؛ لأنَّ نعم الله عليه لا تُحصى، وتقصيره في حقّه تعالى لا ينكر، ولو قال امرؤ من الناس: أنا قد قمت لله بكلِّ حقه، ولم أقصّر في مثقال ذرّة منه، لكان هذا نفسه أول

(١) مدارج السالكين (٣١٤/١، ٣١٥).

الذنوب؛ لأنَّه العُجب بعينه، والغرور القاتل، لهذا كان كل الناس في حاجة إلى المغفرة، وفي هذا قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. فجعل المسارعة مطلوبة إلى المغفرة قبل الجنة، ومثلها قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ تَحْرِيقِ نُجُومِكُمْ مِّنْ عَذَابِ إِلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠-١٢]. فكان ربح تجارتهم: المغفرة، ثم إدخال الجنات.

ومن حاجة الإنسان إلى المغفرة تنشأ حاجته إلى الاستغفار، فهو لا يستغني عنه أبداً، لا ليلاً ولا نهاراً، كما لا يستغني عن الطعام والشراب، كما قال تعالى في الحديث القدسي الشهير الذي رواه النبي، عن ربه ﷻ: «يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم»^(١).

وقال ﷻ: «والذي نفسي بيده لو لم تُذنبوا، لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم»^(٢).

ولهذا وصف القرآن خيار عباد الله بأنهم يستغفرون الله تبارك وتعالى، وخصوصاً في ساعات الأسحار، وعند الوقوع في أحوال الذنوب.

وصف الله تعالى أهل التَّقْوَى الذين يستحقون جنته ورضوانه، فقال: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ

(١) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٧)، عن أبي ذر.

(٢) سبق تخريجه ص ٣٧.

مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
إِنَّا ءَامَنَّا فَآغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ
وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ [آل عمران: ١٥ - ١٧].

وفي السورة نفسها حدثنا الله عن الربانيين الذين قُتل منهم من قُتل
في سبيل الله، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا وما
استكانوا فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي
أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]. فقبل أن
يسألوا الله التثبيت والنصر، سألوه المغفرة لذنوبهم وإسرافهم في أمرهم،
وفي هذا اتّهام لأنفسهم بالتفريط بدل أن يتّهموا الله تعالى بأنه خذلهم!!

وفي السورة أيضًا حديث عن «أولي الألباب» الذين دعوا ربهم
بجملة أدعية، فكان فيها: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا
بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾
[آل عمران: ١٩٣].

وفي سورة أخرى أثنى الله على المتقين المحسنين من أوليائه، فقال:
﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * أَخْذِينَ مَا ءَانَهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ *
كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٨].

قال الحسن: كابدوا قيام الليل، فلا ينامون إلا أقله، ونشطوا فمدّوا
إلى السحر، حتّى كان الاستغفار بسحر^(١).

فيا عجبًا! يقضون الليل في عبادة وصلاة، ثم يأتي السحر
فيستغفرون! كأنهم لا زالوا يشعرون بالتقصير.

(١) ذكره ابن عطية في تفسيره المحرر الوجيز (١٧٤/٥).

قال ابن كثير: وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثَلَاثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فيَقُولُ: هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبُ عَلَيْهِ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَيُعْطَى سَوْأُهُ؟ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ»^(١).

وأوجب ما يكون الاستغفار عند الوقوع في مهاوي المعاصي وأرجاس الذنوب، ومن ذا الذي يسلم من ذلك؟ وهنا يجد في الاستغفار أداة يتعلق بها لتنهضه من عثرته، ومغسلة يتطهر بها من أدران ذنبه، فقد ذكر تعالى من أوصاف المتقين في كتابه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ لَا يَكُنْ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

ولقد مدح الله أنبياءه في القرآن بالاستغفار، فهم أسرع الناس إليه، وأحرصهم عليه.

في قصة آدم أبي البشر لجأ إلى الاستغفار حين وسوس إليه الشيطان، حَتَّى أَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي نُهِيَ عَنِ الْأَكْلِ مِنْهَا هُوَ وَزَوْجُهُ، فسرعان ما قرع باب الله مستغفراً منيماً إليه: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ونوح شيخ المرسلين عليه السلام يدعو ربه مستغفراً له ولوالديه، ولكل من له حق عليه، وللمؤمنين والمؤمنات: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [نوح: ٢٨].

(١) تفسير ابن كثير (٣٩٠/٧)، والحديث رواه مسلم في صلاة المسافرين (٧٥٨)، وأحمد (٩٥٩١)، عن أبي هريرة.

وإبراهيم يقول: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾
[إبراهيم: ٤١].

﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا
وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الممتحنة: ٤، ٥].

وموسى يتورط قبل بعثته في قتل خطأ فلاذ بجناب ربه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي
ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [القصص: ١٦].

وفي مقام آخر قال: ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ
تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

وقال سبحانه في قصة داود: ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا
وَأَنَابَ ﴾ [ص: ٢٤].

وقال في قصة سليمان: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ
بَعْدِي ﴾ [ص: ٣٥].

ومحمد ﷺ أمر بالاستغفار في آيات كثيرة، كما في قوله تعالى في
القرآن المكي: ﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ
رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴾ [غافر: ٥٥].

وفي القرآن المدني أمره الله بالاستغفار في قوله تعالى: ﴿ وَأَسْتَغْفِرِ
اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٦].

كما أمره الله تعالى بالاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات، فقال:
﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد: ١٩].

وقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ١ - ٣].

وهذه السورة من أواخر ما نزل من القرآن، أي أنها نزلت في أواخر حياته ﷺ، وبعد نزول قوله تعالى في سورة الفتح: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ [الفتح: ٢]، فهذه نزلت في السنة السادسة من الهجرة بعد صلح الحديبية المعروف، الذي سمّاه الله تعالى فتحاً مبيناً.

ومع هذا أمر بالاستغفار، وكان أكثر الناس استغفاراً لربه، كان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد أكثر من سبعين مرة يقول: «رب اغفر لي وتب عليّ». روى النسائي، عن ابن عمر، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «أستغفر الله الذي لا إله إلا الله هو الحي القيوم، وأتوب إليه» في المجلس قبل أن يقوم: مائة مرة^(١) وفي رواية: إن كنا لنعدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس: «رب اغفر لي وتب عليّ، إنك أنت التواب الغفور: مائة مرة»^(٢).

وفي «صحيح مسلم»، من حديث الأغر المزني: «إنه ليغان على قلبي، وإنني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة»^(٣).

(١) رواه النسائي في الكبرى في عمل اليوم والليلة (١٠٢٢٠) وجود إسناده ابن حجر في الفتح (١٠١/١١).

(٢) رواه أحمد (٤٧٢٦)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود في الصلاة (١٥١٦)، والترمذي في الدعوات (٣٤٣٤)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وابن ماجه في الأدب (٣٨١٤)، عن ابن عمر.

(٣) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٢) (٤١)، وأحمد (١٨٢٩١).

وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة: «والله إنِّي لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(١).

وفسّر العلماء (الغين) الذين يعتري قلبه ﷺ بأنّه: فترة الانشغال عن الذكر الذي شأنه أن يداوم عليه، فإذا فتر عنه لأمرٍ ما، عدّ ذلك ذنبًا، فاستغفر الله منه.

وقيل: هو شيء يعتري القلب، ممّا يقع من حديث النفس، بحكم الطبيعة البشرية.

وقيل: الأنبياء أشدّ النَّاسُ اجتهادًا في طاعة الله، لِمَا حباهم من المعرفة بحقه، فهم دائبون في شكره، معترفون له بالتقصير أبدًا بما يجب له سبحانه.

وقال الغزالي في «الإحياء»: كان ﷺ دائم الترقّي، فكلما ارتقى إلى حال رأى ما قبلها دونها، فاستغفر من الحالة السابقة^(٢).

وقال المحاسبى: الملائكة والأنبياء أشدّ لله خوفًا ممّن دونهم، وخوفهم خوف إجلال وإعظام، واستغفارهم من التقصير لا من الذنب المحقّق.

وقال القاضي عياض: يحتمل أن يكون قوله: «رب اغفر لي خطيئتي» و«اغفر لي ما قدّمت وما أخّرت» على سبيل التواضع والاستكانة والخضوع، والشكر لربه، لما علم أنّه قد غفر له^(٣).

(١) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٧).

(٢) ذكره ابن حجر في فتح الباري (١٠١/١١، ١٠٢)، تحقيق محب الدين الخطيب، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

(٣) فتح الباري (١٩٨/١١).

وقد صح عنه ﷺ من صيغ الاستغفار وعباراته: ما لم يُرو عن رسول ولا نبي، مثل قوله في الصلاة: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم، وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير»^(١).

وقال: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت! خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»^(٢).

قال الشيخ ابن أبي جمرة: «جمع ﷺ في هذا الحديث، من بديع المعاني، وحسن الألفاظ: ما يحق له أن يسمّى: «سيد الاستغفار»، ففيه: الإقرار لله وحده بالإلهية والعبودية، والاعتراف بأنّه الخالق، والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه، والرجاء بما وعده به، والاستعاذة من شر ما جنى العبد على نفسه، وإضافة النعمة إلى موجدّها، وإضافة الذنب إلى نفسه، ورغبته في المغفرة، واعترافه بأنّه لا يقدر أحد على ذلك إلا هو.

وفي كل ذلك الإشارة إلى الجمع بين الشريعة والحقيقة، فإنّ تكاليف الشريعة لا تحصل إلا إذا كان في ذلك عون من الله تعالى، وهذا القدر هو الذي يكتفى عنه بالحقيقة»^(٣) (انتهى ملخصاً).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٩٨)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٩)، عن أبي موسى.

(٢) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٦)، عن شداد بن أوس.

(٣) فتح الباري (١١/١٠٠).

شروط الاستغفار وآدابه:

للاستغفار المقبول عند الله شروطٌ لا بدَّ منها، وآداب مكملّة لها:

١ - وأول هذه الشروط: صحة النية، والإخلاص لله تعالى، فإنَّ الله سبحانه لا يقبل من العمل إلَّا ما كان خالصًا لوجهه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

وقال ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

٢ - وثاني هذه الشروط: أن يواطئ القلب اللسان على الاستغفار، فلا يقول بلسان: أستغفر الله، وقلبه مصرٌّ على المعصية، وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: المستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه^(٢)!

وقالت رابعة رضي الله عنها: استغفارنا يحتاج إلى الاستغفار! وذلك لأنَّه يقول بلسانه ما ليس في قلبه^(٣).

٣ - ومن الآداب المكملّة: أن يكون على طهارة، حتّى يكون في أكمل أحواله ظاهرًا وباطنًا، كما في حديث علي بن أبي طالب، قال: حدثني أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وصدق أبو بكر: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «ما من رجل يذنب ذنبًا، ثم يقوم فيتطهر، فيحسن الطهور، ثم يستغفر

(١) رواه الجماعة: البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، كما رواه أحمد (١٦٨)، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠١)، والترمذي في الجهاد (١٦٤٧)، والنسائي في الطهارة (٧٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٧)، عن عمر.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في التوبة (٨٥) مرفوعًا، والبيهقي في الشهادات (٦٧٨٠)، وضعف إسناده، وقال المنذري في الترغيب والترهيب: وقد رُوِيَ موقوفًا ولعله أشبه (١٩).

(٣) سبق تخريجه ص ٥٣.

الله عَزَّ وَجَلَّ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ» ثم تلا: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] (١).

وفي حديث أبي بكر مرفوعاً: «ما أصرَّ من استغفر، ولو عاد في اليوم سبعين مرة» (٢).

٤ - ومن هذه الآداب: أن يستغفر الله تعالى، وهو بين الخوف والرجاء، فقد وصف الله تعالى نفسه بقوله ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣]. وقال تعالى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

وأمثال هذه الآيات كثير، وكلها تغرس في القلب التوازن بين الخوف والرجاء، فلا يأمن مكر الله إِلَّا القوم الخاسرون، ولا ييأس من روح الله إِلَّا القوم الكافرون.

فلا ينبغي للعاصي أن يدع الاستغفار مهما تكن ذنوبه من الكثرة والعظم، فَإِنَّ مَغْفِرَةَ اللَّهِ تَعَالَى أَكْبَرُ مِنْهَا، ورحمته أوسع، وعفوه أكبر.

وفي الحديث القدسي الشهير الذي رواه مسلم، عن أبي ذر، عن

(١) رواه أحمد (٥٦)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. وأبو داود (١٥٢١)، والترمذي (٤٠٦) وحسنه، كلاهما في الصلاة.

(٢) رواه أبو داود في الصلاة (١٥١٤)، والترمذي في الدعوات (٣٥٥٩)، وقال: حديث غريب، وليس إسناده بالقوي.

النبي ﷺ عن ربه ﷻ: «يا عبادي، إنكم تذنّبون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم»^(١).

٥ - ومن ذلك: أن يتخير الأوقات الفاضلة، مثل أوقات السحر، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨].

ولمّا قال أبناء يعقوب لأبيهم: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ * قَالَ سَوْفَ اسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿[يوسف: ٩٧، ٩٨]. قال المفسرون: إنّه آخر الاستغفار إلى وقت السحر؛ لأنّه أقرب إلى الاستجابة، وأبعد عن الرياء، وأصفى للقلوب، وهو وقت التجلّي الإلهي في الثلث الأخير من الليل.

٦ - ومن الآداب: الاستغفار في الصلاة: في السجود، وقبل السلام، أو بعد السلام.

وقد علّم النبي ﷺ أبا بكر الصديق أن يقول في الصلاة قبل السلام: «اللهمّ إنّي ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني، إنّك أنت الغفور الرحيم»^(٢).

٧ - ومن الآداب: أن يدعو لنفسه وللمؤمنين، فيدخل في زميرتهم، عسى أن يرحمه الله تعالى ويغفر له ببركتهم، وفي زميرتهم.

ولهذا نجد الأنبياء لا يقتصرون على الاستغفار لأنفسهم، بل لهم ولوالديهم وللمؤمنين والمؤمنات، كما في دعاء نوح وإبراهيم وغيرهما.

(١) سبق تخريجه ص ٧٨.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٨٣٤)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٥).

فمن دعاء نوح: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [نوح: ٢٨].

ومن دعاء إبراهيم: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١].

٨ - ومن الآداب: أن يدعو ويستغفر بالصيغ المذكورة في القرآن، والمأثورة في السُّنَّة، فهي أنصع بيانًا، وأرجح ميزانًا، وأجمع للمعاني، وأروع في المباني، وأعظم تأثيرًا في القلوب، بخلاف ما يصنعه الناس من صيغ يختارونها، وأوراد يؤلفونها، فلن يكون لها حلاوة الكلمات القرآنية، وطلاوة العبارات النبوية.

على أن في الاستغفار والدعاء بالمأثور أجرين:

١ - أجر الدعاء والاستغفار.

٢ - وأجر الاتباع والاقتداء.

ومن الصيغ والأدعية القرآنية: الأدعية التي ذكرها القرآن عن آدم ونوح وإبراهيم وغيرهم من الرسل والأنبياء والصالحين. مثل:

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْبَنَّا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ [الممتحنة: ٤، ٥].

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾
[الحشر: ١٠].

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

ومن الحديث: جاءت صيغ كثيرة متنوعة، منها: سيد الاستغفار، الذي تقدم ذكره.

ومنها: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري»، وقد تقدم.

ومنها: «اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم اغسلني من خطاياي بالماء والثلج والبرد، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس». رواه البخاري عن أبي هريرة^(١)، ورواه الشيخان عن عائشة^(٢). وقد كان يدعو به بعد تكبيرة الإحرام، وقبل قراءة الفاتحة.

ومنها: «اللهم اغفر لي ذنبي، ووسّع لي في داري، وبارك لي في رزقي». رواه الترمذي^(٣)، وأحمد وغيرهم عن أبي موسى^(٤).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٧٤٤)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٩٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٦٨)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٨٩).

(٣) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٠)، وقال: غريب. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٢٦٥)، عن أبي هريرة.

(٤) رواه أحمد (١٩٥٧٤)، وقال مخرّجوه: حسن لغيره. والنسائي في الكبرى في عمل اليوم =

هل ينفع الاستغفار مع الإصرار؟

ومن الأسئلة التي تبرز هنا: هل ينفع الاستغفار صاحبه مع إصراره على المعصية، صغيرة كانت أو كبيرة؟

اختلف أرباب السلوك في ذلك:

فمنهم من قال: ينفع بإطلاق، وإن لم يكن معه عزم وتوبة.

ومنهم من قال: لا ينفع بإطلاق، حتى يكون معه توبة.

ومنهم من فصل في ذلك.

وأنا من هذا الصنف الثالث، فأقول: إنَّ الاستغفار بمجرد اللسان ينفع المستغفر، إذا صحبه حرارة الابتغال، والصدق في السؤال، والتضرع في الحال، والشعور بالفقر إلى المغفرة في الاستقبال، فهو يسأل الله المغفرة سؤال عبد فقير إلى مولاه الغني، وسؤال مخلوق ضعيف إلى خالقه القوي، وسؤال كائن صغير إلى ربه الكبير، بل ربه الأكبر، الذي لا تضيق به رحمته، ولا تعجزه مغفرته، لا تنفعه طاعته، ولا تضره معصيته، فهو إذا استغفر بهذا الشعور، وبهذه الروح، جدير ألا يضيع استغفاره هباء. ومن الأدلة على ذلك:

أولاً: ما سبق إirاده من آيات القرآن وأحاديث الرسول في فضل

= والليلة (٩٨٢٨)، وصححه النووي في الأذكار (٧٨)، وتعقبه ابن حجر في نتائج الأفكار (٢٦٣/١) فقال: وحكم الشيخ (أي النووي) على الإسناد بالصحة ففيه نظر؛ لأن أبا مجلز لم يلتق سمره بن جندب ولا عمران بن حصين فيما قاله علي بن المديني، وقد تأخرا بعد أبي موسى، ففي سماعه من أبي موسى نظر، وقد عهد منه الإرسال ممن لم يلقه، ورجال الإسناد المذكور رجال الصحيح إلا عباد بن عباد، وهو ثقة.

الاستغفار، وهي غزيرة وفيرة، وقد وردت مطلقة، تشمل المصّر وغيره، فلماذا نقيدها بقيد عدم الإصرار؟

ثانيًا: أنَّ الاستغفار - ولو كان باللسان - حسنة في ذاته، تصلح لتكفير السيئات، فكيف إذا كان معه التضرُّع والابتهال؟

وقد قال الإمام الغزالي رحمته الله: «بل أقول: الاستغفار باللسان أيضًا: حسنة؛ إذ حركة اللسان بها عن غفلة: خيرٌ من حركة اللسان بغيبة، أو فضول كلام، بل هو خيرٌ من السكوت عنه، فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه، وإنَّما يكون نقصانًا بالإضافة إلى عمل القلب، ولذا قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي: إنَّ لساني يجري بالذكر والقرآن، وقلبي غافل! فقال له: اشكر الله تعالى، إذ استعمل جارحة من جوارحك في خير، وعوده الذكر، ولم يستعمله في الشر، ولم يعودده الفضول!»^(١).

ثالثًا: أنَّ لله تعالى وعد - ووعدته الحق - أنه لا يضيع عمل عامل، ولا أجر محسن، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥]، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. والاستغفار - كما ذكرنا - عمل، وعمل حسن في حد ذاته.

وأما الحديث الذي رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي في «الشعب»، عن ابن عباس مرفوعًا: «المستغفر من الذنب وهو مُصِرٌّ عليه كالمستهزئ بربه»

فهو حديث ضعيف، والراجح أنه موقوف على ابن عباس، وليس بحديث نبوي^(١)، وعلى فرض التسليم بثبوته، فهو محمول على من قال ذلك بحكم العادة، ومجارة للآخرين، مع الغفلة عن المعنى، ودون تضرع ولا ابتهاج.

وكذا ما نقل عن بعضهم من قوله: «الاستغفار من غير إقلاع: توبة الكذابين!»^(٢)، وقول الآخر: «أستغفر الله من قول: أستغفر الله!»! فهو محمول على الاستغفار بمجرد القول باللسان، من غير أن يكون للقلب فيه شركة عمل.

وما قالته رابعة العدوية: استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير^(٣)! فلا تظن أنها تدم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله، بل تدم غفلة القلب، فهو يحتاج إلى استغفار من غفلة جَنانه، لا من حركة لسانه، فإن من سكت عن الاستغفار باللسان أيضًا يحتاج إلى استغفارَيْن، لا إلى استغفار واحد!

فهكذا ينبغي أن تفهم حمد ما يُحمد، وذم ما يُذم، وإلا جهلت معنى قول القائل: حسنات الأبرار سيئات المقربين! فإن هذه أمور تثبت بالإضافة (أي أمور نسبية) فلا ينبغي أن تؤخذ عن غير إضافة، بل ينبغي ألا يستحقر ذرات الطاعات والسيئات.

ولقد قال الإمام جعفر الصادق: «إن الله تعالى خبأ ثلاث في ثلاث: خبأ رضاه في طاعته، فلا تحقروا منها شيئاً، فلعل رضاه فيه.

(١) سبق تخريجه ص ٨٥.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٦٧٧٧).

(٣) سبق تخريجه ص ٥٣.

وخبأ سخطه في معاصيه، فلا تحقروا منها شيئاً، فلعلَّ غضبه فيه.
 وخبأ وليه في عباده، فلا تحقروا من عباد الله أحداً، فلعلَّه ولي الله»^(١).
 وقال سهل بن عبد الله: «لا بدَّ للعبد في كلِّ حالٍ من مولاه، فأحسن أحواله: أن يرجع إليه في كل شيء ممَّا قدَّره وقضاه، فإنَّ عصاه قال: يا رب، استر عليّ، فإذا فرغ من المعصية قال: يا رب تُبِّ عليّ! فإذا تاب قال: يا رب، ارزقني العصمة! فإذا عمل الطاعة قال: يا رب تقبَّل مني!»^(٢).

وقال الغزالي في «الإحياء»: «إيَّاكَ أَنْ تستحقِّر ذرَّات الطاعات فلا تأتيها، وذرَّات المعاصي فلا تُبقيها، كالمرأة الخرقاء، تكسل عن الغزل، تعلُّلاً بأنَّها لا تقدر في كل ساعة إلَّا على خيط واحد، تقول: وأيُّ غنى يحصل في خيط واحد؟ وما وقع ذلك في الثياب؟ لا تدري المعتوِّهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطاً خيطاً، وأنَّ أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرَّة ذرَّة، فإذا التَّضرَّع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلاً»^(٣).

وذكر في كتاب «الأذكار»^(٤) عن الربيع بن خثيم أنَّه قال: لا تقل: أستغفر الله وأتوب إليه، فيكون ذنباً وكذباً إن لم تفعل، بل قل: اللهم اغفر لي وتب عليّ. قال النووي: هذا حسن، وأمَّا كراهته «أستغفر الله» وتسميته كذباً، فلا يُوافق عليه؛ لأنَّ معنى «أستغفر الله» أطلب مغفرته، وليس هذا كذباً. قال: ويكفي في ردِّه حديث ابن مسعود بلفظ:

(١) الإحياء (٤٩/٤).

(٢) المصدر السابق (٤٨/٤).

(٣) المصدر السابق، بتصرف.

(٤) الأذكار للنووي ص ٤٠٤، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، نشر دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ -

«من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه: غُفرت ذنوبه وإن كان قد فرَّ من الزحف» أخرجه أبو داود والترمذي^(١) وصحَّحه الحاكم^(٢).

قال الحافظ ابن حجر: هذا في لفظ «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم» وأمّا «أتوب إليه» فهو الذي عنى الربيع رحمته الله أنه كذب، وهو كذلك إذا قاله ولم يفعل التَّوبَةَ كما قال، وفي الاستدلال للرد عليه بحديث ابن مسعود نظر؛ لجواز أن يكون المراد منه ما إذا قالها وفعل شروط التَّوبَةِ، ويحتمل أن يكون الربيع قصد مجموع اللفظين، لا خصوص «أستغفر الله» فيصح كلامه كله والله أعلم.

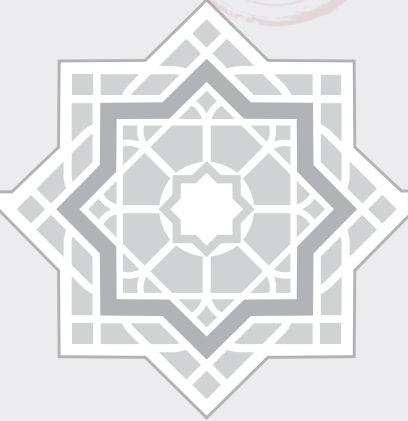
قال الحافظ: «ورأيت في الحلبيات للسبكي الكبير: الاستغفار طلب المغفرة إمّا باللسان أو بالقلب أو بهما، فالأول فيه نفع؛ لأنّه خير من السكوت، ولأنّه يعتاد قول الخير، والثاني نافع جدًّا، والثالث أبلغ منهما، لكنّهما لا يمحضان الذنب حتّى توجد التَّوبَةُ، فإنّ العاصي المصّر يطلب المغفرة، ولا يستلزم ذلك وجود التَّوبَةِ منه. إلى أن قال: والذي ذكرته من أنّ معنى الاستغفار هو غير معنى التَّوبَةِ، هو بحسب وضع اللفظ، لكنّه غلب عند كثير من النّاس أنّ لفظ «أستغفر الله» معناه التَّوبَةُ، فمن كان ذلك معتقده، فهو يريد التَّوبَةَ لا محالة. ثم قال: وذكر بعض العلماء أنّ التَّوبَةَ لا تتم إلا بالاستغفار لقوله تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ والمشهور أنّه لا يُشترط^(٣).

(١) رواه أبو داود في الصلاة (١٥١٧)، والترمذي في الدعوات (٣٥٧٧)، وقال: غريب. عن زيد أبو يسار.

(٢) رواه الحاكم في الدعاء (٥١١/١)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، عن ابن مسعود.

(٣) فتح الباري (٤٧٢/١٣).

مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرِظَاوِيِّ



الباب الثالث تتمات التَّوْبَةِ وَأَحْكَامُهَا



- تمام التَّوْبَةِ ودوامها.
- قبول التَّوْبَةِ.
- أقسام النَّاسِ في التَّوْبَةِ.



غير مرخصة للطباعة

تمام التَّوْبَةِ ودوامها

قال الإمام الغزالي:

«قد ذكرنا أَنَّ التَّوْبَةَ عبارة عن ندم يورث عزمًا وقصدًا، وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصي حائلًا بينه وبين محبوبه، ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام، ولتمامها علامة، ولدوامها شرط، فلا بدَّ من بيانها.

أَمَّا العلم فالنظر فيه نظر في سبب التَّوْبَةِ وسيأتي.

وأَمَّا الندم فهو توجُّع القلب عند شعوره بفوات المحبوب، وعلامته طول الحسرة والحزن، وانسكاب الدمع، وطول البكاء والفكر، فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته، طال عليه مصيبته وبكاؤه، وأيُّ عزيز أعز عليه من نفسه؟ وأيُّ عقوبة أشد من النَّار؟ وأيُّ شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصي؟ وأيُّ مخبر أصدق من الله ورسوله؟ ولو حدَّته إنسان واحد يسمَّى طبيبًا: أَنَّ مرض ولده المريض لا يبرأ، وأنَّه سيموت منه، لطال في الحال حزنه، فليس ولده بأعز من نفسه، ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله، ولا الموت بأشد من النَّار، ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى، والتعرُّض بها للنار: فألم الندم كلَّما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى، فعلا

صحة الندم: رقة القلب، وغزارة الدمع، وفي الأثر: جالسوا التوَّابين، فإنهم أرقُّ أفئدة^(١). ومن علامته: أن تتمكَّن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلًا عن حلاوتها، فيستبدل بالميل كراهية، وبالرغبة نفرة.

وفي الإسرائيليات: أنَّ الله ﷻ قال لبعض أنبيائه وقد سأله قبول توبة عبد، بعد أن اجتهد سنين في العبادة، ولم ير قبول توبته: فقال: وعزتي وجلالي لو شفع فيه أهل السماوات والأرض ما قبلتُ توبته، وحلاوة ذلك الذنب الذي تاب منه في قلبه^(٢).

وأما القصد الذي ينبعث منه، وهو إرادة التدارك فله تعلق بالحال، وهو يوجب ترك كل محذور هو ملابس له، وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال، وله تعلق بالماضي؛ وهو تدارك ما فرط منه، وبالمستقبل؛ وهو دوام الطاعة، ودوام ترك المعصية إلى الموت.

قضاء حقوق الله:

وشروط صحتها فيما يتعلق بالماضي: أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام (أقول: والمرأة بالسن أو بالحيض) ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة، وشهرًا شهرًا، ويومًا يومًا، ونفسًا نفسًا، وينظر إلى الطاعات: ما الذي قصر فيه منها؟ وإلى المعاصي: ما الذي قارفه منها؟

فإن كان قد ترك صلاة أو صلاها فاقدة شرطًا من شروط صحتها، فيقضيها عن آخرها، فإن شك في عدد ما فاته منها: حسب من مدة

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٠٦)، عن عمر بن الخطاب.

(٢) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (٣٠٦/١).



بلوغه، وترك القدر الذي يستيقن أنَّه أداه، ويقضي الباقي، وله أن يأخذ فيه بغالب الظنِّ، ويصل إليه على سبيل التحري والاجتهاد.

وأما الصوم، فإنَّ كان قد تركه في سفر أو مرض، أو أفطرت المرأة بسبب الحيض أو النفاس ولم تقضه، فيتعرَّف مجموع ذلك بالتحري والاجتهاد، ويشغل بقضائه.

وأما الزكاة، فيحسب جميع ماله، وعدد السنين من أول ملكه، لا من زمان البلوغ؛ فإنَّ الزكاة واجبة في مال الصبي^(١)، فيؤدي ما عُلِمَ بغالب الظنِّ أنَّه في ذمته.

وأما الحجُّ، فإنَّ كان قد استطاع في بعض السنين، ولم يتفق له الخروج إلى الحج، والآن قد أفلس فعليه الخروج، فإنَّ لم يقدر مع الإفلاس، فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد، فإنَّ لم يكن له كسب ولا مال، فعليه أن يسأل النَّاس لِيُصْرَفَ إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به، فإنَّه إن مات قبل الحج مات عاصيًّا، والعجز الطارئ بعد القدرة لا يسقط عنه الحج، فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها.

وأما المعاصي، فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه، وبصره، ولسانه، وبطنه، ويده، ورجله، وفرجه، وسائر جوارحه، ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته، ويفصِّل عند نفسه ديوان معاصيه، حتَّى يطَّلِع على جميعها صغائرُها وكبائرُها، ثم ينظر فيها، فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلَّق بمظلمة العباد، كنظر إلى غير محرم، ووقوع في مسجد مع الجنابة، ومسِّ مصحف بغير طهارة، واعتقاد

(١) هذا هو رأي جمهور الأئمة وهو الذي رجحته في كتابي: فقه الزكاة.

بدعة، وشرب خمر، وسماع ملاه، وغير ذلك ممّا لا يتعلّق بمظالم العباد، فالتّوبة عنها بالندم والتّحسر عليها، وبأنّ يحسب مقدارها من حيث الكبر، ومن حيث المدة، ويطلب لكلّ معصية منها حسنة تناسبها، فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات، أخذًا من قوله ﷺ «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»^(١)، بل من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسَيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]. فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبمجالس الذكر، ويكفر القعود في المسجد جنبًا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة، ويكفر مسّ المصحف محدثًا بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه، وكذلك بأن يكتب مصحفًا ويجعله وقفًا، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحبّ إليه.

وعُدّ جميع المعاصي غير ممكن، وإنّما المقصود سلوك الطريق المضادة، فإنّ المرض يعالج بضده، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلّا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها، والمتضادات هي المتناسبات، فلذلك ينبغي أن تُمحى كل سيئة بحسنة من جنسها، لكن تضادها، فإنّ البياض يزال بالسواد، لا بالحرارة والبرودة.

وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المحو، فالرجاء فيه أصدق، والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحدٍ من العبادات، وإن كان ذلك أيضًا مؤثرًا في المحو، فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى. ويدل على أنّ الشيء يكفر بضده: أنّ حبّ الدنيا رأس كل خطيئة، وأثر اتباع الدنيا في القلب: السرور بها والحنين إليها، فلا جرم كان كل أذى يصيب

(١) سبق تخريجه ص ٧١.

المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كَفَّارة له، إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم.

مظالم الخلق:

وأما مظالم العباد، ففيها أيضًا معصية وجناية على حقِّ الله تعالى، فإنَّ الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضًا، فما يتعلق منه بحق الله تعالى، تداركه بالندم والتحصُّر، وترك مثله في المستقبل، والإتيان بالحسنات التي هي أضدادها، فيقابل إيذاء النَّاس بالإحسان إليهم، ويكفِّر غضب أموالهم بالتصدُّق بملكه الحلال، ويكفِّر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين، وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله، ويكفِّر قتل النفوس بإعتاق الرقاب؛ لأنَّ ذلك إحياء، إذ العبد الرقيق مفقود لنفسه، موجود لسيده، والإعتاق إيجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه، فيقابل الإعدام بالإيجاد المقدور، وبهذا تعرف أنَّ ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع، حيث كَفَّر القتل بإعتاق رقبة. ثم إذا فعل ذلك كله لم يكفه، ما لم يخرج عن مظالم العباد، ومظالم العباد إمَّا في النفوس أو الأموال أو الأعراض أو القلوب، أعني به الإيذاء المحض.

أَمَّا النُّفُوس فإنَّ جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية^(١)، ووصولها إلى المستحق، إمَّا منه، أو من عاقلته، وهو في عَهْدَة ذلك قبل الوصول، وإن كان عمدًا موجبًا للقصاص فبالقصاص، فإنَّ لم يُعرف، فيجب عليه أن يتعرَّف عند ولي الدم، ويحكِّمه في رُوحه، فإنَّ شاء عفا عنه، وإن شاء قتله، ولا تسقط عهده إلاَّ بهذا، ولا يجوز له الإخفاء.

(١) وعليه أيضًا كفارة: تحرير رقبة مؤمنة، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين.

وليس هذا كما لو زنى أو شرب أو سرق أو قطع الطريق، أو باشر ما يجب عليه فيه حدُّ الله تعالى، فإنَّه لا يلزمه في التَّوبَةِ أن يفضح نفسه، ويهتك ستره، ويلتمس من الوالي استيفاء حق الله تعالى، بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى، ويُقيم حدَّ الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتَّعذيب، فالعفو في محض حقوق الله تعالى قريبٌ من التَّائبين النَّادمين، فإنَّ أمرَ هذه إلى الوالي حتَّى أقام عليه الحدَّ وَقَعَ موقعه، وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى، بدليل ما صحَّ أنَّ ماعز بن مالك أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنِّي قد ظلمت نفسي وزنيتُ، وإنِّي أريد أن تطهِّرني! فردَّه، فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله، إنِّي قد زنيت! فردَّه الثانية، فلما كان في الثالثة أمر به فحُفِر له حفرة، ثم أمر به فرجم، فكان النَّاس فيه فريقين: فقائل يقول: لقد هلك، وأحاطت به خطيئته! وقائل يقول: ما توبة أصدق من توبته. فقال رسول الله ﷺ «لقد تاب توبة لو قُسمت بين أمة لوسعتهم»^(١).

وأما القصاصُ وحدُّ القذف: فلا بدَّ من تحليل صاحبه المستحقَّ فيه. وإن كان المتناول مالاً تناوله بغصب، أو خيانة، أو غبن في معاملة بنوع تلبس، كترويج زائف، أو ستر عيب من المبيع، أو نقص أجره أجير، أو منع أجرته.. فكل ذلك يجب أن يفتَّش عنه، لا من حدِّ بلوغه، بل من أول مدة وجوده، فإنَّ ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي إخراجَه بعد البلوغ، إن كان الولي قد قصَّر فيه، فإنَّ لم يفعل كان ظالماً مطالباً به، إذ يستوي في الحقوق المالية، الصبي والبالغ، وليحاسب نفسه على الحَبَّات والدوانق، من أول يوم حياته إلى يوم توبته، قبل أن

(١) رواه مسلم في الحدود (١٦٩٥)، عن بريدة.

يحاسب في القيامة، وليناقدش قبل أن يُناقش، فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا، طال في الآخرة حسابه.

فإنَّ حصَّلَ مجموعَ ما عليه بظنِّ غالب، ونوعٍ من الاجتهاد ممكن، فليكتبه، وليكتب أسامي أصحاب المظالم واحدًا واحدًا، وليطف في نواحي العالم، وليطلبهم، وليستحلهم، أو ليؤدِّ حقوقهم، وهذه التَّوْبَةُ تشقُّ على الظلمة، وعلى التُّجَّار، فإنَّهم لا يقدرُون على طلب المعاملين كلهم، ولا على طلب ورثتهم، ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه، فإنَّ عجز، فلا يبقى له طريقٌ إلَّا أن يكثر من الحسنات، حتَّى تفيض عنه يوم القيامة، فتؤخذ حسناته، وتوضع في موازين أرباب المظالم، ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه، فإنَّه إن لم تفِ بها حسناته، حمل من سيئات أرباب المظالم، فيهلك بسيئات غيره!!

فهذا طريق كل تائب في ردِّ المظالم، وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات، لو طال العمر، بحسب طول مدة الظلم، فكيف وذلك ممَّا لا يعرف؟ وربما يكون الأجل قريبًا؟ فينبغي أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشدَّ من تشميره الذي كان في المعاصي في متسع الأوقات.. هذا حكم المظالم الثابتة في ذمته.

أمَّا أمواله الحاضرة، فليرد إلى المالك ما يعرف له مالًا معينًا، وما لا يعرف له مالًا، فعليه أن يتصدَّق به، فإن اختلط الحلال بالحرام، فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد، ويتصدَّق بذلك المقدار، كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام.

وأمَّا الجناية على القلوب بمشاهدة النَّاس بما يسوؤهم، أو يعيبهم في الغيبة، فيطلب كل من تعرَّض له بلسان، أو آذى قلبه بفعل من أفعاله،

وليستحلَّ واحدًا واحدًا منهم، ومن مات أو غاب فقد فات أمره، ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضًا في القيامة، وأمّا من وجده، وأحلّه بطيب قلب منه، فذلك كفارته، وعليه أن يعرفه قدر جنايته وتعرّضه له، فالاستحلال المبهم لا يكفي، وربما لو عرف ذلك وكثرة تعدّيه عليه، لم تطب نفسه بالإحلال، وأدّخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمّله من سيئاته.

فإن كان في جملة جنايته على الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذّي بمعرفته، كزناه بجاريته أو أهله، أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه، يعظم أذاه مهما شؤفه به، فقد انسدّ عليه طريق الاستحلال، فليس له إلا أن يستحل منها، ثم تبقى له مظلمة، فليجبرها بالحسنات، كما يجبر مظلمة الميت والغائب.

وأما الذكر والتعريف، فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها، ومهما ذكر جنايته، وعرفه المجنيّ عليه، فلم تسمح نفسه بالاستحلال، بقيت المظلمة عليه، فإنّ هذا حقّه، فعليه أن يتلطف به، ويسعى في مهماته وأغراضه، ويظهر من حبه والشفقة عليه، ما يستميل به قلبه، فإنّ الإنسان عبد الإحسان، وكل من نفر بسيئة مال بحسنة، فإذا طاب قلبه بكثرة تودّده وتلطّفه، سمحت نفسه بالإحلال، فإنّ أباي إلا الإصرار، فيكون تلطفه به واعتذاره إليه، من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنايته، وليكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودّده وتلطّفه، كقدر سعيه في أذاه، حتّى إذا قاوم أحدهما الآخر، أو زاد عليه، أخذ ذلك منه عوضًا في القيامة يحكم الله به عليه، كمن أتلّف في الدنيا مالًا، فجاء بمثله، فامتنع من له المال من القبول ومن الإبراء، فإنّ

الحاكم يحكم عليه بالقبض منه، شاء أم أبى، فكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المُقسطين.

وأما العزم المرتبط بالاستقبال، فهو أن يعقد مع الله عقدًا مؤكَّدًا، ويعاهده بعهد وثيق: أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها، كالذي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضرُّه مثلاً، فيعزم عزمًا جزمًا أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه، فإنَّ هذا العزم يتأكَّد في الحال، وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال، ولكن لا يكون تائبًا ما لم يتأكَّد عزمه في الحال»^(١).

وما ذكره الغزالي فيما يتعلَّق بحقوق العباد: مسلَّم في جملته، وإن كان فيه بعض تفصيلات لابن القيم سنذكرها.

وأما فيما يتعلَّق بحقوق الله، فهناك رأي آخر بالنسبة للصلاة وقضائها، فرأي المذاهب الأربعة: وجوب قضاء الفوائت، وإن مضت عليها عشرات السنين، يقضى منها ما قدر عليه على مرور الوقت.

والرأي الآخر يقول: إنَّ الصلاة التي تقضى ما كان فواتها عن نوم أو نسيان، كما جاء في الحديث الصحيح^(٢)، وما عدا ذلك فقد انتهى وقتها، ولا يمكنه قضاؤها، وإنَّما عليه أن يعوِّض ما فاته بصلاة النوافل، وإحسان الفرائض بإتمامها كما يحبُّ الله ركوعها وسجودها وخشوعها.

وكأنَّما يعتبر هذا الرأي من بدأ الصلاة بعد إضاعتها دهرًا طويلًا، كأنَّه دخل الإسلام من جديد، فعليه أن يبدأ صفحة جديدة مع الله، ويستبق الخيرات، ويسارع إلى مغفرة من ربِّه وجنَّة عرضها السماوات والأرض.

(١) الإحياء (٣٤/٤ - ٣٨) ببعض تصرف.

(٢) رواه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٨٤)، وأحمد (١١٩٧٢)، عن أنس.

والموضوع فيه كلام كثير، يرجع إليه في الجزء الأول من «مدارج السالكين» لابن القيم، وقد رجّح هو وشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية عدم القضاء، وهو الذي أميل إليه لمن ضيّع من عمره سنوات لم يَحْنِ فيها ظهره لله راکعاً، أو يعفّر جبهته لله ساجداً.

ونقف بعض الوقفات في حقوق العباد.

التَّوْبَةُ من حقوق العباد:

وللتشديد في حقوق العباد، وقيامها أصلاً على المشاحة؛ كانت التَّوْبَةُ منها بأحد أمرين: إمّا أن يردها إلى صاحبها إن كان حيّاً، أو ورثته إن مات.

وإمّا باستحلاله منه بعد إعلامه به، إن كان حقّاً مالياً، أو جناية على بدنه أو بدن موروثه، كما ثبت عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض، فليتحلله اليوم، من قبل ألا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات»^(١).

توبة من تعذّر عليه رد الحقوق المالية:

وكل من ثبت عليه حقوق مالية للناس يجب عليه أن يرجعها إليهم، أو إلى ورثتهم، فإن لم يكن عنده ما يكفي، سعى في ذلك طول حياته ما استطاع، وكلما حصل شيئاً قضى بعض ما عليه، كل بنسبة حقه ودينه عند التائب، وفُق قسمة الغرماء، فمن كان في ذمّته هذه الحقوق المالية، ثم تاب وتعذّر عليه ردّها إلى أصحابها، أو إلى ورثتهم، لجهله بهم، أو لانقراضهم، أو لغير ذلك، فاختلف في توبة مثل هذا.

(١) رواه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٤٩)، وأحمد (١٠٥٧٣)، عن أبي هريرة.

«فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: لَا تَوْبَةَ لَهُ إِلَّا بِأَدَاءِ هَذِهِ الْمَظَالِمِ إِلَى أَرْبَابِهَا، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ قَدْ تَعَذَّرَ عَلَيْهِ، فَقَدْ تَعَذَّرَتْ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ، وَالْقَصَاصُ أَمَامَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَيْسَ إِلَّا.

قَالُوا: فَإِنَّ هَذَا حَقُّ الْآدَمِيِّ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ، وَاللَّهُ سَبَّحَانَهُ لَا يَتْرُكُ مِنْ حَقِّكَ عِبَادَهُ شَيْئًا، بَلْ يَسْتَوْفِيهَا لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، وَلَا يَجَاوِزُهُ ظَلَمَ ظَالِمٍ، فَلَا بَدَّ أَنْ يَأْخُذَ لِلْمَظْلُومِ حَقَّهُ مِنْ ظَالِمِهِ، وَلَوْ لَطْمَةٍ، وَلَوْ كَلِمَةٍ، وَلَوْ رَمِيَةً بِحَجَرٍ.

قَالُوا: وَأَقْرَبُ مَا لِهَذَا فِي تَدَارُكِ الْفَارِطِ مِنْهُ: أَنْ يُكْثَرَ مِنَ الْحَسَنَاتِ، لِيَتِمَّكَنَ مِنَ الْوَفَاءِ مِنْهَا يَوْمَ لَا يَكُونُ الْوَفَاءُ بِدِينَارٍ وَلَا بِدِرْهَمٍ، فَيَتَّجَرَ تِجَارَةً يُمْكِنُهُ الْوَفَاءُ مِنْهَا. وَمَنْ أَنْفَعَ مَا لَهُ: الصَّبْرُ عَلَى ظَلَمٍ غَيْرِهِ لَهُ وَأَذَاهُ، وَغَيْبَتُهُ وَقَذْفُهُ، فَلَا يَسْتَوْفِي حَقَّهُ فِي الدُّنْيَا، وَلَا يَقَابِلُهُ، لِيُحِيلَ خَصْمَهُ عَلَيْهِ إِذَا أَفْلَسَ مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنَّهُ كَمَا يُوْخِذُ مِنْهُ مَا عَلَيْهِ: يَسْتَوْفِي أَيْضًا مَا لَهُ، وَقَدْ يَتَسَاوَيَانِ، وَقَدْ يَزِيدُ أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ.

ثُمَّ اخْتَلَفَ هَؤُلَاءِ فِي حُكْمِ مَا بِيَدِهِ مِنَ الْأَمْوَالِ.

فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: يَوْقِفُ أَمْرَهَا، وَلَا يَتَصَرَّفُ فِيهَا الْبَتَّةَ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: يَدْفَعُهَا إِلَى الْإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ، لِأَنَّهُ وَكِيلُ أَرْبَابِهَا، فَيَحْفَظُهَا لَهُمْ، وَيَكُونُ حُكْمُهَا حُكْمُ الْأَمْوَالِ الضَّائِعَةِ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى: بَلْ بَابُ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ لِهَذَا، وَلَمْ يَغْلِقْهُ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَا عَنْ مُذْنِبٍ، وَتَوْبَتُهُ: أَنْ يَتَصَدَّقَ بِتِلْكَ الْأَمْوَالِ عَنْ أَرْبَابِهَا، بِأَنْ يَدْفَعُهَا إِلَى الْفُقَرَاءِ وَالْمُحْتَاجِينَ، أَوْ إِلَى جِهَاتِ الْخَيْرِ وَمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ.

وَمِنْهَا: جَمَاعَاتُ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَمَرَاكِزُ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ،

فإذا كان يوم استيفاء الحقوق، كان لأرباب المال الخيار: بين أن يجيزوا ما فعل، وتكون أجورها لهم، وبين أن لا يجيزوا، فيأخذوا من حسناته بقدر أموالهم، ويكون ثواب تلك الصدقة له، إذ لا يُبطل الله سبحانه ثوابها، ولا يجمع لأربابها بين العوض والمعوّض، فيُغرمه إياها، ويجعل أجرها لهم، وقد غُرّم من حسناته بقدرها»^(١).

قال ابن القيم: «وهذا مذهب جماعة من الصحابة، كما هو مروي عن ابن مسعود، ومعاوية، وحجاج بن الشاعر.

فقد روي أنّ ابن مسعود اشترى من رجل جارية، ودخل يزن له الثمن، فذهب ربُّ الجارية، فانتظره حتّى يئس من عوده، فتصدّق بالثمن، وقال: اللهم هذا عن ربِّ الجارية، فإنّ رضي فالأجر له، وإن أبى فالأجر لي، وله من حسناتي بقدره.

وغلّ رجل من الغنيمة، ثم تاب، فجاء بما غلّه إلى أمير الجيش، فأبى أن يقبله منه، وقال: كيف لي بإيصاله إلى الجيش، وقد تفرّقوا؟ فأتى حجاج بن الشاعر، فقال: يا هذا، إنّ الله يعلم الجيش وأسماءهم وأنسابهم، فادفع خُمسه إلى صاحب الخمس، وتصدق بالباقي عنهم، فإنّ الله يوصل ذلك إليهم - أو كما قال - ففعل.. فلمّا أخبر معاوية قال: لأن أكون أفتيتك بذلك أحب إلي من نصف ملكي!

قالوا: وكذلك اللقطة إذا لم يجد ربّها، بعد تعريفها، ولم يرد أن يتملّكها، تصدّق بها عنه، فإن ظهر مالها خيّر بين الأجر والضمان.

قالوا: وهذا لأنّ المجهول في الشرع كالمعدوم، فإذا جهل المالك صار بمنزلة المعدوم، وهذا مال لم يعلم له مالك معين، ولا سبيل إلى

(١) مدارج السالكين (١/٣٨٧، ٣٨٨).

تعطيل الانتفاع به، لما فيه من المفسدة والضرر بمالكه وبالفقراء، وبمن هو في يده، أمّا المالك: فلعدم وصول نفعه إليه، وكذلك الفقراء، وأمّا من هو في يده: فلعدم تمكّنه من الخلاص من إثمه، فيغرمه يوم القيامة من غير انتفاع به، ومثل هذا لا تبيحه شريعة، فضلاً عن أن تأمر به وتوجهه، فإنّ الشرائع مبناها على تحصيل المصالح بحسب الإمكان وتكميلها، وتعطيل المفسد بحسب الإمكان وتقليلها، وتعطيل هذا المال ووقفه ومنعه عن الانتفاع به: مفسدة محضة، لا مصلحة فيها، فلا يصار إليه^(١).

إنّ المعلوم - كما ذكر ابن القيم - أنّ صاحب هذا المال الذي قد حيل بينه وبينه: «أشدّ شيء رضا بوصول نفعه الأخرى إليه، وهو أكره شيء لتعطيله، أو إبقائه مقطوعاً عن الانتفاع به دنيا وأخرى، وإذا وصل إليه ثواب ماله سرّه ذلك أعظم من سروره بوصوله إليه في الدنيا، فكيف يقال: مصلحة تعطيل هذا المال عن انتفاع الميت والمساكين به ومن هو بيده أرجح من مصلحة إنفاقه شرعاً؟ بل أي مصلحة دينية أو دنيوية في هذا التعطيل؟ وهل هو إلّا محض المفسدة؟

ولقد سئل شيخنا أبو العباس ابن تيمية قدّس الله روحه سألته شيخ فقال: هربت من أستاذي - أي سيدي - وأنا صغير، وإلى الآن لم أطلع له على خبر، وأنا مملوك، وقد خفت من الله وعجلت، وأريد براءة ذمتي من حقّ سيدي من رقبتني، وقد سألت جماعة من المفتين، فقالوا لي: اذهب فاقعد في المستودع! فضحك شيخنا، وقال: تصدّق بقيمتك - أعلى ما كانت - عن سيدك، ولا حاجة لك بالمستودع، تقعد فيه عبثاً في غير مصلحة،

(١) مدارج السالكين (١/٣٨٨).

وإضرارًا بك، وتعطيلاً عن مصالحك، ولا مصلحة لأستاذك في هذا، ولا لك، ولا للمسلمين، أو نحو هذا من الكلام. والله أعلم»^(١).

من عاوض غيره معاوضة محرمة:

المسألة الثانية: إذا عاوض غيره معاوضة محرمة، وقبض العوض - كالزانية، والمغني، وبائع الخمر، وشاهد الزور ونحوهم - ثم تاب والعوض بيده.

فقلت طائفة: يرده إلى مالكة، إذ هو عين ماله، ولم يقبضه بإذن الشارع، ولا حصل لربه في مقابلته نفع مباح.

وقالت طائفة: بل توبته بالتصدق، ولا يدفعه إلى من أخذه منه، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو أصوب القولين، فإن قابضه إنما قبضه ببذل مالكة له، ورضاه ببذله، وقد استوفى عوضه المحرم، فكيف يجمع له بين العوض والمعوض؟ وكيف يرد عليه مالا قد استعان به على معاصي الله ورضي بإخراجه فيما يستعين به عليها ثانيًا وثالثًا؟ وهل هذا إلا محض إعانته على الإثم والعدوان؟ وهل يناسب هذا محاسن الشرع: أن يقضى للزاني بكل ما دفعه إلى من زنى بها، ويؤخذ منها ذلك طوعًا أو كرهًا، فيعطاه وقد نال عوضه؟

وهب أن هذا المال لم يملكه الآخذ، فملك صاحبه زال عنه بإعطائه لمن أخذه، وقد سلم له ما في قبالة من النفع، فكيف يقال: ملكه باق عليه، ويجب رده إليه؟ وهذا بخلاف أمره بالصدقة به، فإنه قد أخذه من وجه خبيث برضا صاحبه وبذله له بذلك، وصاحبه قد رضي بإخراجه

(١) مدارج السالكين (٣٨٩/١، ٣٩٠).

عن ملكه بذلك، وألّا يعود إليه، فكان أحقُّ الوجوه به: صرفه في المصلحة التي ينتفع بها من قبضه، ويخفف عنه الإثم، ولا يُقَوِّى الفاجر به ويُعان، ويجمع له بين الأمرين.

وهكذا توبة من اختلط ماله الحلال بالحرام، وتعدَّر عليه تمييزه: أن يتصدق بقدر الحرام، ويطيب باقي ماله، والله أعلم^(١).

مظالم العباد الأدبية كالغيبة والسب:

تلك هي التَّوْبَةُ من حقوق الخلق المالية، فكيف تكون التَّوْبَةُ من حقوقهم الأدبية، ومظالمهم المعنوية، كأن تكون مظلمة الإنسان المعتدي عليه: بقدرح فيه، بغيبة أو قذف أو سب أو سخرية واستهزاء، أو نحو ذلك؟ فهل يُشترط في توبته منها إعلامه بذلك بعينه والتحلل منه، أو إعلامه بأنّه قد نال من عرضه، ولا يشترط تعيينه، أو لا يشترط لا هذا ولا هذا، بل يكفي في توبته أن يتوب بينه وبين الله من غير إعلام من قذفه وإعتابه^(٢)؟

على ثلاثة أقوال، وعن أحمد روايتان منصوصتان في حدّ القذف، هل يشترط في توبة القاذف: إعلام المقذوف، والتحلل منه أو لا؟ ويُخرَج عليهما توبة المغتاب والشاتم.

والمعروف في مذهب الشافعي، وأبي حنيفة، ومالك: اشتراط الإعلام والتحلل، هكذا ذكره أصحابهم في كتبهم.

والذين اشتراطوا ذلك احتجوا بأنّ الذنب حق آدمي، فلا يسقط إلّا بإحلاله منه وإبرائه.

(١) مدارج السالكين (١/٣٩٠، ٣٩١).

(٢) أعتبه: أي أعطاه العُتْبَى وسره بعدما ساءه. انظر: لسان العرب (ع. ت. ب).

ثم من لم يصحح البراءة من الحق المجهول، شرط إعلامه بعينه، كأن يقول له: أنا سببتك وشتمتك، أو أنا سخرت منك، أو أنا اغتبتك وذكرتك بسوء، لا سيما إذا كان من عليه الحق عارفاً بمقداره، فلا بد من إعلام مستحقه بحجم هذا الحق؛ لأنه قد لا تسمح نفسه بالإبراء منه إذا عرف مقداره، فيقول له: أنا ظلمت أغتباك عشر سنوات، فقد يسامح في غيبته مرة أو مرات، ولا يسامح في غيبته سنوات.

واحتجوا بالحديث المذكور، وهو قوله ﷺ: «من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض فليتحلله اليوم»^(١).

قالوا: ولأن في هذه الجناية حقين: حقاً لله، وحقاً للآدمي، فالتوبة منها بتحلل الآدمي لأجل حقه، والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه تعالى.

قالوا: ولهذا كانت توبة القاتل لا تتم إلا بتمكين ولي الدم نفسه، إن شاء اقتص، وإن شاء عفا، وكذلك توبة قاطع الطريق.

والقول الآخر: إنه لا يشترط الإعلام بما نال من عرضه وقذفه واغتيابه، بل يكفي توبته بينه وبين الله، وأن يذكر المغتاب والمقذوف في مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره به من الغيبة، فيبدل غيبته بمدحه والثناء عليه وذكر محاسنه، وقذفه بذكر عفته وإحصانه، ويستغفر له بقدر ما اغتابه^(٢).

(١) سبق تخريجه ص ١٠٦.

(٢) الأصوب لغة أن تدخل الباء على المتروك، لقوله تعالى: ﴿أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، ودخولها على الأمر الجديد ليس خطأ كما يظن البعض إذا أمن اللبس، قال الزبيدي: وبذلت الحلقة بالخاتم: إذا أذبتها وجعلتها خاتماً. تاج العروس (ب. د. ل).



وهذا اختيار شيخنا أبي العباس ابن تيمية، قدس الله روحه.

واحتج أصحاب هذه المقالة بأنَّ إعلامه مفسدة محضة، لا تتضمن مصلحة، فإنَّه لا يزيده إلَّا أذى وحنقًا وغمًّا، وقد كان مستريحًا قبل سماعه، فإذا سمعه ربما لم يصبر على حمله، وأورثه ضررًا في نفسه أو بدنه.

وما كان هكذا فإنَّ الشارع لا يُبيحه، فضلًا عن أن يُوجبه ويأمر به.

قالوا: وربما كان إعلامه به سببًا للعداوة والحرب بينه وبين القائل، فلا يصفو له أبدًا، ويورثه علمه به عداوة وبغضاء مولدة لشرٍّ أكبر من شرِّ الغيبة والقذف، وهذا ضد مقصود الشارع من تأليف القلوب، والتراحم والتعاطف والتحابب.

قالوا: والفرق بين ذلك وبين الحقوق المالية وجنایات الأبدان من وجهين:

أحدهما: أنَّه قد ينتفع بها إذا رجعت إليه، فلا يجوز إخفاؤها عنه، فإنَّه محض حقه، فيجب عليه أدائه إليه، بخلاف الغيبة والقذف، فإنَّه ليس هناك شيء ينفعه يؤدِّيه إليه، إلَّا إضراره وتهيجه فقط، فقياس أحدهما على الآخر من أفسد القياس.

والثاني: أنَّه إذا أعلمه بها لم تؤذِهِ، ولم تهج منه غضبًا ولا عداوة، بل ربما سرَّه ذلك وفرح به، بخلاف إعلامه بما مزَّق به عِرضه طول عمره، ليلاً ونهارًا، من أنواع القذف والغيبة والهجو، فاعتبار أحدهما بالآخر اعتبار فاسد، وهذا هو الصحيح في القولين كما رأيت، والله أعلم^(١).

(١) انظر: مدارج السالكين (١/٢٩٠، ٢٩١).

التَّوْبَةُ مِنْ ذَنْبٍ مَعَ الْإِصْرَارِ عَلَى غَيْرِهِ:

ومن الأسئلة المهمة المطلوبة إجاباتها وبيان حكمها هنا، هذا السؤال وهو:

هل تصحُّ التَّوْبَةُ مِنْ ذَنْبٍ، مَعَ الْإِصْرَارِ عَلَى غَيْرِهِ؟

فيه قولان لأهل العلم، وهما روايتان عن الإمام أحمد، ولم يطلع على الخلاف من حكي الإجماع على صحتها، كالنووي وغيره.

وقد نقل أبو طالب المكي في «قوت القلوب» عن بعض العلماء قوله: من تاب من تسعة وتسعين ذنبًا، ولم يتب من ذنب واحد: لم يكن عندنا من التائبين^(١)!

قال الإمام ابن القيم: «والمسألة مشككة، ولها غور، ويحتاج الجزم بأحد القولين إلى دليل يحصل به الجزم، والذين صحَّحوها احتجوا بأنه لما صحَّ الإسلام - وهو توبة من الكفر - مع البقاء على معصية لم يتب منها، فهكذا تصح التَّوْبَةُ مِنْ ذَنْبٍ، مع بقاءه على آخر.

وأجاب الآخرون عن هذا بأنَّ الإسلام له شأن ليس لغيره، لقوته ونفاذه، وحصوله تبعًا بإسلام الأبوين أو أحدهما للطفل.

واحتج الآخرون بأنَّ التوبة: هي الرجوع إلى الله من مخالفته إلى طاعته، وأي رجوع لمن تاب من ذنب واحد، وأصرَّ على ألف ذنب؟

قالوا: والله سبحانه إنَّما لم يؤاخذ التائب؛ لأنَّه قد رجع إلى طاعته وعبوديته، وتاب توبة نصوحًا، والمصرُّ على مثل ما تاب منه - أو أعظم - لم يُراجع الطاعة، ولم يتب توبة نصوحًا.

(١) قوت القلوب (٣٢١/١).

قالوا: ولأنَّ التَّائِبَ إذا تاب إلى الله، فقد زال عنه اسم العاصي، كالكاfer إذا أسلم، زال عنه اسم الكافر، وأمَّا إذا أصرَّ على غير الذَّنْب الذي تاب منه فاسم المعصية لا يفارقه، فلا تصح توبته.

وسر المسألة: أنَّ التَّوْبَةَ هل تتبع بعض كالمعصية، فيكون تائبًا من وجه دون وجه، كالإيمان والإسلام؟

والراجح: تبعضها، فإنَّها كما تتفاضل في كيفيتها، كذلك تتفاضل في كميتها، ولو أتى العبد بفرض وترك فرضًا آخر، لاستحق العقوبة على ما تركه دون ما فعله، فهكذا إذا تاب من ذنب، وأصرَّ على آخر؛ لأنَّ التَّوْبَةَ فرض من الذَّنْبين. فقد أدى أحد الفرضين وترك الآخر، فلا يكون ما ترك موجبًا لبطلان ما فعل، كمن ترك الحج وأتى بالصلاة والصيام والزكاة.

والآخرون يجيبون عن هذا بأنَّ التَّوْبَةَ فعل واحد، معناه الإقلاع عمَّا يكرهه الله، والندم عليه، والرجوع إلى طاعته، فإذا لم توجد بكمالها لم تكن صحيحة، إذ هي عبادة واحدة، فالإتيان ببعضها وترك بعض واجباتها كالإتيان ببعض العبادة الواجبة وترك بعضها، فإنَّ ارتباط أجزاء العبادة الواحدة ببعضها ببعض أشد من ارتباط العبادات المتنوعات ببعضها ببعض.

وأصحاب القول الآخر يقولون: كل ذنب له توبة تخصُّه، وهي فرض منه، لا تتعلق بالتَّوْبَةَ من الآخر، كما لا يتعلق أحد الذَّنْبين بالآخر.

قال ابن القيم: «والذي عندي في هذه المسألة: أنَّ التَّوْبَةَ لا تصح من ذنب، مع الإصرار على آخر من نوعه، وأمَّا التَّوْبَةُ من ذنب، مع

مباشرة آخر لا تعلّق له به، ولا هو من نوعه: فتصحّ، كما إذا تاب من الرّبا، ولم يتب من شرب الخمر مثلاً؛ فإنّ توبته من الرّبا صحيحة، وأمّا إذا تاب من ربا الفضل، ولم يتب من ربا النسيئة وأصرّ عليه، أو بالعكس، أو تاب من تناول الحشيشة وأصرّ على شرب الخمر، أو بالعكس: فهذا لا تصح توبته، وهو كمن يتوب عن الزنى بامرأة، وهو مصرّ على الزنى بغيرها غير تائب منها، أو تاب من شرب عصير العنب المسكر، وهو مصرّ على شرب غيره من الأشربة المسكرة، فهذا في الحقيقة لم يتب من الذنب، وإنّما عدل عن نوع منه إلى نوع آخر، بخلاف من عدل عن معصية إلى معصية أخرى غيرها في الجنس، إمّا لأنّ وزرها أخف، وإمّا لغلبة دواعي الطبع إليها، وقهر سلطان شهوتها له.. وإمّا لأنّ أسبابها حاضرة لديه عتيدة، لا يحتاج إلى استدعائها، بخلاف معصية يحتاج إلى استدعاء أسبابها.. وإمّا لاستحواذ قرنائه وخطائئه عليه، فلا يدعونه يتوب منها، وله بينهم حظوة بها وجاه، فلا تطاوعه نفسه على إفساد جاهه بالتوبة»^(١).

والذي يترجح لي في هذه القضية: أنّ كل من تاب من ذنب توبة صادقة، فإنّ المأمول في أكرم الأكرمين: أن يقبل توبته، من هذا الذنب بعينه، وإن بقي متعلّقاً بذنب آخر من جنسه، فمن تاب من عمل قوم لوط بصدق قبل الله توبته، وإن ضعفت إرادته عن التوبة من الزنى، ومن تاب عن ربا النسيئة، قبل الله منه، وإن بقي يمارس ربا الفضل، أو تاب من الغيبة والنميمة، وإن ظل يسخر من الناس أو يكذب في القول، أو غير ذلك من آفات اللسان.

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٧٣ - ٢٧٥).

وإنَّما صَحَّتِ التَّوْبَةُ هُنا؛ لِأَنَّ التَّوْبَةَ فِي حَدِّ ذاتِها حَسَنَةٌ، بَلْ حَسَنَةٌ عَظِيمَةٌ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

ثم إِنَّهُ تَعَالَى قَدْ وَعَدَ بِقَبُولِ التَّوْبَةِ مِنْ عِبَادِهِ بِوَجْهِ عامٍ، وَلَمْ يَخْصَّ ذَنْبًا مِنْ آخِرٍ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥]. وَهَذَا قَدْ تَابَ مِنْ ذَنْبِهِ، فَهُوَ أَهْلٌ أَنْ يَقْبَلَ اللَّهُ مِنْهُ، وَيَعْفُو عَنْهُ.

ثم إِنَّ هَذَا يُوَافِقُ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي هَذَا البابِ مِنْ سَعَةِ الرَّحْمَةِ وَالْمَغْفَرَةِ، الَّتِي تَسَعُ كُلَّ مَذْنِبٍ، وَكُلُّ تَائِبٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

ثم هُوَ أَيْضًا الَّذِي يَعَالِجُ ضَعْفَ الْإِنْسَانِ، وَيَأْخُذُهُ بِالتَّدْرُجِ، وَيُفْتَحُ لَهُ البابُ، لِيَتَرَقَّى شَيْئًا فَشَيْئًا، وَيَتْرَكَ الْمَعْصِيَةَ خَطْوَةً وَخَطْوَةً، وَمَرَحَلَةً بَعْدَ مَرَحَلَةٍ، حَتَّى يَهْدِيَهُ اللَّهُ فِي النِّهَايَةِ إِلَى تَرْكِهَا جَمِيعًا، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ مَيِّسِّرِينَ، وَلَمْ تَبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ»^(١).

وَمِمَّا يَدُلُّ لِرَأْيِ الْأَكْثَرِينَ فِي قَبُولِ تَوْبَةِ التَّائِبِ إِذَا تَكَرَّرَ مِنْهُ الذَّنْبُ، وَتَكَرَّرَتْ مِنْهُ التَّوْبَةُ: مَا رَوَاهُ الشَّيْخَانُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ عَبْدًا أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ! أَذْنَبْتُ، فَاعْفُرْ لِي. فَقَالَ رَبُّهُ: أَعْلَمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ! أَذْنَبْتُ آخِرًا، فَاعْفُرْهُ! فَقَالَ تَعَالَى: أَعْلَمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْوُضُوءِ (٢٢٠)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبًا». قال: «قال: رب! أذنبت آخر، فاغفره لي! فقال: أعلم عبدي أن له ربًا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي - ثلاثًا - فليعمل ما شاء»^(١).

قال العلامة القرطبي في كتابه «المفهم في شرح مسلم»: «يدل هذا الحديث على عظيم فائدة الاستغفار، وعلى عظيم فضل الله، وسعة رحمته، وحلمه وكرمه، لكن هذا الاستغفار هو الذي ثبت معناه في القلب مقارنة للسان، لتحل به عقد الإصرار، ويحصل معه الندم، فهو ترجمة للتوبة، ويشهد له حديث: «خياركم كل مفتن تواب»^(٢). ومعناه: الذي يتكرر منه الذنب والتوبة، فكلما وقع في الذنب عاد إلى التوبة، لا من قال بلسانه: أستغفر الله، وقلبه مصر على تلك المعصية، فهذا الذي استغفاره يحتاج إلى الاستغفار!»^(٣).

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» معلقًا: «ويشهد له ما أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث ابن عباس مرفوعًا: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمستغفر من الذنب، وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه»^(٤). قال: «والراجح أن قوله: «والمستغفر» إلى آخره: موقوف، أي من كلام ابن عباس، وليس حديثًا نبويًا، وأوله عند ابن ماجه والطبراني من حديث ابن مسعود، وسنده حسن.

(١) سبق تخريجه ص ٣٥.

(٢) رواه البزار (٧٠٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦٧١٨) مرفوعًا، وذكره الترمذي في العلل الكبير (٦٨٠): مرفوعًا وموقوفًا ورجح الموقوف، عن علي.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم ص ١٥٦٧، وقد بؤب لهذا الحديث: باب من عاد إلى الذنب فليعد إلى الاستغفار، نشر مطبعة الكرامة، الرباط، ط ١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

(٤) سبق تخريجه ص ٨٥.

قال القرطبي: وفائدة هذا الحديث: أَنَّ العود إلى الذنب، وإن كان أقبح من ابتدائه؛ لأنَّه انضاف إلى ملابسة الذنب نقض التَّوْبَةِ، لكن العود إلى التَّوْبَةِ أحسن من ابتدائها؛ لأنَّه انضاف إليها ملازمة الطلب من الكريم، والإلحاح في سؤاله، والاعتراف بأنَّه لا غافر للذنب سواه^(١).

وقال الإمام النووي: في الحديث أَنَّ الذنوب، ولو تكررت مائة مرة - بل ألفاً أو أكثر - وتاب في كل مرَّة، قُبِلَتْ توبته، أو تاب عن الجميع توبة واحدة صَحَّتْ توبته، وقوله: «اعمل ما شئت»، أو «فليعمل ما يشاء». معناه ما دُمْتَ تَذنب فتتوب، غفرت لك^(٢) اهـ.^(٣)

صحيح أَنَّ التَّوْبَةَ الكاملة هي التَّوْبَةُ من جميع الذنوب، وهي التي يترتب عليها الفلاح المذكور في قوله تعالى: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وهي التي يُكفَّرُ بها جميع السيئات، ويُغفر بها جميع الذنوب، وتدخل صاحبها جنات تجري من تحتها الأنهار، يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه.

وهي التي توجب حَبَّ الله المطلق لأصحابها، كما توجب فرحه بهم، وضحكهم لهم.

بل التَّوْبَةُ الكاملة ليست هي التي تمنع صاحبها من اقتراف المعاصي فقط، بل هي التي تحفِّزه إلى اكتساب الطاعات، وعمل الصَّالِحَات، والالتزام بأحكام الشرع وآدابه ظاهراً وباطناً فيما بينه وبين ربه، وفيما

(١) المفهم ص ١٥٦٧.

(٢) شرح النووي على مسلم (٧٥/١٧)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٢هـ.

(٣) انظر: فتح الباري (٤٧٢/١٣).

بينه وبين نفسه، وفيما بينه وبين خلقه أجمعين، حتّى يستحقّ الفلاح في الأولى والآخرة، والفوز بالجنة والنّجاة من النّار.

فينبغي أن نفرّق بين هذه التّوبة الكلّية المطلقة التي توجب لأهلها الفوز بالجنة، والنّجاة من النّار، وبين التّوبة الجزئية المقيدة التي يتحرّر بها صاحبها من ذنب معيّن، وإن بقي مغلولاً بذنوبٍ أخرى، فلكلّ من هاتين التّوبتين حكمها.

توبة العاجز عن المعصية:

ومن الأسئلة التي ترد هنا: ما حكم العاصي إذا حيل بينه وبين أسباب المعصية، وعجز عنها، بحيث يعتذر وقوعها منه، هل تصح توبته؟ وهذا كالكاذب والقاذف وشاهد الزور إذا قطع لسانه، والزاني إذا فقد الشهوة إلى الزنى، والوالي الظالم إذا عُزل عن سلطانه، وفقد القدرة على الظلم، وكل من وصل إلى حدّ بطلت معه دواعيه إلى معصية كان يرتكبها.

يقول ابن القيم هنا: «في هذا قولان للناس:

فقال طائفة: لا تصح توبته؛ لأنّ التّوبة إنّما تكون ممّن يُمكنه الفعل والترك، فالتّوبة من الممكن، لا من المستحيل، ولهذا لا تُتصوّر التّوبة من نقل الجبال عن أماكنها، وتنشيف البحار، والطيران إلى السماء، ونحوه.

قالوا: ولأنّ التّوبة مخالفة داعي النفس، وإجابة داعي الحق، ولا داعي للنفس هنا، إذ يعلم استحالة الفعل منها.

قالوا: ولأنّ هذا كالمُكره على الترك، المحمول عليه قهراً، ومثل هذا لا تصح توبته.

قالوا: ومن المستقرّ في فطر النَّاس وعقولهم: أنَّ توبة المفاليس وأصحاب الجوائح: توبة غير معتبرة، ولا يُحمدون عليها، بل يسمُّونها توبة إفلاس، وتوبة جائحة.

قال الشاعر:

وَرُحْتُ عَنْ تَوْبِهِ سَائِلًا وَجَدْتُهَا تَوْبَةً إِفْلَاسًا^(١)!

قالوا: ويدل على هذا أيضًا: أنَّ النصوص المتضافرة المتظاهرة قد دلَّت على أنَّ التَّوْبَةَ عند معاينة الموت لا تنفع؛ لأنَّها توبة ضرورة لا اختيار، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُنَّ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٧، ١٨]. والجهالة هاهنا: جهالة العمل، وإن كان عالمًا بالتحريم. قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أنَّ كل ما عُصِيَ الله به فهو جهالة، عمدًا كان أو لم يكن، وكل من عصى الله فهو جاهل^(٢).

وأما التَّوْبَةُ من قريب: فجمهور المفسِّرين: على أنَّها التَّوْبَةُ قبل المعاينة. قال عكرمة: قبل الموت. وقال الضحاك: قبل معاينة ملك الموت^(٣). وقال السُّدِّي والكَلْبِي: أنَّ يتوب في صحته قبل مرض موته^(٤).

(١) هو البهاء زهير، كما في ديوانه ص ١٤٤، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد طاهر الجبلاوي، نشر دار المعارف، القاهرة، ط ٢.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره (١٨٤/٢).

(٣) هذه الآثار ذكرها الطبري في تفسيره (٥١٠/٦ - ٥١٢).

(٤) قال السيد رشيد رضا رحمته الله معلقًا على هذه الأقوال: «اغترَّ الناس بظواهر هذه الأقوال في تفسير الآية، وهذه الأحاديث، فصاروا يسوِّفون في التوبة، ويصِرُّون على المعاصي، فترسخ =

وفي «المسند»، وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»^(١). وفي نسخة دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعاً: «إنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتْكَ يَا رَبُّ لَا أُبْرِحُ أَغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ. فَقَالَ الرَّبُّ ﻋَﻠَﻴْكَ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَارْتِفَاعُ مَكَانِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»^(٢). فهذا شأن التائب من قريب، وأمّا إذا وقع في السياق - أي في سياق الموت - فقال: إنني تبت الآن! لم تقبل توبته، وذلك لأنّها توبة اضطرار لا اختيار، فهي كالتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها، ويوم القيامة، وعند معاينة بأس الله.

قالوا: ولأنّ حقيقة التوبة: هي كفُّ النفس عن الفعل الذي هو متعلّق النهي، والكف إنّما يكون عن أمر مقدور، وأمّا المحال فلا يعقل كفُّ

= في قلوبهم، وتأنس بها أنفسهم، وتصير ملكات وعادات يتعدّر عليهم، أو يتعسّر على غير الموقّق النادر الإقلاع عنها، حتى يجيئهم الأجل الموعود، وليس معنى الآية: أن التوبة المقبولة المرضيّة التي أوجب الله على نفسه قبولها: هي ما كانت عن معاصٍ يُصِرُّ المرء عليها إلى ما قبل غرغرة الموت، ولو بساعات أو دقائق، بل المراد القرب من وقت الذنب المانع مع الإصرار، كما في الآية الأخرى، ولعل مراد عكرمة والضحاك وأمثالهما موافقة معنى الحديث، من أن الله يقبل توبة العاصي ما لم يُغرغر، أي أنّه على فرض أنّه تاب في أي وقت من الأوقات، قبل الغرغرة والمعاناة، تُقبل توبته، ولا يكون ذلك منافياً للآية، فإن الإنسان قد يتوب قبل الغرغرة من ذنب عمله من عهد قريب، ولكن قلماً يتوب من الإصرار الذي رسخ في الزمن البعيد، فإن تاب فقلماً يتمكن من إصلاح ما أفسده الإصرار من نفسه، ليصدق عليه قوله تعالى: ﴿وَلِئِنْ لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]. وجملة القول: أن المراد أن الإصرار والتسويق خطر، وإن كانت التوبة تقبل في كل حال اختيار، إذ الغالب أن المرء يموت على ما عاش عليه، فليحذر المغرورون. مدارج السالكين (٢٨٤/١) في الهامش.

(١) سبق تخريجه ص ٣٦.

(٢) رواه أحمد (١١٢٣٧)، وقال مخرّجوه: حسن بطرقه. والحاكم في التوبة (٢٦١/٤)، وصحّح إسناده، ووافقه الذهبي.

النفس عنه، ولأنَّ التَّوْبَةَ هي الإقلاع عن الذنب، وهذا لا يتصور منه الإيقاع حتَّى يتأتَّى منه الإقلاع.

قالوا: ولأنَّ الذَّنْبَ عزم جازم على فعل المحرَّم، يقترن به فعله المقدور، والتَّوْبَةُ منه: عزم جازم على ترك المقدور، يقترن به الترك، والعزم على غير المقدور محال، والترك في حقِّ هذا ضروري، لا عزم غير مقدور، بل هو بمنزلة ترك الطيران إلى السماء، ونقل الجبال، وغير ذلك.

والقول الثاني - وهو الصواب - أنَّ توبته صحيحة ممكنة، بل واقعة، فإنَّ أركان التَّوْبَةِ مجتمعة فيه، والمقدور له منها: الندم، وفي المسند مرفوعاً «الندم توبة»^(١). فإذا تحقَّق ندمه على الذَّنْب ولومه نفسه عليه، فهذه توبة، وكيف يصحُّ أن تُسلب التَّوْبَةُ عنه، مع شدة ندمه على الذَّنْب، ولومه نفسه عليه، ولا سيما ما يتبع ذلك من بكائه وحزنه وخوفه، وعزمه الجازم ونيته أنَّه لو كان صحيحاً والفعل مقدوراً له لما فعله.

وإذا كان الشارع قد نَزَلَ العاجز عن الطاعة منزلة الفاعل لها، إذا صحَّت نيته، كقوله في الحديث الصحيح: «إذا مرض العبد أو سافر كُتِبَ له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً»^(٢)، وفي الصحيح أيضاً عنه: «إنَّ بالمدينة أقواماً ما سرتهم مسيرة، ولا قطعتم وادياً إلَّا كانوا معكم». قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة، حبَّسهم العُدْرُ»^(٣). وله نظائر في الحديث، فتنزِيل العاجز عن المعصية، التارك لها قهراً مع نيته تركها اختياراً لو أمكنه منزلة التارك المختار أولى.

(١) سبق تخريجه ص ٣٧.

(٢) رواه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٩٦)، وأحمد (١٩٦٧٩)، عن أبي موسى.

(٣) رواه البخاري في المغازي (٤٤٢٣)، وأحمد (١٢٠٠٩)، عن أنس.

يوضحه: أنَّ مفسدة الذنب التي يترتب عليها الوعيد تنشأ من العزم عليه تارة، ومن فعله تارة، ومنشأ المفسدة معدوم في حق هذا العاجز فعلاً وعزماً، والعقوبة تابعة للمفسدة.

وأيضاً فإنَّ هذا تعذّر منه الفعل، وما تعذّر منه التمني والوداد، فإذا كان يتمنى ويود لو واقع الذنب، ومن نيته: أنّه لو كان سليماً لباشره، فتوبته بالإقلاع عن هذا الوداد والتمني، والحزن على فوته، فإنَّ الإصرار متصوّر في حقه قطعاً، فيتصوّر في حقه ضده، وهو التوبة، بل هي أولى بالإمكان والتصوّر من الإصرار، وهذا واضح.

والفرق بين هذا وبين المعايين ومن ورد القيامة: أنَّ التكليف قد انقطع بالمعينة وورود القيامة، والتوبة إنّما تكون في زمن التكليف، وهذا العاجز لم ينقطع عنه التكليف، فالأوامر والنواهي لازمة له، والكف متصوّر منه عن التمني والوداد، والأسف على فوته، وتبديل ذلك بالندم والحزن على فعله، والله أعلم»^(١).

هل يرجع التائب من الذنب إلى درجته قبل الذنب؟

ومن الأسئلة الواردة هنا: أنَّ العاصي إذا تاب من الذنب: هل يرجع إلى ما كان عليه من الدرجة التي حطه عنها الذنب، أو لا يرجع إليها؟ قال ابن القيم: «اختلفوا في ذلك:

فقال طائفة: يرجع إلى درجته؛ لأنَّ التوبة تجبُ الذنب بالكلية، وتصيّرهُ كأن لم يكن، والمقتضي لدرجته ما معه من الإيمان والعمل الصالح، فعاد إليها بالتوبة.

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٨٣ - ٢٨٦).

قالوا: لَأَنَّ التَّوْبَةَ حَسَنَةٌ عَظِيمَةٌ وَعَمَلٌ صَالِحٌ، فَإِذَا كَانَ ذَنْبُهُ قَدْ حَطَّ عَنْ دَرَجَتِهِ، فَحَسَنَتُهُ بِالتَّوْبَةِ رَقَّتْهُ إِلَيْهَا، وَهَذَا كَمَنْ سَقَطَ فِي بئرٍ، وَلَهُ صَاحِبٌ شَفِيقٌ، أَدْلَى إِلَيْهِ حَبْلًا تَمَسَّكَ بِهِ حَتَّى رَقِيَ مِنْهُ إِلَى مَوْضِعِهِ، فَهَكَذَا التَّوْبَةُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، مِثْلُ هَذَا الْقَرِينِ الصَّالِحِ وَالْأَخِ الشَّفِيقِ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: لَا يَعُودُ إِلَى دَرَجَتِهِ وَحَالِهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي وَقُوفٍ، وَإِنَّمَا كَانَ فِي صُعُودٍ، فَبِالذَّنْبِ صَارَ فِي نَزُولٍ وَهَبُوطٍ، فَإِذَا تَابَ نَقَصَ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْقَدْرَ الَّذِي كَانَ مُسْتَعِدًّا بِهِ لِلتَّرْقِي.

قالوا: وَمِثْلُ هَذَا مِثْلُ رَجُلَيْنِ سَائِرِينَ عَلَى طَرِيقٍ سَيَّرًا وَاحِدًا، ثُمَّ عَرَضَ لِأَحَدِهِمَا مَا رَدَّهَ عَلَى عَقْبِهِ أَوْ أَوْقَفَهُ، وَصَاحِبُهُ سَائِرٌ، فَإِذَا اسْتَقَالَ هَذَا رَجُوعَهُ وَوَقَفْتَهُ، وَسَارَ بِإِثْرِ صَاحِبِهِ، لَمْ يَلْحَقْهُ أَبَدًا؛ لِأَنَّهُ كَلَّمَا سَارَ مَرَحَلَةً تَقَدَّمَ ذَاكَ أُخْرَى.

قالوا: وَالْأَوَّلُ يَسِيرُ بِقُوَّةِ أَعْمَالِهِ وَإِيمَانِهِ، وَكَلَّمَا أَزْدَادَ سَيَّرًا أَزْدَادَتْ قُوَّتُهُ، وَذَلِكَ الْوَاقِفُ الَّذِي رَجَعَ قَدْ ضَعُفَتْ قُوَّةُ سَيَرِهِ وَإِيمَانِهِ بِالْوُقُوفِ وَالرَّجُوعِ.

وَسَمِعْتُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ رحمته الله يَحْكِي هَذَا الْخِلَافَ، ثُمَّ قَالَ: وَالصَّحِيحُ: أَنَّ مِنَ التَّائِبِينَ مَنْ لَا يَعُودُ إِلَى دَرَجَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعُودُ إِلَيْهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعُودُ إِلَى أَعْلَى مِنْهَا، فَيَصِيرُ خَيْرًا مِمَّا كَانَ قَبْلَ الذَّنْبِ، وَكَانَ دَاوُدُ بَعْدَ التَّوْبَةِ خَيْرًا مِنْهُ قَبْلَ الْخَطِيئَةِ.

قال: وَهَذَا بِحَسَبِ حَالِ التَّائِبِ بَعْدَ تَوْبَتِهِ، وَجَدَهُ وَعَزَمَهُ، وَحَذَرَهُ وَتَشْمِيرَهُ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ أَعْظَمَ مِمَّا كَانَ لَهُ قَبْلَ الذَّنْبِ عَادَ خَيْرًا مِمَّا كَانَ وَأَعْلَى دَرَجَةٍ، وَإِنْ كَانَ مِثْلَهُ عَادَ إِلَى مِثْلِ حَالِهِ، وَإِنْ كَانَ دُونَهُ لَمْ يَعُدْ إِلَى

درجته، وكان منحطاً عنها، وهذا الذي ذكره هو فصل النزاع في هذه المسألة»^(١).

وقد ضرب لذلك مثل برجل خرج من بيته يريد الصلاة في الصف الأول، لا يلوي على شيء في طريقه، فعرض له رجل من خلفه جبذ ثوبه وأوقفه قليلاً، يريد تعويقه عن الصلاة، فله معه حالان:

أحدهما: أن يشتغل به حتى تفوته الصلاة، فهذه حال غير التائب.

الثاني: أن يجاذبه على نفسه، ويتفلس منه، لئلا تفوته الصلاة.

ثم له بعد هذا التفلس ثلاثة أحوال:

أحدها: أن يكون سيره جمزاً ووثباً، ليستدرك ما فاتته بتلك الوقفة، فربما استدركه وزاد عليه.

الثاني: أن يعود إلى مثل سيره.

الثالث: أن تورثه تلك الوقفة فتوراً وتهاوناً، فيفوته فضيلة الصف الأول، أو فضيلة الجماعة وأول الوقت، فهكذا حال التائبين السائرين سواء.

أيهما أفضل: المطيع أم التائب توبة نصوحاً؟

ومن الأسئلة المهمة في باب التوبة هذا السؤال: هل المطيع الذي لم يعص خير من العاصي الذي تاب إلى الله توبة نصوحاً، أو هذا التائب أفضل منه؟

(١) المدارج (١/٢٩١، ٢٩٢).



قال ابن القيم: «اختلف في ذلك:

فطائفة رجّحت من لم يعصِ على من عصى وتاب توبة نصوحًا، واحتجوا بوجوه:

أحدها: أنَّ أكمل الخلق وأفضلهم: أطوعهم لله، وهذا الذي لم يعصِ أطوع، فيكون أفضل.

الثاني: أنَّ في زمن اشتغال العاصي بمعصيته يسبقه المطيع عدة مراحل إلى فوق، فتكون درجته أعلى من درجته.

الثالث: أنَّ غاية التوبة: أن تمحو عن هذا سيئاته، ويصير بمنزلة من لم يعملها، فيكون سعيه في مدة المعصية لا له ولا عليه، فأين هذا السعي من سعي من هو كاسب رابح؟

الرابع: أنَّ الله يمقت على معاصيه ومخالفة أوامره، ففي مدة اشتغال هذا بالذنوب: كان حظه المقت، وحظ المطيع الرضا.

الخامس: أنَّ الذنب بمنزلة شرب السم، والتَّوْبَةُ ترياقه ودواؤه، والطاعة هي الصحة والعافية، وصحة وعافية مستمرة، خير من صحة تخلَّلها مرض وشرب سمٍّ أفاق منه.

السادس: أنَّ العاصي على خطر شديد، فإنَّه دائر بين ثلاثة أشياء:

- أحدها: العطب والهلاك بشرب السم.
- الثاني: النقصان من القوة وضعفها، إن سلم من الهلاك.

• والثالث: عود قوته إليه كما كانت أو خيرًا منها.

والأكثر إنَّما هو القسمان الأولان، ولعل الثالث نادر جدًّا، فهو على يقين من ضرر السم، وعلى رجاء من حصول العافية، بخلاف من لم يتناول ذلك.

السابع: أنَّ المطيع قد أحاط على بستان طاعته حائطًا حصينًا، لا يجد الأعداء إليه سبيلًا، فثمرته وزهرته وخضرته وبهجته في زيادة ونمو أبدًا، والعاصي قد فتح فيه ثغراء، وثلم فيه ثلثة.

والثامن: أنَّ طمع العدو في هذا العاصي إنَّما كان لضعف علمه وضعف عزيمته، ولذلك يسمَّى جاهلاً، قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أنَّ كل ما عُصي الله به فهو جهالة، وكذلك قال الله تعالى في حق آدم: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، وقال في حق غيره: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وأمَّا من قويت عزيمته، وكمل علمه، وقوي إيمانه: لم يطمع فيه عدوه، وكان أفضل.

التاسع: أنَّ المعصية لا بدَّ أن تؤثر أثرًا سيئًا ولا بدَّ: إمَّا هلاكًا كليًا، وإمَّا خسرانًا وعقابًا، يعقبه: إمَّا عفو ودخول الجنَّة، وإمَّا نقص درجة، وإمَّا خمود مصباح الإيمان، وعمل التَّائب في رفع هذه الآثار والتكفير، وعمل المطيع في الزيادة، ورفع الدرجات.

ولهذا كان قيام الليل نافلة للنبي ﷺ خاصة، فإنَّه يعمل في زيادة الدرجات، وغيره يعمل في تكفير السيئات، وأين هذا من هذا؟

العاشر: أنَّ المقبل على الله المطيع له، يسير بجملته أعماله، وكلما زادت طاعاته وأعماله ازداد كسبه بها وعظم، وهو بمنزلة من سافر

فكسب عشرة أضعاف رأس ماله، فسافر ثانيًا برأس ماله الأول وكسبه، فكسب عشرة أضعافه أيضًا، فسافر ثالثًا أيضًا بهذا المال كله، وكان ربحه كذلك، وهلمَّ جرًّا، فإذا فتر عن السفر في آخر أمره، مرة واحدة، فاته من الربح بقدر جميع ما ربح أو أكثر منه.

وطائفة رجحت التَّائب، وإن لم تنكر كون الأول أكثر حسنات منه، واحتجت بوجوه:

أحدها: أنَّ عبودية التَّوْبَةِ من أحبِّ العبوديات إلى الله، وأكرمها عليه، فإنَّه سبحانه يحبُّ التَّوابين.

الوجه الثاني: أنَّ للتَّوْبَةِ عنده سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات، ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدر، ولم يجر هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التَّوْبَةِ، ومعلوم أنَّ لهذا الفرح تأثيرًا عظيمًا في حال التَّائب وقلبه، ومزيده لا يعبر عنه.

الوجه الثالث: أنَّ عبودية التَّوْبَةِ فيها من الذلِّ والانكسار والخضوع والتملق لله والتذلُّل له ما هو أحبُّ إليه من كثير من الأعمال الظاهرة، وإن زادت في القدر والكمية على عبودية التَّوْبَةِ، فإنَّ الذلَّ والانكسار رُوحُ العبودية ومخُّها ولُبُّها. يوضِّحه:

الوجه الرابع: أنَّ حصول مراتب الذلِّ والانكسار للتَّائب أكمل منها لغيره، فإنَّه قد شارك من لم يذنب في ذلِّ الفقر والعبودية والمحبة، وامتاز عنه بانكسار قلبه بالمعصية، والله سبحانه أقرب ما يكون إلى عبده عند ذلِّه وانكسار قلبه، كما في الأثر الإسرائيلي: يا رب أين

أجذك؟ قال: عند المنكسرة قلوبهم من أجلي^(١). ولأجل هذا كان «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»^(٢)؛ لأنه مقام ذلّ وانكسارٍ بين يدي ربه^(٣).

ولعلّ هذه المعاني ترجّح حال التائب إذا صدقت توبته وعوّض ما فاتته، والله أعلم بالسرائر.

* * *



- (١) رواه أحمد في الزهد (٣٩١)، وأبو نعيم في الحلية (١٧٧/٦).
- (٢) رواه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأحمد (٩٤٦١)، عن أبي هريرة.
- (٣) مدارج السالكين (٢٩٦/١ - ٢٩٨).

قبول التوبة

من تأمل ما جاء في القرآن من آيات، وفي السُّنَّة من أحاديث، وعن الصحابة من آثار، تبين له أنَّ هذه النصوص تدلُّ بوضوح على أنَّ من تاب إلى الله توبة نصوحًا، واجتمعت شروط التَّوْبَةِ في حقه، فإنَّه يقطع بقبول الله توبته، كما يقطع بقبول إسلام الكافر إذا أسلم إسلامًا صحيحًا، وهذا قول الجمهور، وكلام ابن عبد البر يدل على أنَّه إجماع.

ومن النَّاس من قال: لا يُقْطَع بقبول التَّوْبَةِ، بل يُرْجَى، وصاحبها تحت المشيئة وإن تاب، واستدلوا بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فجعل الذنوب كلها تحت مشيئته.

وربما استدلَّ بالآيات التي استخدم القرآن فيها أداة الترجي مثل: عسى ولعل، مثل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [التحریم: ٨]، وبقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص: ٦٧]، وقوله: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وقوله: ﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢].

والظاهر أنَّ هذا في حق التَّائِب؛ لأنَّ الاعتراف يقتضي الندم، وفي

حديث عائشة، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ»^(١).

والصحيح قول الأكثرين، وأن هذه الآيات لا تدل على عدم القطع، فإنَّ الكريم إذا أطمع لم يقطع من رجائه المطمع، ومن هنا قال ابن عباس: إِنَّ «عسى» من الله واجبة، نقله عنه علي بن أبي طلحة^(٢)، وقد ورد جزاء الإيمان والعمل الصالح بلفظ: «عسى» أيضاً، ولم يدل ذلك على أنه غير مقطوع به، كما في قوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

وأما قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فإنَّ التائب ممن شاء أن يغفر له، كما أخبر بذلك في مواضع كثيرة من كتابه.

التَّوْبَةُ مقبولة قطعاً من ناحية وعد الله:

ولا ريب أنَّ التَّوْبَةَ إذا استوفت أركانها ومقوماتها واستجمعت شرائطها: مقبولة عند الله تعالى لا محالة حسب وعده، وحسب سنته سبحانه في خلقه.

أما وعده فقد وصف نفسه بقوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٤١٤١)، ومسلم في التوبة (٢٧٧٠)، عن عائشة.

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (٣٧٦/١١). ورواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس مرسلة، فإنَّ ابن أبي طلحة لم ير ابن عباس.

وقال ﷺ: ﴿الْمُ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤].

فبين أن من أسمائه الحسنی «التواب»، وهو الذي يوفق العاصي للتوبة، ويقبلها منه، فكل توبة من العبد محفوفة بتوبتين من الله تعالى: توبة قبلها للهداية والتوفيق، وتوبة بعدها للقبول.

وقال رجل لرابعة: إنني أكثر من الذنوب والمعاصي، فلو ثبت هل يتوب الله علي؟ فقالت: لا بل لو تاب عليك لثبت^(١)!

تشير ﷺ على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨]. أي: وفقهم للتوبة ليتوبوا، فتوبتهم ثمرة لتوبته ﷺ.

ولذلك قال بعض الصالحين: «أنا لا أحمل هم المغفرة، بل أحمل هم التوبة!» وذلك لأن المغفرة نتيجة حتمية للتوبة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. وإنما يغفر الله الذنوب جميعاً بالتوبة، حتى الشرك والكفر بالله تعالى وبرسله، يغفره بالتوبة منه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

حتى كفر الردة - وهو شر أنواع الكفر - إن تاب منه، ورجع عنه، قبلت توبته، ومحيت خطيئته، كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ * أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا

(١) الرسالة القشيرية (١/٢١٤).

مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٦﴾ [آل عمران: ٨٦ - ٨٩]، فلم يُغلق في وجوههم باب التَّوْبَةِ، برغم عِظَم جريمتهم التي استوجبت لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولكنَّهم إذا تابوا تاب الله عليهم، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، فهذا مقتضى أسمائه وصفاته، فمن يغفر إذا هو لم يغفر؟ ومن يرحم إذا هو سبحانه لم يرحم؟!

وآيات القرآن في هذا الباب غزيرة وفيرة، كلها تحمل وعد الله تعالى بالمغفرة وقبول التَّوْبَةِ، ووعدته تعالى حق، وقوله صدق ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]، ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم: ٦].

يؤكد ذلك ما جاء في الأحاديث النبوية الشريفة، مثل:

ما رواه مسلم في «صحيحه»، عن أبي موسى، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مَسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مَسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»^(١).

وبسَطَ اليد كناية عن طلب التَّوْبَةِ، والطلب أبلغ وأخص من القبول، إذ الطالب أبلغ من القابل، فُرُبَّ قابل ليس بطالب، ولا طالب إلا وهو قابل.

وما رواه ابن ماجه، عن أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ ﷺ قال: «لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكُمْ السَّمَاءَ، ثُمَّ تَبْتَغُوا تَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ»^(٢).

فهذا ما يتعلق بقبول التَّوْبَةِ من ناحية وعده ﷺ في كتابه وعلى لسان رسوله.

(١) سبق تخريجه ص ٣٣.

(٢) سبق تخريجه ص ٢٧.



التَّوْبَةُ مقبولة من ناحية سنن الله:

وأما قبول التَّوْبَةِ من ناحية سُنَّه سبْحانه في الخلق، وما أقام عليه هذا الكون من شبكة الأسباب والمسببات، فإنَّ من عرف هذه السنن الإلهية وأطْرادها وثباتها: يعرف أنَّ نور التَّوْبَةِ إذا سطع يمحو ظلمة الذنوب وآثارها في القلوب، كما يمحو بزوغ الفجر ونور الشمس ظلام الليل، وكما يمحو الماء والصابون الوسخ والدرن من الثوب والبدن، وكما يمحو الصقل صدأ الحديد.

ولهذا قالوا: إنَّ نار الندم تحرق غبرة الذنب، ونور الحسنة يزيل عن وجه القلب ظلمة السيئة، وأنَّه لا طاقة لظلام السيئات مع نور الحسنات، ومن توهَّم أنَّ التَّوْبَةَ تصحُّ بشرائطها ولا تقبل؛ فهو كمن يتوهَّم أنَّ الشمس تطلع والظلام لا يقلع، وأنَّ الثوب يُغسل والوسخ لا يزول.

نعم، إذا تغلغل الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب، فلا يقوى الصابون على قلعه من أصله، وكذلك إذا توغَّل الصدأ في الحديد، فقد لا يصقله الجلاء، وهذا مثل القلب إذا تراكمت عليه الذنوب حتَّى صارت رينًا وطبعًا على القلب، فمثل هذا القلب المطبوع عليه، لا يتوب، ولا يرجع إلى الرب^(١)، كما قال تعالى في شأن قوم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ ﴿ [النحل: ١٠٨، ١٠٩].

ولكن هذا غير الذي نذكره هنا، وهو من تاب توبة استجمعت أركانها وشرائطها.

(١) انظر: الإحياء (١٣/٤).



كما أنَّ من حق التائب - بل من واجبه - أن يشك في قبول توبته، إذا شكَّ في استكمال أركانها، أو في استيفاء شروطها، وما أدقها وما أصعبها! وما أشق تحصيلها بكمالها على وجهها! ولهذا زُوي عن الربيع بن خيثم أنه كان يقول: لا تقل: أستغفر الله، وأتوب إليه، فيكون ذنبًا وكذبًا إن لم تفعل، بل قل: اللهم اغفر لي ذنبي وتب علي!

وكلما ارتقى الإنسان في سلم الصالحات: اتَّهم توبته، وارتاب في صحتها، كما قال ابن القيم رحمه الله: «وأما اتَّهام التَّوبة، فلأنَّها حق عليه، لا يتيقن أنَّه أدى هذا الحق على الوجه المطلوب منه، الذي ينبغي له أن يؤديه عليه، فيخاف أنَّه ما وفَّاه حقَّها، وأنَّها لم تقبل منه، وأنَّه لم يبذل جهده في صحتها، وأنَّها توبة علة وهو لا يشعر بها، كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس، والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس، أو أنَّه تاب محافظة على حاله، فتاب للحال، لا خوفًا من ذي الجلال، أو أنَّه تاب طلبًا للراحة من الكد في تحصيل الذنب، أو اتقاء ما يخافه على عرضه وماله ومنصبه، أو لضعف داعي المعصية في قلبه، وخمود نار شهوته، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في كون التَّوبة خوفًا من الله، وتعظيمًا له ولحرماته، وإجلالًا له، وخشية من سقوط المنزلة عنده، وعن البعد والطرْد عنه، والحجاب عن رؤية وجهه في الدنيا والآخرة، فهذه التَّوبة لون، وتوبة أصحاب العلل لون آخر»^(١).

(١) مدارج السالكين (١/١٨٥).



علامات التَّوْبَةِ المقبولة:

وللتَّوْبَةِ المقبولة علامات تُعرف بها، وتميِّزها عن التَّوْبَةِ المردودة عند الله تعالى.

«منها: أن يكون التَّائِب بعد التَّوْبَةِ خيرًا ممَّا كان قبلها.

ومنها: أنَّه لا يزال الخوف مصاحبًا له، ولا يأمن مكر الله طرفه عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرُّسُل لقبض روحه: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه وتقطُّعه ندمًا وخوفًا، وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها، وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٠] قال: تقطعها بالتَّوْبَةِ، ولا ريب أنَّ الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه، وهذا هو تقطُّعه، وهذا حقيقة التوبة؛ لأنَّه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه، وخوفًا من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرط حسرةً وخوفًا، تقطع في الآخرة إذا حَقَّت الحقائق، وعانِ ثواب المطيعين، وعقاب العاصين، فلا بدَّ من تقطُّع القلب إمَّا في الدنيا وإمَّا في الآخرة.

ومن علامات التَّوْبَةِ الصحيحة أيضًا: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء، ولا تكون لغير المذنب، لا تحصل بجوع، ولا رياضة، ولا حبٍّ مجرد، وإنَّما هي أمر وراء هذا كله، تكشَّر القلب بين يدي الربِّ كسرةً تامَّةً.. قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقت بين يدي ربه طريقًا ذليلاً خاشعًا، لم يجد منه بُدًّا، ولا عنه غناء، ولا منه مهربًا، وعلم

أَنَّ حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جانياته، هذا مع حبه لسيده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده، وذله وعز سيده.

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع، ما أنفعها للعبد! وما أجدى عائدتها عليه! وما أعظم جبره بها! وما أقرب به من سيده! فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة، والخضوع والتذلل، والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له، فله ما أحلى قوله في هذه الحال: أسألك بعزك وذلي إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك عني وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير، وليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهاج الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضريع، سؤال من خضعت لك رقبتك، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذلل لك قلبه.

يَا مَنْ أَلُوذُ بِهِ فِيمَا أُوْمَلُّهُ وَمَنْ أَعُوذُ بِهِ مِمَّا أَحَازِرُهُ
لَا يَجْبُرُ النَّاسُ عَظْمًا أَنْتَ كَاسِرُهُ وَلَا يَهَيِّضُونَ عَظْمًا أَنْتَ جَابِرُهُ^(١)

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة، فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتهم توبته، وليرجع إلى تصحيحها، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة! وما أسهلها باللسان والدعوى! وما عالج الصادق بشيء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة، ولا حول ولا قوة إلا بالله^(٢).

(١) من شعر المتنبي، انظر: شرح ديوان المتنبي لأبي العلاء المعري ص ٥٥٢، تحقيق محمد

سعيد المولوي، نشر مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط ١، ١٤٢٩هـ -

٢٠٠٨م.

(٢) المدارج (١/١٨٦، ١٨٧).

هل هناك ذنوب لا تُقبل التَّوْبَةُ منها كالقتل؟

«اختلف الناس: هل من الذنوب ذنب لا تقبل توبته أو لا؟

رأي الجمهور بقبول التَّوْبَةِ إذا صحَّت:

فقال الجمهور: التَّوْبَةُ تأتي على كل ذنب، فكل ذنب يمكن التَّوْبَةُ منه وتُقبل، ولو كان قتل النفس بغير حق.

القائلون: لا توبة للقاتل وأدلتهم:

وقالت طائفة: لا توبة للقاتل، وهذا مذهب ابن عبَّاس المعروف عنه، وإحدى الروایتين عن أحمد، وقد ناظر ابن عبَّاس في ذلك أصحابه، فقالوا: «أليس قد قال الله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ...﴾ إلى أن قال: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]؟ فقال: كانت هذه الآية في الجاهلية، وذلك أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وزنوا، فأتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: إنَّ الذي تدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لِمَا عملنا كفَّارة. فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾ [الفرقان: ٦٨] الآية^(١)، فهذه في أولئك، وأمَّا التي في سورة النساء - وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] - فالرجل إذا عرف الإسلام وشرَّاعه، ثم قتل، فجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٨١٠)، ومسلم في الإيمان (١٢٢).

وقال زيد بن ثابت: لما نزلت التي في الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ عجبنا من لينها، فلبثنا سبعة أشهر، ثم نزلت الغليظة بعد اللينة، فنسخت اللينة^(١). وأراد بالغليظة: هذه الآية التي في سورة النساء. وباللينة: آية الفرقان.

قال ابن عباس: آية الفرقان مكية، وآية النساء مدنية، نزلت ولم ينسخها شيء^(٢).

قال هؤلاء: ولأنَّ التَّوْبَةَ من قتل المؤمن عمداً متعذرة؛ إذ لا سبيل إليها إلا باستحلاله، أو إعادة نفسه التي فوّتها عليه إلى جسده، إذ التَّوْبَةُ من حقّ آدمي، لا تصحّ إلا بأحدهما، وكلاهما متعذر على القاتل، فكيف تصحّ توبته من حقّ آدمي لم يصل إليه، ولم يستحلّه منه؟ ولا يردّ عليهم هذا في المال إذا مات ربه ولم يوفّه إياه؛ لأنّه يتمكّن من إيصال نظيره إليه بالصدقة.

قالوا: ولا يرد علينا أنّ الشرك أعظم من القتل، وتصحّ التَّوْبَةُ منه؛ فإنّ ذلك محض حقّ الله، فالتَّوْبَةُ منه ممكنة، وأمّا حقّ آدمي: فالتَّوْبَةُ موقوفة على أدائه إليه أو استحلاله، وقد تعذر.

حجج الجمهور على قبول التَّوْبَةِ من القاتل:

واحتج الجمهور بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

(١) رواه أبو داود في الفتن (٤٢٧٢)، والنسائي في تحريم الدم (٤٠٠٦) وفيهما «سنة أشهر» بدل «سبعة أشهر». والطبراني (١٣٦/٥) وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٧٩٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧٦٢)، ومسلم في الإيمان (٣٠٢٣) (٢٠).

فهذه في حق التائب، وبقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. فهذه في حق غير التائب؛ لأنه فرق بين الشرك وما دونه، وعلق المغفرة بالمشيئة، فخصص وعلق، وفي التي قبلها عمم وأطلق.

واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، فإذا تاب هذا القاتل وآمن وعمل صالحًا، فإن الله وُجِّلَ غَفَّار له.

قالوا: وقد صحَّ عن النبي ﷺ حديث الذي قتل المائة ثم تاب، فنفعته توبته، وألحق بالقريّة الصالحة التي خرج إليها^(١)، وصحَّ عنه ﷺ من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ وَحَوْلَهُ عَصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: «بَايَعُونِي عَلَى أَنْ لَا تَشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبَهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا، فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَسُتِرَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَهُوَ إِلَى اللَّهِ: إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ». فبايعناه على ذلك^(٢).

قالوا: وقد قال ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: «ابن آدم، لو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا، لقيتك بقرابها مغفرة»^(٣)، وقال ﷺ: «مَنْ مَاتَ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ»^(٤)،

(١) سبق تخريجه ص ٣٨.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (١٨)، ومسلم في الحدود (١٧٠٩)، عن عبادة بن الصامت.

(٣) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٨٧)، وأحمد (٢١٣١٥)، عن أبي ذر.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٤٨٧)، ومسلم في الإيمان (٩٤)، عن أبي ذر.

وقال: «من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخل الجنة»^(١)، وقال: «إن الله حرّم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله»^(٢)، وفي حديث الشفاعة: «أخرجوا من النار من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان»^(٣)، وفيه يقول الله تعالى: «وعزتي وجلالي، لأخرجنّ من النار من قال: لا إله إلا الله»^(٤). وأضعاف هذه النصوص كثير، تدل على أنه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد»^(٥) اهـ.

وهكذا نرى رأي الجمهور أقوى حجة، وهو الذي يتفق مع رحمة الله الواسعة، ومغفرته التي تسع كل الذنوب.

حكم القاتل إذا اقتُص منه: «واختلفوا فيما إذا تاب القاتل وسَلَّم نفسه، فقتل قصاصًا، هل يبقى عليه يوم القيامة للمقتول حق؟

فقال طائفة: لا يبقى عليه شيء؛ لأنّ القصاص حدّه، والحدود كفّارة لأهلها، وقد استوفى ورثة المقتول حقّ موروثهم، وهم قائمون مقامه في ذلك، فكأنّه قد استوفاه بنفسه، إذ لا فرق بين استيفاء الرجل حقه بنفسه أو بنائبه ووكيله.

يوضح هذا: أنّه أحد الجنائتين، فإذا استُوفيت منه لم يبقَ عليه شيء، كما لو جنى على طرفه فاستقاد منه، فإنّه لا يبقى له عليه شيء.

(١) رواه أحمد (٢٢٠٣٤)، وقال مخرّجوه: صحيح. وأبو داود في الجنائز (٣١١٦)، والحاكم (٣٥١/١)، وصحّح إسناده ووافقه الذهبي، وصحّحه ابن الملقن في البدر المنير (١٨٩/٥)، عن معاذ.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٢٥)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٣٣)، عن عتبان بن مالك.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (٢٢)، ومسلم (١٨٤)، كلاهما في الإيمان، عن أبي سعيد.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٥١٠)، ومسلم في الإيمان (١٩٣)، عن أبي سعيد.

(٥) مدارج السالكين (٣٩١/١ - ٣٩٤).

وقالت طائفة: المقتول قد ظلم، وفاتت عليه نفسه، ولم يستدرِك ظلامته. والوارث إنَّما أدرك ثأر نفسه، وشفاء غيظه، وأي منفعة حصلت للمقتول بذلك؟ وأي ظُلامة استوفاهَا من القاتل؟

قالوا: فالحقوق في القتل ثلاثة: حقُّ الله، وحقُّ للمقتول، وحقُّ للوارث، فحقُّ الله: لا يزول إلَّا بالتَّوْبَةِ، وحقُّ الوارث: قد استوفاه بالقتل، وهو مخيَّر بين ثلاثة أشياء: بين القصاص، والعفو مجانًا، أو إلى مال، فلو أحلَّه، أو أخذ منه مالًا لم يسقط حقُّ المقتول بذلك، فكذلك إذا اقتص منه؛ لأنَّه أحد الطرق الثلاثة في استيفاء حقه، فكيف يسقط حقُّ المقتول بواحد منها دون الآخرين؟

قالوا: ولو قال القاتل: لا تقتلوه لأطالبه بحقِّي يوم القيامة، فقتلوه، أكان يسقط حقه ولم يسقطه؟ فإن قلتم: يسقط، فباطل؛ لأنَّه لم يرض بإسقاطه، وإن قلتم: لا يسقط، فكيف تسقطونه إذا اقتص منه، مع عدم العلم برضا المقتول بإسقاط حقه؟

وهذه حجج كما ترى في القوة، لا تندفع إلَّا بأقوى منها أو بأمثالها.

فالصواب - والله أعلم - أن يقال: إذا تاب القاتل من حقِّ الله، وسلَّم نفسه طوعًا إلى الوارث، ليستوفي منه حقُّ موروثه: سقط عنه الحقَّان، وبقي حقُّ الموروث لا يضيعه الله، ويجعل من تمام مغفرته للقاتل: تعويض المقتول؛ لأنَّ مصيبتَه لم تنجر بقتل قاتله، والتَّوْبَةُ النصوح تهدم ما قبلها، فيعوض هذا عن مظلُمته، ولا يعاقب هذا لكمال توبته، وصار هذا كالكاfer المحارب لله ولرسوله إذا قتل مسلمًا في الصف، ثم أسلم وحسن إسلامه، فإنَّ الله سبحانه يعوِّض هذا الشهيد المقتول، ويغفر

للكافر بإسلامه، ولا يؤاخذ به بقتل المسلم ظُلْمًا، فَإِنَّ هدم التَّوْبَةِ لما قبلها كهدم الإسلام لما قبله.

وعلى هذا إذا سَلِمَ نفسه وانقاد، فعفا عنه الولي، وتاب القاتل توبة نصوحًا، فالله تعالى يقبل توبته، ويعوّض المقتول.

فهذا الذي يمكن أن يصل إليه نظر العالم واجتهاده، والحكم بعد ذلك لله ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [النمل: ٧٨] ^(١).



(١) المدارج (١/٣٩٨، ٣٩٩).

أقسام الناس في التوبة

قال صاحب «قوت القلوب»: «الناس في التَّوْبَةِ على أربعة أقسام، في كل قسم طائفة، لكل طائفة مقام:

١ - منهم تائب من الذنب، مستقيم على التَّوْبَةِ والإنابة، لا يحدث نفسه بالعود إلى المعصية أيام حياته، مستبدل بعمل سيئاته صالح حسناته، فهذا هو «السابق بالخيرات»، وهذه هي التَّوْبَةُ النصوح.

ونفس هذا هي «المطمئنة المرضية»، والخبر المروي في مثل هذا: «سيروا، سبق المفردون، المُسْتَهِتَرُونَ بذكر الله، وضع الذكر أوزارهم، فوردوا القيامة خفافاً»^(١).

٢ - والذي يلي هذا في القُرب: عبدٌ عقدَه التَّوْبَةُ، ونِيَّتَه الاستقامة، لا يسعى في ذنب، ولا يقصده، ولا ينحوه، ولا يهتمُّ به^(٢)، وقد يُبتلى بدخول الخطايا عليه من غير قصدٍ منه، ويمتحن بالهمِّ واللمم، فهذا من صفات المؤمنين، يُرجى له الاستقامة؛ لأنَّه في طريقها، وهو ممَّن قال الله تعالى فيهم: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعٌ

(١) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٩٦) بلفظ: «سبق المفردون». دون كلمة «سيروا»، وقال: حسن غريب. والبيهقي في شعب الإيمان (٥٠٤)، عن أبي هريرة.

(٢) أي: لا يبالى به ولا يشغله.

﴿الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]. وداخل في وصف المتقين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ونفس هذا هي «اللّوامة» التي أقسم الله تعالى بها، وهو من «المقتصدين»، وهذه الذنوب تدخل على النفوس من معاني صفاتها وغرائز جبلاتها، وأوائل أنسابها من نبات الأرض، وتركيب الأطوار في الأرحام خلقاً من بعد خلق، ومن اختلاط الأمشاج بعضها ببعض، ولذلك عقبه تعالى بقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، فلذلك نهى عن تزكية النفس المنشأة من الأرض، والمرغبة في الأرحام بالأمشاج للاعوجاج فقال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]. أي: فهذا وصفها من بدء إنشائها، وكذلك وصف مشيخ خليقته بالابتلاء في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢] وشرح هذا يطول.

وفي مثل هذا العبد معنى الخبر الذي جاء «المؤمن مفتن تَوَّابٌ»^(١). و«المؤمن كالسنبلة، تفيء أحياناً، وتميل أحياناً»^(٢). فإزاء هذا العبد على نفسه، ومقته لها عن معرفته بها، وترك نظره إليها، وسكونه إلى خير إن ظهر عليها: يكون من كفارات ذنوبه؛ لأنّه من تدبّر الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢].

٣ - والعبد الثالث هو الذي يقرب من هذا الثاني في الحال، عبد

(١) سبق تخريجه ص ١١٨.

(٢) رواه الرامهرمزي في الأمثال ص ٨٠، وجود إسناده العراقي في تخريج الإحياء ص ١٣٨١، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٥٨٤٥)، عن أنس بن مالك.

يُذْنِبُ ثُمَّ يَتُوبُ، ثُمَّ يَعُودُ لِلذَّنْبِ، ثُمَّ يَحْزَنُ عَلَيْهِ، بِقَصْدٍ لَهُ، وَسَعْيٍ فِيهِ، وَإِثَارِهِ إِيَّاهُ عَلَى الطَّاعَةِ، إِلَّا أَنَّهُ يَسُوفُ بِالتَّوْبَةِ، وَيَحْدُثُ نَفْسَهُ بِالْإِسْتِقَامَةِ، وَيَحِبُّ مَنَازِلَ التَّوَّابِينَ، وَيُرْتَاحُ قَلْبُهُ إِلَى مَقَامِ الصَّدِيقِينَ، وَلَمْ يَأْنِ حِينُهُ، وَلَا ظَهَرَ مَقَامُهُ؛ لِأَنَّ الْهَوَىَّ يَحْرِّكُهُ، وَالْعَادَةُ تَجْذِبُهُ، وَالْغَفْلَةُ تَغْمِرُهُ، إِلَّا أَنَّهُ يَتُوبُ خِلَالَ الذُّنُوبِ وَيَعَاوِدُ، لِتَقَدُّمِ الْمَعْتَادِ، فَتُوبَةُ هَذَا فُوتَ مِنْ وَقْتٍ إِلَى وَقْتٍ، وَمِثْلُهُ تُرْجَى لَهُ الْإِسْتِقَامَةُ لِمَحَاسِنِ عَمَلِهِ، وَتَكْفِيرُهَا السَّالِفِ سَيِّئَتِهِ، وَقَدْ يَخَافُ عَلَيْهِ الْإِنْقِلَابَ، لِمَدَاوِمَةِ خَطِيئَتِهِ.

وَنَفْسُ هَذَا هِيَ «الْمَسْؤُولَةُ»، وَهُوَ مَمَّنْ خَلَطَ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِ، فَيَسْتَقِيمَ فَيُلْحَقَ بِالسَّابِقِينَ، فَهَذَا بَيْنَ حَالَيْنِ: بَيْنَ أَنْ يَغْلِبَ عَلَيْهِ وَصْفُ النَّفْسِ، فَيَحِقُّ عَلَيْهِ مَا سَبَقَ مِنَ الْقَوْلِ، وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ مَوْلَاهُ نَظْرَةَ تَجْبِرُ لَهُ كُلَّ كَسْرٍ، وَتَغْنِيَ لَهُ كُلَّ فَقْرٍ، فَيَتَدَارَكُهُ بِمَنَةِ سَابِقَةٍ، فَتُلْحَقَهُ بِمَنَازِلِ الْمُقْرَبِينَ؛ لِأَنَّهُ سَلَكَ طَرِيقَهُمْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ وَنِيَّتِهِ الْآخِرَةِ.

٤ - وَالْعَبْدُ الرَّابِعُ، أَسْوَأُ الْعَبِيدِ حَالًا، وَأَعْظَمُهُمْ عَلَى نَفْسِهِ وَبَالًا، وَأَقْلَهُهُمْ مِنَ اللَّهِ نَوَالًا، عَبْدٌ يَذْنِبُ، ثُمَّ يَتَّبِعُ الذَّنْبَ مِثْلَهُ، أَوْ أَعْظَمَ مِنْهُ، وَيُقِيمُ عَلَى الْإِصْرَارِ، وَيَحْدُثُ نَفْسَهُ بِهِ مَتَى قَدَرَ عَلَيْهِ، وَلَا يَنْوِي تَوْبَةَ، وَلَا يَعْقِدُ إِسْتِقَامَةً، وَلَا يَرْجُو وَعْدًا بِحُسْنِ ظَنِّهِ، وَلَا يَخَافُ وَعِيدًا لِتَمَكُّنِ أَمْنِهِ، فَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ الْإِصْرَارِ، وَمَقَامُ بَيْنِ الْعِتْوِ وَالْإِسْتِكْبَارِ، وَفِي مِثْلِ هَذَا جَاءَ الْخَبَرُ: «هَلِكُ الْمَصْرُورُونَ قُدَمًا إِلَى النَّارِ»^(١).

وَنَفْسُ هَذَا هِيَ «الْأَمَّارَةُ»، وَرُوحُهُ أَبَدًا مِنَ الْخَيْرِ فَرَّارَةٌ، وَيُخَافُ عَلَى مِثْلِهِ سُوءُ الْخَاتِمَةِ؛ لِأَنَّهُ فِي مَقْدَمَاتِهَا وَسَالِكِ طَرِيقَتِهَا، وَلَا يَبْعُدُ مِنْهُ سُوءُ

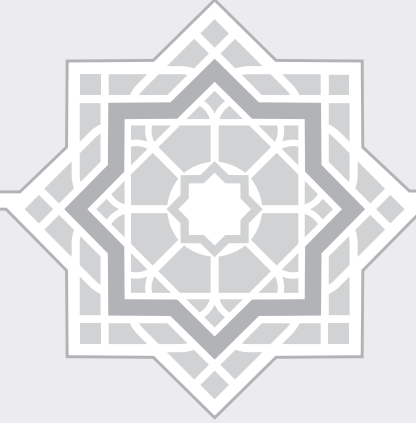
(١) رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٦٦/٦)، عَنْ قَتَادَةَ.

القضاء ودرك الشقاء، ولمثل هذا قيل: من سوف الله تعالى بالتوبة أكذبه، وإن اللعنة خروج من ذنب إلى أعظم منه.

وهذه الطائفة في عموم المسلمين، وهم في مشيئة الله من الفاسقين، كما قال تعالى: ﴿وَأَخْرُوتَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ أي مؤخرون لحكمه ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ بالإصرار: ﴿وَأِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦] بما سبق من حسن الاختيار، نعوذ بالله تعالى من عذابه، ونسأله نعيماً من ثوابه^(١). لا يبقى الحمل.

(١) قوت القلوب (١/٣٢٤، ٣٢٥).

مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرِظِي



الباب الرابع

الذنوب التي يُتاب منها وأقسامها



- ممّ نتوب؟
- الذنوب ترك مأمور وفعل محظور.
- ذنوب الجوارح وذنوب القلوب.
- الذنوب معاصٍ وبدع.
- الذنوب القاصرة والذنوب المتعدية.
- الذنوب المتعلقة بحقوق الله وحقوق العباد.
- صغائر الذنوب وكبائرها.
- حقائق حول الكبائر والصغائر.
- مكفرات الذنوب.





مَمَّ نَتُوبُ؟

أقسام الذنوب والمعاصي:

الأصل في التوبة: أنَّها لا تكون إِلَّا عن ذنب ومعصية لله جل شأنه، ومن هنا كان علينا أن نتعرَّف على حقيقة الذنوب والخطايا التي نتوب منها، والتي تُباعد بيننا وبين ربنا، وتحرمنا حبه ونصره، ودفاعه ومعيته، وتأييده لنا في الدنيا، كما تحرمنا رضوانه ومثوبته وجنته في الآخرة.

والذنوب أو الخطايا أو المعاصي التي يقع فيها المكلفون: تنقسم إلى أقسام، وتتنوع إلى أنواع كثيرة، ينبغي أن نُلقِي عليها بعض الأشعة، حتَّى تتضح حقائقها، وتتجلى الفوارق بين بعضها وبعض، لنعرف أيَّها أشد خطرًا، وأيَّها أخوف على المكلف من غيره، وإن كانت كلها خطيرة، ومُبعدة عن الله سبحانه، وحاجة عن الخير والفلاح بمقادير متفاوتة.

تنقسم المعاصي والذنوب والخطايا بحسب طبيعتها إلى ترك مأمور، وإلى فعل محذور، كما تنقسم بحسب موضعها وآليات اكتسابها إلى «معاصي جوارح» تُؤدِّي بأعضاء الجسم، وإلى «معاصي قلوب» تؤدِّي بواسطة القلب، وقد لا تظهر للحواس.

كما تنقسم إلى معاصٍ - أي: مخالفات - ظاهرة لأمر الله تعالى، وإلى بدع يتقرَّب بها فاعلها إلى الله.

وتنقسم بحسب أثرها إلى ذنوب ومعاصٍ قاصرة، لا تتعدى حدود مقترفها، وذنوب ومعاصٍ متعدية، تتجاوز صاحبها إلى التأثير في غيره. وتنقسم إلى ذنوب تتعلق بحق الخالق فقط، وذنوب تتعلق بحقوق العباد.

وما يتعلق بحقوق العباد منه ما يتعلق بحق الفرد، ومنه ما يتعلق بحق المجتمع أو الأمة.

وتنقسم بحسب زمنها ومداهما إلى ما ينتهي بمجرد الانتهاء من فعله، وإلى ما يبقى بعد ذلك مُدَّةً تقصر أو تطول.

ثم هي تنقسم بحسب درجتها إلى كبائر وصغائر. ولكل قسم من هذه الأقسام حكمه وأثره.

فلنبداً ببيان هذه الأقسام وأحكامها وآثارها، وقبل ذلك نستفتح بكلمة عن الإنسان والخطيئة في نظر الإسلام.

الإنسان والخطيئة:

يولد الإنسان في الإسلام على الفطرة، طاهرًا من كل دنس، غير ملوث بأي خطيئة من الخطايا.

ولا يوجد في الإسلام ما عرف في النصرانية من أن كل إنسان يولد وفي عنقه خطيئة أبيه آدم، حين أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها، وذلك لجملة وجوه:

أولاً: لأنَّ آدم تاب من هذه الخطيئة، وتقبل الله توبته، وغُسل منها نهائياً كما وضح ذلك القرآن: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۖ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ

عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿ طه: ١٢١، ١٢٢ ﴾، ﴿ فَلَقَى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٧].

وثانيًا: لأنَّ عدالة الله لا تحمّل أحدًا وزر غيره، ولو كان هذا الأحد أباه الذي هو من صلبه، فكيف يتحمّل الإنسان وزر خطيئة لم يشهدها ولا آباؤه وأجداده، بل مرّت عليها ألوف السنين التي لا يعلمها إلا الله، يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَأَنْزَرُ وَزَرًا أُخْرَى ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينٌ ﴾ [المدثر: ٣٨]. بل أعلن القرآن: أَنَّ هذه القاعدة مقرّرة من قبل في صحف إبراهيم وموسى، كما قال تعالى ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا نُزِرُ وَأَنْزَرُ وَزَرًا أُخْرَى ﴾ [النجم: ٣٦ - ٣٨].

إنّما الإنسان هو الذي يكتسب خطايا به بإرادته وقدرته هو، باختياره وسعيه هو، فهو وحده يتحمّل مسؤوليتها، ومن شاركه فيها بإغراء أو تحريض أو تسهيل أو معاونة بأيّ صورة من الصور، فهو يتحمّل معه بقدر إسهامه.

وثالثًا: لأنّ الواقع المشاهد أنّ الإنسان يولد على الفطرة السليمة، التي فطر الله الناس عليها، وهي فطرة قابلة للخير قبولها للشر، مستعدة للتقوى استعدادها للفجور، وإنّما تؤثر فيه البيئة والتربية، وإن كان ذلك لا يعفيه من المسؤولية في وجوب تزكية نفسه، وإبعادها عن التدسية والتدنيس، كما قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧ - ١٠]، وقال عزّ وجلّ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة»^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجناز (١٣٥٨)، ومسلم في القدر (٢٦٥٨)، عن أبي هريرة.

ورابعاً: لأنَّ الخطيئة لا تعتبر خطيئة في نظر الإسلام إلا إذا توافر فيها عنصر القصد والاختيار، لهذا رفع الإثم عن الناسي والمخطئ والمكره، كما جاء في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ»^(١).

وفي القرآن أَنَّ اللَّهَ عَلَّمَ الْمُسْلِمِينَ الدُّعَاءَ فِي خَاتَمَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فكان منه: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وجاء في «الصحيح»، عن ابن عباس، أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: «قَدْ أُجِبْتُ»^(٢). وفي القرآن أَيْضًا: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

وفيه فيمن قال كلمة الكفر بلسانه تحت وطأة التعذيب: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

بل في القرآن أَنَّ مَنْ ارْتَكَبَ فِعْلًا بِإِرَادَتِهِ تَحْتَ ضَغْطِ الزُّرُورَةِ الْقَاهِرَةِ، مِثْلَ ضُرُورَةِ الْجُوعِ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ رَفَعَ عَنْهُ الْإِثْمَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأَنْعَامُ: ١٤٥]، ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].

فكيف يحمل الإنسان خطيئة لم يرتكبها، ولم يشهدها، ولم ينوها، وليس له بها أدنى علاقة؟!

(١) رواه ابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٥)، وابن حبان (٧٢١٩)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري. والطبراني في الأوسط (٢١٣٧)، والحاكم في الطلاق (١٩٨/٢)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٦٤)، عن ابن عباس. (٢) رواه مسلم في الإيمان (١٢٦)، والترمذي (٢٩٩٢)، وفيه: «قد فعلت» بدل «قد أُجِبْتُ».

الذنوب ترك مأمور وفعل محظور

تنقسم الذنوب أول ما تنقسم إلى قسمين: ترك المأمور، وفعل المحظور.

وكثير من الناس يحسبون أنَّ الذنوب إنما هي فعل المحظورات والمحرمات فقط، ناسين أنَّ أول معصية عصي الله بها لم تكن فعل محظور، بل ترك مأمور، وهي معصية إبليس، فقد أمره الله سبحانه بالسجود لآدم الذي خلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه، فخالف أمر الله تباركت أسماؤه وجل ثناؤه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

وكانت المعصية الثانية فعل محظور نهى الله عنه، وهي معصية آدم، فقد نهاه الله وزوجه عن الأكل من الشجرة، بعد أن أسكنهما الجنة، وقال لهما: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

ولكنَّ آدم عليه السلام غلب عليه ضعف البشر، فنسي، ووهن عزمه أمام إغراء إبليس وقسمه له: إني لك لمن الناصحين. مستعيناً في إغوائه بغرائز الإنسان في تزيين المعصية له، إذ قال له: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

واستجاب آدم لوسوسة الشيطان، وأكل وأكلت معه زوجته من الشجرة المنهي عنها، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ * فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٦، ٣٧].

وهكذا نرى الذنوب والخطايا تتنوع إلى ترك ما أمر الله به، أو فعل ما نهى الله عنه.

وما أمر الله بفعله درجات بعضها فوق بعض.

فأعظم ما أمر الله به: التوحيد والإيمان، وتركه هو الشرك والكفر الأكبر. ويأتي بعده الفرائض الركنية، التي هي أركان الإسلام، ومبانيه العظام، من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، فترك أي واحدة من هذه الفرائض العظيمة، والشعائر المقدسة، من أعظم الذنوب، وأكبر الآثام عند الله.

وهي فيما بينها متفاوتة، فأعظمها: الصلاة، فهي عماد الدين، وعلامة المؤمنين، والفيصل الفارق بين المسلم والكافر، وقد جعل الله تركها من سمات الكافرين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ازْكُوعُوا لَا يَرْكُوعُوا﴾ [المرسلات: ٤٨].

كما جعل أداؤها بكسل وتثاقل من صفات المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالً﴾ [النساء: ١٤٢].

وجعل سبحانه الويل لمن سها عنها حتى أخرها عن وقتها: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥]، حتى ذهب من ذهب من أئمة المسلمين إلى أن تارك الصلاة كافر، مارق من الملة، خارج على الأمة.

وبعد الصلاة: فريضة الزكاة التي قرنها الله بها في القرآن في ثمانية وعشرين موضعًا، وفي السنة في عشرات الأحاديث، حتى قال أبو بكر: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة»^(١).

وقال قتادة: الزكاة قنطرة الإسلام، من عبر عليها نجا، ومن تخلف عنها هلك^(٢).

ثم يجيء بعد الزكاة: صوم رمضان، الذي كتبه الله على المؤمنين، فيدع المسلم طعامه وشرابه وشهوته من أجل الله، إيمانًا واحتسابًا، هذا الشهر من كل عام: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وختام هذه الفرائض الشعائرية هو: الحج إلى بيت الله الحرام، وهو فرض في العمر مرة واحدة، تيسيرًا من الله على عباده، وهو فرض على من استطاع إليه سبيلاً، وملك نفقة السفر ونفقة الإقامة أقصر مدة ممكنة للحج، وهو خمسة أيام: من يوم الثامن من ذي الحجة إلى يوم الثاني عشر منه، وما يلزم لذلك من أيام قبله وبعده، إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ومن ترك فريضة من الفرائض منكرًا لفرضيتها، أو مستخفًا ومستهزئًا بها، فقد ارتدَّ عن الإسلام؛ لأنَّه أنكر أمرًا بيَّنًا معلومًا من الدين بالضرورة، ولا يكون ذلك إلا بتكذيب الله ورسوله، والكفر بهما.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٤)، ومسلم في الإيمان (٢٠)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (٣٨٠/٢٠).

ومن ترك واحدة منها، اتباعاً لهوى، أو حباً للدنيا، أو كسلاً، أو شحاً، أو تهاوناً، أو نحو ذلك، فقد فسق عن أمر الله، واقترب إثماً عظيماً. أمّا من تركهن جميعاً، فماذا بقي له من الإسلام إلا اسمه؟! ويخشى أن يُفضي به ذلك إلى الكفر البواح، والعياذ بالله، فإنّ المعاصي يريد الكفر، ولا سيما هذه المعاصي الكبار.

وبعد ذلك تأتي الفرائض الأخرى: مثل بر الوالدين، الذي جعله القرآن بعد عبادة الله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

ومثل صلة الأرحام، التي قال الله فيها: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، وقوله: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ٢١٥]، وقوله: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

ومثل الإحسان إلى اليتامى والمساكين والجيران وغيرهم من أصحاب الحقوق، كما في آية «الحقوق العشرة» كما سماها العلماء، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

إلى غير ذلك من المأمورات، التي تتعلق بحق الله، وحق النفس، وحق الأسرة، وحق المجتمع، وحق الإنسان، وحق الحيوان، وحق الكون.

ومن المقرّر هنا: أنّ المأمورات المتعلقة بفرض العين - وهو ما يجب عيناً على كل إنسان، أو على إنسان بعينه - مقدّمة على فرض الكفاية، وهو الذي يجب على مجموع الأمة بالتكافل، مثل تفوقها العلمي، أو التكنولوجي، أو العسكري، فإذا فرّطت الأمة في هذه الفرائض الكفائية كان الإثم عليها جميعاً، كل بمقدار مسؤوليته وثقافته ومُكنته.

ومن الذنوب التركية: ذنوب في غاية العظم، ونهاية الخطر، لا يتنبه إليها الكثيرون من الناس، وهي التي تتعلق بترك فروض الكفاية الواجبة على مجموع الأمة، وبتضييعها تضيع الأمة، ويأثم أبناؤها جميعاً، كلٌّ على قدر علمه وقدرته ومكانته في الناس.

وذلك مثل ترك تحكيم شريعة الله في حياة الناس، وعدم الحكم بما أنزل الله، وظلم الفقراء والمستضعفين من العمال والفلاحين، ومثل ترك فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا سيما المنكرات الكبرى، مثل: إباحة المسكرات، وإباحة الربا والزنى، وإشاعة الخلاعة والتكشف، وظهور الكاسيات العاريات المميلات المائلات.

ومثل: ترك الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالة الإسلام إلى العالم - كما نرى اليوم - خلال الأمم التي لا تعرف عن الإسلام شيئاً، أو تعرف صورة مشوّهة منقّرة عنه، والمسلمون عامة والعرب خاصة مسؤولون عن توصيل الدعوة سليمة مشوّقة إلى هؤلاء.

ومثل: ترك إقامة العدل بين الناس، وإيتاء كل ذي حق حقه، وإقامة الموازين القسط بين الحاكم والمحكوم، ورعاية حقوق الإنسان، وتمكين كل إنسان أن يقول رأيه بصراحة، ويدلي بصوته بنزاهة، ويرشح نفسه إن أراد، ويعارض ما يراه خطأً إن شاء.

ومثل ترك أعداء الأمة يأكلون حقوقها، ويحتلون أرضها، ويتحكمون في رقاب أهلها، وترك الدفاع عن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون: ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، واجعل لنا من لدنك وليًا، واجعل لنا من لدنك نصيرًا.

ومثل ترك الأمة ممزقة، لا تجمعها راية، ولا تضمها رابطة قوية، مع إيجاب الإسلام، أن تكون مرجعيتها واحدة، ودارها واحدة، وقيادتها واحدة.

هذه آثام وذنوب يغفل آحاد الناس عنها؛ لأنها لا تخصهم شخصيًا، ولكنهم مسؤولون عنها بصفاتهم أعضاء في جسم الأمة.

وفي مقابل ترك هذه الأمور: يوجد فعل المحظورات، وهي المحرمات التي حرّمها الله تعالى: من المأكولات والمشروبات والملبوسات والأدوات والمعاملات والتصرفات.

وقد أسرف أهل الجاهلية في التحليل والتحريم، فحرّموا ما أحلّ الله، وأحلّوا ما حرّم الله، كما قال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ ءَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَدَّبَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ السِّنُّكُمْ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦].

ولقد بيّن القرآن أن من أوصاف رسول الله ﷺ المعروفة عند أهل

الكتاب (التوراة والإنجيل) أنه: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فالتحريم في الإسلام يتبع الخبث والضرر، وليس كما كان في اليهودية، حيث حرّم الله عليهم بعض الطيبات، عقوبة من الله لهم على بغيتهم وتجاوزاتهم، كما قال تعالى: ﴿فَيُظْلَمُ مَنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّوْا وَقَدْ نُهِوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

ومن المقرّر عند المسلمين: أنّ الأصل في الأشياء ولا سيما المنافع، والتصرفات ولا سيما الدنيوية والعادية منها: الإذن والإباحة، فلا يسأل المسلم: لماذا أبيع هذا؟ لأنّه هو الأصل، وما جاء على الأصل لا يسأل عن علّته، إنّما يسأل: لماذا حرم هذا؟

وقد بيّن الإسلام الحلال من الحرام، كما جاء في الحديث المتفق عليه: «الحلال بيّن، والحرام بيّن، وبينهما كثير من المشبهات، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه»^(١).

وقد كتبنا كتابنا «الحلال والحرام في الإسلام»، لنبيّن للناس ما حرم على المسلم في حياته الفردية الخاصة، وحياته الأسرية، وحياته الاجتماعية، حتّى لا يسقط المسلم في هُوّة المحرّمات من حيث لا يدري.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، عن النعمان بن بشير.

غير مرخصة للطباعة

ذنوب الجوارح وذنوب القلوب

كثير من الناس لا يكادون يعرفون من المعاصي والذنوب إلا ما يدركه الحس، وما يتعلق بالجوارح الظاهرة، من معاصي الأيدي والأرجل، والأعين والأذان، والألسنة والأنوف.. ونحوها ممّا يتصل بشهوتي البطن والفرج، والغرائز الدنيا للإنسان.

ولا يكاد يخطر ببال هؤلاء: الذنوب والمعاصي الأخرى التي تتعلق بالقلوب والأفئدة، والتي لا تدخل فيما تراه الأبصار، أو تسمعه الأذان، أو تلمسه الأيدي، أو تشمه الأنوف، أو تذوقه الألسنة.

في القسم الأول تقع معاصي العين من النظر إلى ما حرّم الله، من العورات، ومن النساء غير المحارم.

ومعاصي الأذن من الاستماع إلى ما حرّم الله من آفات اللسان، فالمستمع شريك المتكلّم.

ومعاصي اللسان من الكلام بما حرّم الله من الآفات التي بلغ بها الإمام الغزالي عشرين آفة: من الكذب، والغيبة، والنميمة، والسخرية، واليمين الفاجرة، والوعد الكاذب، والخوض في الباطل، والكلام فيما لا يعني، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، وشهادة الزور، والنياحة، واللعن والسب، إلخ.

ومعاصي اليد من البطش والضرب بغير حق، والقتل، ومصافحة أعداء الله، وكتابة ما لا يجوز كتابته ممّا يروّج الباطل أو يشيع الفاحشة وينشر الفساد.

ومعاصي الرّجل، من المشي إلى معصية الله، وإلى زيارة ظالم أو فاجر، ومن السفر في إثم وعدوان.

ومعاصي الفرج، من الزنى، وعمل قوم لوط، وإتيان امرأته في دبرها، أو في المحيض، وهو أذى كما قال الله.

ومعاصي البطن، من الأكل والشرب ممّا حرّم الله، مثل أكل الخنزير، وشرب الخمر، وتعاطي المخدّرات، وتناول التبغ «التدخين»، وأكل المال الحرام من الربا، أو الميسر، أو بيع المحرّمات، أو الاحتكار، أو قبول الرشوة، أو غيرها من وسائل أكل مال الناس بالباطل.

وهذه الأعمال كلها محرّمات ومعاصٍ معلومة، وبعضها يعتبر من عظام الآثام، وكبائر الذنوب، ولكنها جميعاً تدخل في المعاصي الظاهرة، أو معاصي الجوارح، أو ظاهر الإثم، والمسلم مأمور أن يجتنب ظاهر الإثم وباطنه جميعاً، كما قال تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿[الأنعام: ١٢٠].

بل إنّ المعاصي الباطنة أشدّ خطراً من المعاصي الظاهرة، وبعبارة أخرى: معاصي القلوب أشدّ خطراً من معاصي الجوارح، كما أنّ طاعات القلوب أهم وأعظم من طاعات الجوارح، حتّى إنّ أعمال الجوارح كلها لا تُقبل إلّا بعمل قلبي، وهو النية والإخلاص.

ونقصد بمعاصي القلوب ما كانت آله القلب، مثل: الكبر، العجب،

الغرور، الرياء، الشح، حب الدنيا، حب المال والجاه، الحسد، البغضاء، الغضب، ونحوها، ممّا سماه الإمام الغزالي في «إحيائه»: المهلكات، أخذًا من الحديث الشريف: «ثلاث مهلكات: شحّ مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»^(١).

وإنّما اشتد خطر هذه المعاصي والذنوب لعدة أمور:

أولها: أنّها تتعلّق بالقلب، والقلب هو حقيقة الإنسان، فليس الإنسان هو الغلاف الجسدي الطيني الذي يأكل ويشرب وينمو، بل هو الجوهرة التي تسكنه، والتي نسمّيها: القلب أو الرّوح أو الفؤاد، أو ما شئت من الأسماء. وفي هذا قال عليه السلام: «ألا إنّ في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب». متّفق عليه عن النعمان بن بشير^(٢).

وقال: «إنّ الله لا ينظر إلى أجسامكم وصوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٣).

وجعل القرآن أساس النجاة في الآخرة هو سلامة القلب، كما قال تعالى على لسان إبراهيم: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿ [الشعراء: ٨٧ - ٨٩].

(١) رواه البزار (٧٢٩٣)، والطبراني في الأوسط (٥٤٥٢)، وأبو نعيم في الحلية (١٦٠/٢)، والبيهقي في الشعب باب الخوف من الله (٧٤٥)، وقال الألباني: في صحيح الترغيب والترهيب (٤٥٣): حسن لغيره. وقال المنذري في الترغيب والترهيب، باب الترغيب في الأذان وما جاء في فضله (٦٥٤): هو مروي عن جماعة من الصحابة، وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى. عن أنس بن مالك.

(٢) سبق تخريجه ص ١٦١.

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، عن أبي هريرة.

وسلامة القلب تعني: سلامته من الشرك جليّه وخفيّه، ومن النفاق أكبره وأصغره، ومن الآفات الأخرى التي تلوّثه، من الكبر والحسد والحقد، وغيرها.

وقال ابن القيم: «سلامته من خمسة أشياء: من الشرك الذي يناقض التوحيد، ومن البدعة التي تناقض السُّنَّة، ومن الشهوة التي تخالف الأمر، ومن الغفلة التي تناقض الذِّكْر، ومن الهوى الذي يناقض التجريد والإخلاص»^(١).

ثانيها: أنَّ هذه الذنوب والآفات القلبية، هي التي تدفع إلى معاصي الجوارح، فكل هذه المعاصي الظاهرة إنّما يدفع إليها: اتباع الهوى، أو حب الدنيا، أو الحسد، أو الكبر، أو حب المال والثروة، أو حب الجاه والشهرة، أو غير ذلك.

حتى الكفر نفسه، كثيرًا ما يدفع إليه الحسد، كما حدث لليهود، فقد قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

أو يدفع إليها الكبر والعلو في الأرض، كما قال تعالى عن فرعون وملئه وموقفهم من آيات موسى ﷺ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

أو حب الدنيا وزينتها، كما رأينا ذلك في قصة هرقل ملك

(١) الداء والدواء ص ٢٨٣، تحقيق محمد أجمل الإصلاحي، نشر دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط ١، ١٤٢٩هـ.

الروم، وكيف تبين له صدق الرسول ﷺ في دعوته، وصحة نبوته، ثم لما هاج عليه القسس، غلب حب ملكه على اتباع الحق، فباء بإثمه وإثم رعيته.

وإذا نظرت إلى من يقتل نفساً بغير حق، وجدت وراءه دافعاً نفسياً أو قلبياً، من حقد أو غضب، أو حبّ لدنيا، حتّى إنّ أول جريمة قتل في تاريخ البشرية، كان سببها الحسد، وذلك في قصة ابني آدم ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، إلى أن قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠].

وكذلك كل من ارتكب معصية ظاهرة من شهادة زور، أو نسيئة، أو غيبة، أو غيرها، فلا بدّ أن وراء تلك المعاصي شهوة نفسية، وفي هذا جاء الحديث: «إياكم والشُّحَّ، فإنّما هلك من كان قبلكم بالشُّحِّ، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»^(١).

ثالثها: أنّ المعاصي الظاهرة التي سببها ضعف الإنسان وغفلته، سرعان ما يتوب منها، بخلاف المعاصي الباطنة، التي سببها فساد القلوب، وتمكّن الشرّ منها، فقلّما يتوب صاحبها منها، ويرجع عنها. وهذا هو الفارق بين معصية آدم ومعصية إبليس.

معصية آدم كانت معصية جارحة، حين أكل من الشجرة، ومعصية إبليس كانت معصية قلب، حين أبى واستكبر، وكان من الكافرين.

(١) رواه أحمد (٦٤٨٧)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. وأبو داود في الزكاة (١٦٩٨)، والنسائي في الكبرى في التفسير (١١٥١٩)، وصحّحه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٨٩)، عن عبد الله بن عمرو.

معصية آدم كانت زلة عارضة، نتيجة النسيان وضعف الإرادة، أمّا معصية إبليس فكانت غائرة متمكّنة، ساكنة في أعماقه.

لهذا ما أسرع ما أدرك آدم خطأه واعترف بذلته، وقرع باب ربه نادماً تائباً هو وزوجته، ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

أمّا إبليس، فاستمرّ في غلوائه، متمرداً على ربه، مجادلاً بالباطل، حين قال له: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكَبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٥، ٧٦].

ولهذا كانت عاقبة آدم: ﴿فَلَقَّيْءَ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وكانت عاقبة إبليس: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ ﴿وإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٧، ٧٨].

رابعاً: وهذا ثمرة للوجوه السابقة، وهو تشديد الشرع في الترهيب من معاصي القلوب، وآفات النفوس، لشدة خطرها، كما في قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر». رواه مسلم، عن ابن مسعود^(١). وقوله: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِكُمْ: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»^(٢).

(١) رواه مسلم في الإيمان (٩١)، وأحمد (٣٧٨٩).

(٢) رواه أحمد (١٤١٢)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه. والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٠)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢١٢٢)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٨٨٨): حسن لغيره. عن الزبير بن العوام.

وقوله: «لا تغضب»^(١) وكرّرها ثلاثاً، لمن قال له: أوصني.

وقوله في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري، تركته وشركه»^(٢).

وقوله: «إياكم والشح، فإنّه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلّوا محارمهم»^(٣).

* * *

(١) رواه البخاري في الأدب (٦١١٦)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٥)، عن أبي هريرة. وفي معناه عدة أحاديث، انظر: المنتقى (١٦٥١ - ١٦٥٤).

(٣) رواه أحمد (٦٨٣٧)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. والطيالسي (٢٣٨٦)، وصحّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٦٠٤)، عن عبد الله بن عمرو. ورواه مسلم في البر والصلة (٢٥٧٨) بلفظ: «اتقوا الشح، فإنّ الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلّوا محارمهم». عن جابر.

الذنوب معاصٍ وبدع

وتنقسم الذنوب فيما تنقسم إلى معاصٍ وبدع، وكل منهما ارتكاب لما يسخط الله تعالى، وشُرود عن صراطه المستقيم.

وقد جاء في الحديث الشريف الذي رواه العرباض بن سارية أنَّ النبي ﷺ قال: «إياكم ومحدثات الأمور فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالة»^(١).

وقال ﷺ: «من أحدث في أمرنا - أي في ديننا - ما ليس منه فهو رد»^(٢). أي: مردود عليه، غير مقبول منه؛ لأنَّه تقرَّب إلى الله بما لم يأمر به، وشرع في الدين ما لم يأذن به الله، فالتعبد في الإسلام يقوم على دعامتين أساسيتين:

الأولى: ألاَّ يعبد إلَّا الله.

والثانية: ألاَّ يعبد الله إلَّا بما شرعه.

والمبتدع عبَدَ الله تعالى بما لم يشرعه.

(١) رواه أحمد (١٧١٤٢)، وقال مخرَّجوه: حديث صحيح بطرقه وشواهده. وأبو داود في السنة (٤٦٠٧) والترمذي في العلم (٢٦٧٦)، وقال: حديث حسن صحيح. وابن ماجه في المقدمة (٤٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٤٠). وهو الحديث الثامن والعشرون من أحاديث الأربعين النووية.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الصلح (٢٦٩٧)، ومسلم في الحدود (١٧١٨)، عن عائشة.

والتَّوْبَةُ من البدع واجبة، كالتَّوْبَةُ من جميع المعاصي.

وقد قال السلف: إِنَّ البدعة أَحَبُّ إلى إبليس من المعصية؛ لأنَّ مرتكب المعصية يشعر أَنَّهُ اقترف ذنبًا ومخالفة لأمر الله، بخلاف فاعل البدعة^(١).

بل الحقيقة أَنَّ البدع نوع من المعاصي، ولكنها معاصٍ لها صفة خاصة، فإنَّ مرتكبيها يتقَرَّبون إلى الله بفعلها، ويعتقدون في أنفسهم أَنَّهُم بهذه البدع أقرب إلى الله تعالى ممَّن ينكرونها عليهم.

وهذا هو خطر البدعة حقًّا؛ فإنَّ صاحبها ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

ولهذا كانت خشية السلف من البدعة أكبر من خشيتهم من المعصية، وكان تحذيرهم من البدعة أشد؛ لأنَّ صاحب المعصية سرعان ما يتوب من معصيته، فهو يعلم أَنَّها معصية، وهي تؤرِّقه وتعذب ضميره، ويظل هذا الألم النفسي، وهذا التعذيب الوجداني يصاحبه، حتَّى يتحول إلى ثورة على حياته، وهذه الثورة هي التَّوْبَةُ.

أمَّا صاحب البدعة، فهو مستريح إلى سلوكه، راضٍ عن نفسه، لا يشعر بألم الذنب؛ لأنَّه في نظر نفسه غير مذنب، ولا مخالف، بل هو متعبَّد، وربما مبالغ في العبادة، بل ربما كانت عبادته الظاهرة أكثر

(١) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٢٣٨)، من قول سفيان الثوري. تحقيق أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، نشر دار طيبة، السعودية، ط ٨، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

وأعظم من عبادات الكثيرين من المتديّنين، كما جاء في الحديث عن الخوارج: «يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وقيامه إلى قيامهم، وقراءته إلى قراءتهم»^(١).

والبدعة - كما هو معلوم - بدعتان، أو نوعان:

بدعة قولية أو اعتقادية، أو بتعبير عصرنا: فكرية، تمثل انحرافاً في الاعتقاد أو في الفكر عن المنهج السوي الذي جاء به القرآن والسُّنة، واستقر عليه سلف الأمة، وخير قرونها، وهي شرُّ النّوعين وأخطرهما.

وذلك مثل بدع الفرق الإسلامية المنحرفة عن السُّنة والجماعة، مثل «الخوارج والشيعة» - وخصوصاً الغلاة منهم - «والجبرية والقدرية والمرجئة»، وغيرهم، على تفاوت بينهم في مدى القرب أو البعد من حقيقة الإسلام، ونهجه القويم في العقيدة والسلوك، ومثل الدعوة إلى «العلمانية» في عصرنا، والقول بأن لا سياسة في الدين، ولا دين في السياسة، والدعوة إلى إلغاء الطلاق، وتعدد الزوجات، أو إلى التسوية بين الابن والبنت في الميراث.

وبعض هذه البدع قد يغلظ ويكبر، حتّى ينتهي إلى درجة الكفر، والعياذ بالله، كالقول بأنّ البعث في الآخرة روحاني لا جسماني، وأنّه لا توجد جنّة حسيّة، ولا نار حسيّة، ولا نعيم مادي، ولا عذاب مادي. أو القول بأنّ الله لا يعلم جزئيات ما يجري في الكون. أو القول بحلول الله في بعض خلقه، أو بعدم الثنائية في الوجود، بمعنى أنّه لا يوجد خالق ومخلوق، ورب ومربوب، وعابد ومعبود، إنّما هو وجود واحد، وهو

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٤)، ومسلم في الزكاة (١٠٦٤)، عن أبي سعيد الخدري.

ظاهر ما ذهب إليه الحلاج في نظرية الحلول، وابن عربي في نظرية وحدة الوجود. وكقول بعض الناس في عصرنا: إِنَّ القرآن بمجرد نزوله انتقل من الإلهية إلى البشرية، وأصبح نصًّا بشريًّا! وقول بعضهم بالتسوية بين الأولاد في الميراث لا فرق بين ذكر وأنثى.

والنوع الثاني هو: البدعة العملية، كأن ي اخترع عبادة من عنده لم يشرعها الله ولا رسوله، أو يضيف إلى العبادة المشروعة ما ليس منها، مثل «صلاة الرغائب» التي ابتدعها بعض الناس في أول كل شهر رجب. ومثل الصيام عن الكلام تعبُّدًا، أو الصيام عن أكل اللحوم، أو كل ما كان من ذي روح تعبُّدًا وتقربًا إلى الله، مثل أكل البيض وشرب اللبن، وتناول منتجات الألبان.

ومثل الصيام أو الإمساك عن الطعام والشراب قبل الفجر بثلاث ساعة، أو عشر دقائق، أو نحو ذلك احتياطًا، أو الإمساك عن المبادرة إلى الإفطار بعد المغرب مبالغة في الاحتياط.

والبدعة العملية قسمان أيضًا: إيجابية وسلبية، وبعبارة أخرى: فعلية وتركية، والفعلية هي التي تتناول عملاً بالفعل، مثل الصلاة أو الصيام أو الذكر، أو غير ذلك ممَّا يُتقَرَّب به إلى الله، وهو غير مشروع، ويدخل فيما شرع من الدين ممَّا لم يأذن به الله سبحانه.

والتَّركِيَّة: ما كانت تركًا لعمل مشروع، واجب أو مستحب أو مباح، وذلك مثل ترك الزواج، أو ترك النوم بالليل، أو ترك الإفطار في بعض الأيام. مثل الثلاثة الذين أنكر عليهم النبي ﷺ الذين قال أحدهم: أنا أقوم الليل فلا أنام. وقال الثاني: أنا أصوم الدهر فلا أفطر. وقال الثالث: أنا



أَعْتَزَلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ. فَبَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ مَقَالَتَهُمْ، فَخَطَبَهُمْ قَائِلًا: «إِنَّمَا أَنَا أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتَقَاكُمْ لَهُ، وَلَكِنِّي أَقُومُ وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأَتَزَوِّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي». مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ عَنْ أَنَسٍ^(١).

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١) كلاهما في النكاح.

الذنوب القاصرة والذنوب المتعدية

كما أنَّ من الطاعات والحسنات ما هو قاصر، لا يؤثر إلَّا في صاحبه؛ مثل الصلاة والصيام، والحج والعمرة، والذكر وتلاوة القرآن، ومنها ما يتعدى نفعه إلى الغير، مثل الزكاة والصدقات، وبر الوالدين وصلة الرحم، والإحسان إلى الجار والمسكين وابن السبيل.

فكذلك الذنوب والمعاصي والسيئات، منها ما هو قاصر لا يؤثر إلَّا في صاحبه، ولا يتعدى تأثيره إلى غيره.

ومنها ما هو متعدّي التأثير بصورة أو بأخرى، إلى مدى يقرب أو يبعد.

والذنوب المتعدية التأثير، قد يكون تعديها أفقيًّا، وقد يكون رأسيًّا، وبعبارة أخرى: قد يكون التعدي في سعة المكان، وقد يكون في امتداد الزمان.

الذنوب الممتدة في المكان:

روى البخاري في حديث سمرة بن جندب الطويل، الذي رأى فيه النبي ﷺ عقوبات أرباب الذنوب في الآخرة، وكيف يعذبون عليها، وقصّ في الصباح على أصحابه هذه الرؤيا، ورؤيا الأنبياء حق ووحى

كما هو معلوم، وممّا جاء في هذا الحديث: أنّ الملكين اللذين ابتعثاه قالَا له: «انطلق، انطلق». قال: «فأتينا على رجل مستلقٍ على قفاه، وإذا آخر قائم عليه بكُبوب من حديد، وإذا هو يأتي أحد شقّي وجهه، فيشرشر شذقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، ثم يتحول إلى الجانب الآخر، فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول». قال: «فما يفرغ من ذلك الجانب، حتّى يصحّ ذلك الجانب، كما كان، ثم يعود عليه، فيفعل مثل ما فعل في المرة الأولى».

ثم بعد أن رأى ما رأى سأل الرسول الملكين أن يفسّرا له ما رآه، فكان ممّا قالَا له: «وأما الرجل الذي أتيت عليه يُشرشر شذقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه، فإنّه الرجل يغدو من بيته، فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق»^(١).

فهذا الكذاب يعذب هذا العذاب الشنيع الأليم؛ لأنّ كذبه لا تقف عند شخص أو شخصين، بل إنّها لتتسع وتنتشر حتّى تبلغ الآفاق، مشرقة ومغرّبة.

وأبرز من ينطبق عليه هذا في عصرنا: الصحفيون الذين ينشرون الأكاذيب، فتطير في العالم كله، وتنقلها وكالات الأنباء، فإذا هي تملأ الدنيا.

وكذلك نجد معظم ذنوب أهل القلم، وأهل الفن، وأهل الإعلام، في عصرنا من هذا النوع المتعدّي، الذي يمتد ويتسع أفقيًا، بما يملكه عصرنا من وسائل وأدوات قادرة على توسيع نطاق التأثير، وتبليغه إلى آفاق العالم.

(١) جزء من حديث طويل رواه البخاري في التعبير (٧٠٤٧)، عن سمرة بن جندب.

ومن الذنوب المتعدّية: ذنوب الأمراء والولاة والحكام، الذين يظلمون العباد، ويطغون في البلاد، فيكثرون فيها الفساد، وبخاصّة حكام زمننا الذين وفّرت لهم علوم العصر وتكنولوجياه: القدرة الهائلة على التأثير في الشعوب، وتكوين أفكارها وأذواقها وميولها، عن طريق مؤسسات التعليم والثقافة والإعلام.

وإذا كان قد روي في الحديث «أنّ يوماً من والٍ أو إمام عادل: أفضل من عبادة ستين سنة»^(١). وذلك لما قد يزيل فيه من مظالم، وما يقيم فيه من حدود، وما يرد فيه من حقوق، وما يقرّر فيه من أحكام عادلة، ومبادئ سامية، وقواعد لحماية الأنفس والأعراض والأموال، وقواعد لرعاية العقائد والأخلاق والآداب، وحماية المجتمع من الرذائل والمفاسد والشرور... فلا غرو أن يكون اليوم الواحد من هذا الحاكم العادل يوازي، بل يفضل عبادة ستين سنة من غيره.

إذا كان هذا في الوالي العادل لمقابله: أنّ يوماً من والٍ أو حاكم ظالم أسوأ من ذنوب ستين سنة من غيره، وذلك لما قد يصدر في هذا اليوم الواحد من قرارات جائرة، وما يقرره من قواعد ومناهج وأوامر مضرّة بالعقائد، أو مدمرة للأخلاق، أو مجرّئة على معاصي الله، ناشرة للرذائل، أو مشيعة للشبهات والأفكار المضلّة، أو مروّجة للأباطيل المستوردة من خارج الأمة، إلى غير ذلك ممّا يتصوّر ظهوره وحدوثه على أيدي حكام اليوم، ولا سيما في البلدان التي للحكّام فيها سلطة شبه مطلقة.

(١) رواه الطبراني (٣٣٧/١١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٣٧٩)، وحسن إسناده العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ص ٢٠٥، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٩٨٩)، عن ابن عباس.

إِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَحْمِلُونَ وَزَرَ أَنْفُسِهِمْ فَقَطْ، بَلْ يَحْمِلُونَ وَزَرَ شُعُوبِهِمْ الَّذِينَ أَضَلُّوهُمْ عَنِ الْحَقِّ، وَزَيَّنُوا لَهُمُ الْبَاطِلَ، حَتَّى اتَّبَعُوهُمْ فِي ضَلَالِهِمُ الْفِكْرِيِّ، وَغَيَّيْهِمُ السَّلُوكِيَّ، وَقَدْ قِيلَ قَدِيمًا: النَّاسُ عَلَى دِينِ مُلُوكِهِمْ! وَلَمْ يَكُنْ لِمُلُوكِ الْأُمَمِ مِنَ التَّأْثِيرِ الْمُبَاشَرِ وَغَيْرِ الْمُبَاشَرِ: مَا لِحُكَّامِ الْيَوْمِ.

ولهذا أُرْسِلَ النَّبِيُّ ﷺ رَسَائِلُهُ إِلَى مُلُوكِ عَصْرِهِ وَأَمْرَائِهِ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَحَمَّلَهُمْ - إِذَا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ - إِثْمَهُمْ وَإِثْمَ رِعْيَتِهِمْ مَعَهُمْ، فَهُوَ قَدْ حَمَّلَ كَسْرَى إِثْمِ الْفَرَسِ^(١)، وَحَمَلَ قَيْصَرَ إِثْمَ الْيَرِيسِيِّينَ^(٢)، أَيْ: الْفَلَاحِينَ وَالْجَمَاهِيرَ الْغَافِلَةَ مِنَ الرُّومِ، وَحَمَلَ الْمُقَوْقِسَ فِي مِصْرَ إِثْمَ الْقِبْطِ^(٣)، وَهَكَذَا.

وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ يَحْمِلُ الدَّعَاةَ إِلَى الضَّلَالِ وَالصَّادِّينَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَزَرَ مِنْ أَضَلُّوهُمْ وَصَدُّوهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٥].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [العنكبوت: ١٢، ١٣].

(١) رواه الطبري في التاريخ (٦٥٤/٢)، وحسنه الألباني في تخريج أحاديث فقه السيرة ص ٣٥٦.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٧)، ومسلم في المغازي (١٧٧٣)، عن سفيان بن حرب.

(٣) رواه الزبير بن بكار في المنتخب من كتاب أزواج النبي ﷺ ص ٥٥، تحقيق سكيئة الشهابي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ.

ووزر كل زعيم أو حاكم من هؤلاء الذين زينوا لشعوبهم الباطل، وأضلُّوهم عن الحق، وصدُّوهم عن السبيل، يتفاوت بتفاوت عدد من أضلهم، ومدى هذا الضلال، ومدى تأثيره فيه، فوال في محافظة، أو أمير في بلد صغير، ليس كرئيس في بلد مقداره سبعون مليوناً، أو مائة مليون، أو مائتا مليون، أو ألف مليون، وحاكم متسلط على شعبه، يقودهم بعصاه، أو بسيفه، ليس كحاكم يشاركه الناس في السلطة، ولهذا كان فرعون المتأله في الأرض أشدَّ عذاباً من غيره، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

وما ذلك إلا لدوره الأكبر في الإضلال والإفساد والطغيان، قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٩]، ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ، فَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

وكذا قال تعالى عن فرعون وهامان: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

وما يقال عن زعماء السياسة، يقال عن زعماء الفكر، من دعاة الضلالة وأئمة الكفر، ورؤوس الفتنة، الذين يسوقون الإلحاد، ويشيعون الانحلال، وينشرون الفساد: بالسنتهم وأقلامهم، وأدواتهم وألحانهم، وإمكاناتهم العلمية والفنية، ويجنِّدون مواهبهم فيما يبغض الله، وما يهدي إلى النار ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ ثاني عَظْفِهِ، لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ٨ - ١٠].

وإمام هؤلاء، وزعيمهم الأول، وقائدهم الأكبر: إبليس لعنه الله، فهو

الذي قال لربه: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]، ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا تُخَذَنَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَا ضَلَّيْنَهُمْ وَلَا مَنِيْنَهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيُبَيِّتْ كُنَّ عَازَاتٍ الْأَنْعَمِ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٨، ١١٩] وهؤلاء هم جنود إبليس وتلامذته في التزيين والإغواء والإضلال.

الذنوب الممتدة في الزمان:

وكما تمتد الذنوب والخطايا أفقيًا ومكانيًا، فإنها تمتد وتتسع رأسيًا وزمانيًا، فمن الخطايا والمعاصي ما لا ينتهي بارتكابه، بل يستمر ويبقى زمنًا يقصر أو يطول، وقد يعمر قرونًا، وقد يستمر إلى يوم القيامة.

ومن هنا نُقِلَ عن السلف عليهم السلام: طوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه، وويل لمن إذا مات ظلت ذنوبه من بعده^(١)!

فكما أنَّ من النَّاس من يموت وتبقى حسناته من بعده، تضيف عمرًا - بل أعمارًا - إلى عمره: من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، أو سُنَّة حسنة سنَّها، فعمل النَّاس بها من بعده، فله أجرها وأجر كلِّ من عمل بها، لا ينقص من أجورهم شيئًا.

كذلك في الجانب الآخر، نجد من سنَّ سُنَّة سيئة، فإنَّ عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، لا ينقص من أوزارهم شيئًا.

فالأول إمام في الخير والهدى، وهذا إمام في الشرِّ والضلالة، كالذين قال الله فيهم: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْدُخُونَ إِلَى الْنَّكَارِ﴾ [القصص: ٤١] في

(١) انظر: الإحياء (٧٤/٢).

مقابل من قال فيهم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [السجدة: ٢٤].

ولهذا قال ﷺ: «ما من نفس تُقتل، إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها؛ لأنه أول من سنَّ القتل»^(١). فهذا ابن آدم الشرير الذي قتل أخاه في فجر تاريخ البشرية: قد سنَّ سُنَّةَ القتل لمن بعده، وأيًا كان صغر هذا الكفل من كل جريمة قتل، فإنه يحمل جزءًا من ملايين الجرائم وضحايا الحروب ونحوها.

وكل من نشر ضلالة في الناس، أفسدت فكرهم، أو أوهنت إيمانهم، أو أَلقت في عقولهم شبهات، سواء بالكلمة المسموعة في شريط، أو المكتوبة في صحيفة أو في كتاب، أو نقلها الناس عنه بعضهم عن بعض، فهو محاسب على هذه الضلالة، وإن مات من سنين أو عقود أو قرون.

ومثله كل من رَوَّج بدعة قولية أو عملية، فإنَّ كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وكذلك كل من رَوَّج فسادًا خُلقيًّا، يجرئ الناس على الفسوق، ويغريهم بالانحراف والإثم، عن طريق قصة ماجنة، أو مسرحية فاجرة، أو رقصة داعرة، أو أغنية هابطة، أو مقالة ساقطة، أو صورة فاضحة، أو بذاءة واضحة، أو نحو ذلك ممَّا يقع فيه كثير من العابثين والممثلين والمطربين والملحنين والمصوِّرين، من الرجال والنساء على السواء، من أهل القلم، أو أهل الفن والإعلام.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٢١)، ومسلم في القسامة (١٦٧٧)،

عن عبد الله بن مسعود.



إِنَّ الذي أَفْسَدَ الحياةَ، وِعَمَّى الحقائقَ على البشرِ، هم شياطين الإنسِ، الذين أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا، فسُنُّوا للناس سننًا، ووضعوا لهم تقاليدَ، وهَيَّؤوا لهم مناهجَ، وابتدعوا لهم مؤسساتَ، لإغرائهم بالضلالِ، وثَنَّى أَعْتَتَهُم عن الهدى، وإقناعهم بالباطلِ، وتعويقهم عن طريق الحقِّ، وتزيين الفجور لهم، وتثبيطهم عن سبيل التقوى.

وفي هذا صَحَّتْ الأحاديث النبوية: «من سَنَّ سُنَّةً حسنةً، فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سَنَّ سُنَّةً سيئةً، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»^(١).

«من دعا إلى هدى، كان له أجره وأجر من اتَّبَعَهُ إلى يوم القيامة، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه وزرها ووزر من تبعه إلى يوم القيامة»^(٢).

* * *

(١) رواه مسلم في العلم (١٠١٧)، وأحمد (١٩١٥٦)، عن جرير بن عبد الله.

(٢) رواه مسلم في العلم (٢٦٧٤)، وأحمد (٩١٦٠)، عن أبي هريرة.

الذنوب المتعلقة بحقوق الله والمتعلقة بحقوق العباد

وتنقسم الذنوب فيما تنقسم إلى ما يتعلق بحقوق الله وَعَلَى، وما يتعلق بحقوق العباد.

ومن الكلمات المشهورة في محيط العلماء، قولهم: حقوق الله مبنية على المسامحة، وحقوق العباد مبنية على المشاحة.

ذلك أَنَّ الله تعالى جواد كريم، عفو غفور، غني عن العالمين، بل هو أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين، فلا عجب أن يسامح في حقّه، ويعفو عمَّن فرَّط في جنبه، بأدنى رجعة إليه، أو بمجرّد ابتهال وتضرع لجنبه، أو بغير شيء أصلاً إن شاء.

أمّا الإنسان، فهو شحيح قتور بطبعه، كما قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، وقال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، وخصوصاً في يوم القيامة، فهو يوم الأنانية المطلقة، لا يفكر كل إنسان فيه إلا في نفسه، ونجاة نفسه، وقد يحتاج إلى حسنة واحدة يرجح بها ميزان حسناته، فيستحق بها دخول الجنة، وقد يثقل ميزان سيئاته بسيئة واحدة، فيدخل بها النار.

لهذا يقول كلُّ امرئ في هذا اليوم: نفسي نفسي: ﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ

وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴿ [لقمان: ٣٣] ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ *
وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَحْبِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ * ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

فما كان من الذنوب والمعاصي من حقوق الله تعالى، مثل ترك بعض المأمورات الشخصية، أو ارتكاب بعض المنهيات، مثل شرب الخمر، وسماع الملاهي، وإيذاء الحيوان، وإيذاء الإنسان نفسه، وتبذيره ماله، وارتكاب بعض المنهيات الشخصية، مثل الوشم، ووصل الشعر، ونمص الجفون، ووشر الأسنان، وعمل جراحات التجميل، التي لا ضرورة لها، وتشبه الرجال بالنساء، وتشبه النساء بالرجال، ونحوها... فالتوبة منها تتحقق بالندم والإقلاع والعزم.

أما ما كان من حقوق العباد، ولا سيما الحقوق المالية، فلا يكفي فيه الندم، والعزم والإقلاع، بل لا بدّ من ردّها إلى أصحابها، أو استحلّالهم، أي: طلب عفوهم وتنازلهم عن حقّهم لله تعالى، وإلاّ ظلت هذه الحقوق ديوناً لأربابها في أعناق المدينين، حتّى يتقاضوها يوم القيامة من حسنات خصومهم، حتّى يستوفوا ما لهم، فإنّ لم تفِ الحسنات، طرحوا من سيئاتهم على ظالمهم، حتّى يأخذوا حقهم.

وهذا هو «المفلس» الذي عرّفه لنا الحديث الصحيح حين قال: «أتدرون ما المفلس؟». قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إنّ المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فئت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم، فطرحته عليه، ثم طرح في النار»^(١).

(١) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨١)، وأحمد (٨٠٢٩)، عن أبي هريرة.

فقد كان هذا بما له من طاعات وحسنات في عداد الأغنياء وأصحاب الرصيد، ولكن رصيده من الصّالحات قد ضاع كلّهُ في قضاء حقوق النَّاس في يوم لا يسامح فيه أحدٌ أحدًا، ولا يتقاضى النَّاس حقوقهم إلَّا بعملة واحدة، هي الحسنات والسيئات.

ومن أجل هذا أمر النبي ﷺ كل من ظلم النَّاس شيئًا، أو أخذ منهم حقًا من حقوقهم المادية أو الأدبية: أن يصفّي حسابه مع من ظلمه في الدنيا، قبل أن يُصفّي في الآخرة، وذلك بأن يتحلّل من صاحب الحق، أو صاحب المظلمة.

ومعنى التحلّل: طلب المسامحة والعفو منه، أو المصالحة على شيء يقبله.

وفي هذا قال ﷺ: «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو من شيء، فليتحلله منه اليوم، من قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات، أخذ من سيئات صاحبه، فحمل عليه»^(١).

شمل الحديث الحقوق الأدبية، مثل النيل من عرض الإنسان، وهو ما نعبر عنه اليوم بالكرامة والسمعة، سواء في نفسه أم في أهله ومن يعير بهم، كما شمل الحقوق المادية والمالية، ولذا قال: «أو من شيء».

ولخطورة الحقوق المالية قال ﷺ: «يُغفر للشهيد كل ذنب إلَّا الدّين»^(٢).

(١) سبق تخريجه ص ١٠٦.

(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٨٨٦)، وأحمد (٧٠٥١)، عن عبد الله بن عمرو.

فالشهادة في سبيل الله، هي أعلى ما يطلبه المسلم من ربه، ومنزلة الشهيد عند الله لا تدانيها منزلة بعد منزلة النبوة والصدّيقية، ومع هذا يغفر الله بها كل الذنوب، ما عدا «الديون»، فإن أصحابها يُطالبون بها يوم الحساب، وإن كان المأمول من سعة فضل الله تعالى أن يغطّي ثواب الشهادة ما يستحقه الدائنون.

وعن أبي قتادة أن رسول الله ﷺ قام فيهم، فذكر أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال، فقام رجل فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قُتِلت في سبيل الله تكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، إن قُتِلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر». ثم قال رسول الله: «كيف قلت؟». قال: أرأيت إن قُتِلت في سبيل الله، أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم إن قُتِلت وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر، إلّا الدين، فإن جبرائيل قال لي ذلك»^(١).

فانظر كيف استدرك أمين الوحي جبريل عليه السلام على النبي ﷺ فيه، فصَحَّ الرسول الكريم ما قاله للرجل السائل عن الشهادة، واستثنى «الدّين» ممّا تكفره من الخطايا.

وعن محمد بن عبد الله بن جحش قال: كان رسول الله ﷺ، قاعدًا حيث توضع الجنائز، فرفع رأسه قبل السماء، ثم خفض بصره، فوضع يده على جبهته، فقال: «سبحان الله! سبحان الله! ما أنزل الله من التشديد؟!». قال: فعرفنا وسكتنا، حتّى إذا كان الغد، سألت رسول الله ﷺ فقلت: ما التشديد الذي نزل؟ قال: «في الدّين، والذي نفسي بيده، لو

(١) رواه مسلم في الإمامة (١٨٨٥)، وأحمد (٢٢٥٨٥)، عن أبي قتادة الأنصاري.

قُتِلَ رجل في سبيل الله، ثم عاش، ثم قُتِلَ، ثم عاش، ثم قُتِلَ: ما دخل الجنة حتى يقضي دينه!«^(١).

فهل رأيت تشديدًا أبلغ وأعظم من هذا التشديد في أمر الدين؟ وهذا كله يدلنا بجلاء على أهمية حقوق العباد، والذنوب المتعلقة بها، ولا سيما الحقوق المالية.

يؤكد هذا ما جاء من أحاديث في شأن بعض الشهداء الذين غلّوا من الغنائم قبل قسمتها، فرآهم النبي ﷺ وقد اشتعل ما أخذوه نارًا تحرقهم؛ لأنهم أخذوا ما ليس لهم بحق من المال العام.

فعن أبي هريرة أن رجلاً قُتِلَ في غزوة خيبر، فقال الناس: هنيئًا له الجنة (أي لأنه أدرك درجة الشهادة في سبيل الله). فقال رسول الله ﷺ: «كلا، والذي نفسي بيده، إنَّ السُّمْلَةَ التي أخذها يوم خيبر من المغنم لم تُصَبَّها المقاسم، لتشتعل عليه نارًا»^(٢).

وعن ابن عباس قال: حدثني عمر، قال: لمّا كان يوم خيبر، أقبل نفر من صحابة النبي ﷺ، فقالوا: فلان شهيد، وفلان شهيد، حتى مرّوا على رجل، فقالوا: فلان شهيد. فقال رسول الله ﷺ: «كلا، إنّي رأيته في النار، في بردة غلّها أو عباءة»^(٣).

وهذا يدلنا على أنّ الحقوق العامة كالحقوق الخاصة، لا يجوز أخذها بغير حق.

(١) رواه النسائي في البيوع (٤٦٨٤)، والحاكم (٢٤/٢)، وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٨٠٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان والنذور (٦٧٠٧)، ومسلم في الإيمان (١١٥).

(٣) رواه مسلم في الإيمان (١١٤)، وأحمد (٢٠٣).

ولا ينفع أخذ المال بغير حق أن يتصدق به؛ لأنَّ صدقته غير مقبولة عند الله، فقد تصدَّق بما لا يملك، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «لا يقبل الله صدقة من غُلُول»^(١).

إنَّ الصدقة المقبولة هي التي تخرج من مال طيب، كما قال ﷺ: «إنَّ الله طيب لا يقبل إلا طيبًا»^(٢).

وقد رَوَوْا عن الإمام الفقيه الورع سفيان الثوري رضي الله عنه أنه اعتبر الكبائر: ما تعلَّق بحقوق العباد، والصغائر: ما تعلَّق بحق الله ﷻ.

نقل ذلك عنه العلامة ابن القيِّم في «المدارج» قال: «قال سفيان الثوري: الكبائر ما كان فيه من المظالم بينك وبين العباد، والصغائر: ما كان بينك وبين الله؛ لأنَّ الله كريم يعفو.

واحتج بحديث يزيد بن هارون عن حميد الطويل عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ينادي منادٍ من قِبَل بُطْنان العرش»^(٣) يوم القيامة: يا أمة محمد، إنَّ الله ﷻ قد عفا عنكم جميعكم، المؤمنين والمؤمنات، فتواهبوا المظالم بينكم، وادخلوا الجنة برحمتي»^(٤).

قلت^(٥): مراد سفيان: أنَّ الذنوب التي بين العبد وبين الله أسهل أمرًا من مظالم العباد، فإنَّها تزول بالاستغفار، والعفو والشفاعة وغيرها، وأمَّا

(١) رواه مسلم في الطهارة (٢٢٤)، وأحمد (٤٧٠٠)، عن ابن عمر.

(٢) رواه مسلم في الزكاة (١٠١٥)، وأحمد (٨٣٤٨)، عن أبي هريرة.

(٣) قال ابن الأثير: أي من وسطه. وقيل: من أصله. وقيل البُطْنان جمع بطن: وهو الغامض من الأرض، يريد من دواخل العرش. النهاية (ب. ط. ن).

(٤) قال العراقي في تخريج الإحياء ص ١٠٨٠: أخرجه أبو سعيد أحمد بن إبراهيم المقرئ في التبصرة والتذكرة وإسناده ضعيف. عن أنس.

(٥) لا يزال الكلام لابن القيم.

مظالم العباد، فلا بدّ من استيفائها. وفي «المعجم» للطبراني: «الظلم عند الله يوم القيامة ثلاثة دواوين: ديوان لا يغفر الله منه شيئاً، وهو الشرك بالله - ثم قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] - وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وهو مظالم العباد بعضهم بعضاً، وديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين الله»^(١).

ومعلوم أنّ هذا الديوان مشتمل على الكبائر والصغائر، لكن مستحقّه أكرم الأكرمين، وما يعفو عنه من حقه ويهبه أضعاف أضعاف ما يستوفيه، فأمره أسهل من الديوان الذي لا يترك منه شيئاً لعدله، وإيصال كل حق إلى صاحبه»^(٢).

* * *

(١) لم أقف عليه في الطبراني، رواه أحمد (٢٦٠٣١)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. والحاكم (٥٧٥/٤)، وصحح إسناده، وقال الذهبي: فيه صدقة بن موسى ضعّفوه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٣٨٢): رواه أحمد، وفيه صدقة بن موسى، وقد ضعفه الجمهور، وقال مسلم بن إبراهيم: حدثنا صدقة بن موسى، وكان صدوقاً، وبقيّة رجاله ثقات. عن عائشة.

(٢) مدارج السالكين (٣٢٢/١).

صغائر الذنوب وكبائرها

ذهب بعض العلماء إلى أَنَّ المعاصي كلها كبائر، وكأنَّهم استعظموا أن يكون المعصِيُّ هو الله الكبير المتعال، الخالق الرازق، ثم تكون معصيته صغيرة، فأروا أَنَّ كل ما عصي الله به فهو كبيرة.

فإذا كانت إساءة الولد إلى والده ولو بكلمة، تستعظم وتستهل، لعظم حق الوالد، فكيف بحق الربِّ الأعلى، الذي خلق فسوَّى، والذي قدَّر فهدى؟

وهذا شعور طيب، ولا شك، ولكنَّه لا ينفي الواقع، وهو أَنَّ المعاصي والذنوب تتفاوت تفاوتًا بيِّنًا في مفسادها وآثارها في الحياة، وتتفاوت كذلك في تأثيرها على القلب وتدنيسه.

كما أَنَّ النصوص نفسها بيَّنت بوضوح أَنَّ المعاصي كبائر وفواحش، ومنها دون ذلك، كما قال تعالى في وصف مشهد من مشاهد الآخرة: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَيْلُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

يقول تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وفي وصف الذين أحسنوا يقول تعالى: ﴿وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣١، ٣٢].

وفي مدح المؤمنين الذين ادّخر الله لهم في الآخرة ما هو خير وأبقى من متاع الحياة الدنيا، فقال: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمُنْعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٦، ٣٧].

فلم تطلب هذه الآية ولا تلك اجتناب صغائر الذنوب؛ لأنّ الناس قلّما يسلمون من مواقععتها في حياتهم اليومية، وإنّما اكتفى منهم باجتناب كبائر الإثم والفواحش.

وفي «الصحيح»، عن النّبِيِّ ﷺ أنّه قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان: مكفّرات لما بينهن، إذا اجتنب الكبائر»^(١).

وانقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر: ثابت بنصوص القرآن والسنة الصحيحة وإجماع الصحابة والتابعين، وبالاعتبار والمعقول أيضاً.

وأما ما يُحكى عن أبي إسحاق الإسفرائيني أنّه قال: الذنوب كلّها كبائر، وليس فيها صغائر. فليس مراده: أنّها مستوية في الإثم، بحيث يكون إثم النظر المحرّم، كإثم الوطء في الحرام. وإنّما المراد: أنّها بالنسبة إلى عظمة من عُصي بها كلّها كبائر، ومع هذا فبعضها أكبر من بعض، ومع هذا فالأمر في ذلك لفظي لا يرجع إلى معنى^(٢).

(١) رواه مسلم في الطهارة (٢٣٣)، وأحمد (٨٧١٥)، عن أبي هريرة.

(٢) انظر: المدارج (٣١٥/١).

قال ابن القيم: «والذي جاء في لفظ الشارع: تسمية ذلك «لممًا» و«محقرات» كما في الحديث: «إياكم ومحقرات الذنوب»^(١). وقد قيل: إنَّ «اللمم» المذكور في الآية من الكبائر، حكاه البغوي وغيره^(٢).

قالوا: ومعنى الاستثناء: أن يُلَمَّ بالكبيرة مرة ثم يتوب منها، ويقع فيها ثم ينتهي عنها، لا يتخذها دأبه، وعلى هذا يكون استثناء «اللمم» من الاجتناب، إذ معناه: لا يصدر منهم ولا تقع منهم الكبائر إلاَّ لممًا.

والجمهور على أنه استثناء من الكبائر، وهو منقطع. أي: لكن يقع منهم اللمم.

ثم اختلفوا في فصلين، أحدهما: في «اللمم» ما هو؟ والثاني: في «الكبائر»، وهل لها عدد يحصرها أو يحدها؟ فلنذكر شيئًا يتعلق بالفصلين.

معنى اللمم:

فأمَّا «اللَّمَم» فقد رُوي عن جماعة من السلف: أنه الإلمام بالذنب مرّة ثم لا يعود إليه، وإن كان كبيرًا. قال البغوي: هذا قول أبي هريرة، ومجاهد، والحسن، ورواية عطاء عن ابن عباس. قال: وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: اللمم ما دون الشرك^(٣). قال السُّدي: قال أبو صالح:

(١) رواه أحمد (٣٨١٨)، وقال مخرّجوه: حسن لغيره. والطبراني في الكبير (٢١٢/١٠)، والأوسط (٢٥٢٩)، عن عبد الله بن مسعود، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٤٥٩): رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجالهما رجال الصحيح غير عمران بن داود القطان وقد وثق. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٧٠): صحيح لغيره. عن ابن مسعود.

(٢) انظر: تفسير ابن جرير (٦٠/٢٢)، وتفسير البغوي (٤١١/٧).

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره (٦٦/٢٢).

سُئِلَتْ عن قول الله ﷻ: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾. فقلت: هو الرجل يلم بالذنب ثم لا يعاوده. فذكرت ذلك لابن عباس فقال: لقد أعانك عليها ملك كريم^(١).

والجمهور: على أن «اللمم» ما دون الكبائر، وهو أصح الروايتين عن ابن عباس، كما في «صحيح البخاري»، من حديث طاوس عنه قال: ما رأيت أشبه باللمم ممّا قال أبو هريرة، عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَى، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَزَنَى الْعَيْنُ: النِّظْرَ، وَزَنَى اللِّسَانُ: النِّطْقَ، وَالنَّفْسَ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجَ يَصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يَكْذِبُهُ»^(٢). ورواه مسلم، من حديث سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه وفيه: «والعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطأ»^(٣).

وقال الكلبي: «اللمم» على وجهين، كل ذنب لم يذكر الله عليه حدًّا في الدنيا، ولا عذابًا في الآخرة، فذلك الذي تكفّره الصلوات الخمس، ما لم يبلغ الكبائر والفواحش. والوجه الآخر: هو الذنب العظيم، يلم به المسلم المرّة بعد المرّة، فيتوب منه.

قال سعيد بن المسيب: هو ما ألمّ بالقلب، أي ما خطر عليه.

وقال الحسين بن الفضل: «اللمم» النظر من غير تعمّد، فهو مغفور، فإن أعاد النظر، فليس بلمم، وهو ذنب^(٤).

(١) تفسير البغوي (٤١١/٧).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٤٣)، ومسلم في القدر (٢٦٥٧).

(٣) رواه مسلم في القدر (٢٦٥٧) (٢١).

(٤) هذه الآثار ذكرها البغوي في تفسيره (٤١٣/٧).

وقد روى عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُ تَغْفِرَ جَمًّا، وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمًا؟»^(١).

وذهبت طائفة ثالثة إلى أنّ «اللمم» ما فعلوه في الجاهلية قبل إسلامهم، فالله لا يؤاخذهم به، وذلك أنّ المشركين قالوا للمسلمين: أنتم بالأمس كنتم تعملون معنا. فأنزل الله هذه الآية. وهذا قول زيد بن ثابت وزيد بن أسلم^(٢).

والصحيح: قول الجمهور: أنّ اللّم صغائر الذنوب، كالنظرة، والغمزة، والقبلة، ونحو ذلك، هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم، وهو قول أبي هريرة وعبد الله بن مسعود، وابن عباس، ومسروق، والشعبي^(٣).

ولا ينافي هذا قول أبي هريرة، وابن عباس في الرواية الأخرى: أنّ يلم بالكبيرة، ثم لا يعود إليها. فإنّ «اللم» إمّا أنّه يتناول هذا وهذا، ويكون على وجهين، كما قال الكلبي، أو أنّ أبا هريرة وابن عباس ألحقا من ارتكب الكبيرة مرّة واحدة ولم يصرّ عليها - بل حصلت منه فلتة في عمره - باللم، ورأيا أنّها إنّما تتغلّظ وتكبر وتعظم في حقّ من تكرّرت منه مرارًا عديدة، وهذا من فقه الصحابة رضي الله عنهم، ولا ريب أنّ الله يسامح عبده المرّة والمرتين والثلاث، وإنّما يخاف العنت على من

(١) رواه الترمذي في التفسير (٣٢٨٤)، وقال: حسن صحيح غريب، والحاكم في التفسير

(٤٦٩/٢)، وصحّحه على شرطهما ووافقه الذهبي. وقال ابن كثير في التفسير (٤٦١/٧): في

صحته مرفوعًا نظر. وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٧٩). عن ابن عباس.

(٢) ذكره البغوي في تفسيره (٤١٢/٧).

(٣) انظر: تفسير ابن جرير (٦٢/٢٢، ٦٣)، وتفسير البغوي (٤١١/٧).

اتَّخَذَ الذَّنْبَ عَادَتَهُ، وَتَكَرَّرَ مِنْهُ مَرَارًا كَثِيرَةً، وَفِي ذَلِكَ آثَارٌ سَلْفِيَّةٌ، وَالْإِعْتِبَارُ بِالْوَقَائِعِ يَدُلُّ عَلَى هَذَا.

وَيُذَكِّرُ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ دُفِعَ إِلَيْهِ سَارِقٌ، فَأَمَرَ بِقَطْعِ يَدِهِ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَاللَّهِ مَا سَرَقْتُ غَيْرَ هَذِهِ الْمَرْءَةِ. فَقَالَ: كَذَبْتَ. فَلَمَّا قُطِعَتْ يَدُهُ قَالَ: اصْدُقْنِي، كَمْ لَكَ بِهَذِهِ الْمَرْءَةِ؟ فَقَالَ: كَذَا وَكَذَا مَرَّةً؟ فَقَالَ: صَدَقْتَ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُوَاطِّئُ بِأَوَّلِ ذَنْبٍ. أَوْ كَمَا قَالَ.

فَأَوَّلُ ذَنْبٍ إِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ اللَّمَمُ، فَهُوَ مِنْ جَنْسِهِ وَنَظِيرِهِ، فَالْقَوْلَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ مُتَّفَقَانِ غَيْرَ مُخْتَلِفَيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

اختلاف السلف في معنى الكبيرة وعددها:

«وَأَمَّا الْكِبَائِرُ: فَاخْتَلَفَ السَّلَفُ فِيهَا اخْتِلَافًا لَا يَرْجِعُ إِلَى تَبَايُنٍ وَتَضَادٍّ، وَأَقْوَالُهُمْ مُتَقَارِبَةٌ.

وَفِي «الصَّحِيحِينَ»، مِنْ حَدِيثِ الشَّعْبِيِّ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الْكِبَائِرُ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعَقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ»^(٢).

وَفِيهِمَا عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟» ثَلَاثًا. قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعَقُوقُ الْوَالِدَيْنِ». وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَكِنًا فَقَالَ: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ». فَمَا زَالَ يَكْرِّرُهَا حَتَّى قَلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ^(٣).

(١) مدارج السالكين (١/٣١٥ - ٣١٨).

(٢) رواه البخاري في الإيمان والنذور (٦٦٧٥)، ولم أجده في مسلم، ولم يعزه إليه ابن الأثير في جامع الأصول (٨٢٣٢)، والمزي في تحفة الأشراف (٣٤٦/٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٥٤)، ومسلم في الإيمان (٨٧).

وفي «الصحيح»، من حديث أبي وائل، عن عمرو بن شرحبيل، عن عبد الله بن مسعود قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك». قال: قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك». قال: قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك»^(١).
فأنزل الله تعالى تصديق قول النبي ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وفي «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالْحَقِّ، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(٢).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من أكبر الكبائر: أن يسبَّ الرجل والديه». قالوا: وكيف يسبُّ الرجل والديه؟ قال: «يسبُّ أبا الرجل، فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمه، فيسبُّ أمه»^(٣).

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ من أكبر الكبائر: استتالة الرجل في عرض أخيه المسلم بغير حق»^(٤).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧٦١)، ومسلم في الإيمان (٨٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦)، ومسلم في الإيمان (٨٩).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٧٣)، ومسلم في الإيمان (٩٠).

(٤) رواه أبو داود في الأدب (٤٨٧٧)، وابن أبي الدنيا في الصمت (٧٢٧)، وابن أبي حاتم في التفسير (٥٢٠٥) وحسن إسناده ابن حجر في فتح الباري (٤١١/١٠)، وقال الألباني في صحيح الترغيب (٢٨٣٢): صحيح لغيره.

وهذه الأحاديث الصحاح: تدلُّنا على أنَّ الكبائر ليست في درجة واحدة، بل هي متفاوتة، فمنها: ما سمَّاه الرسول: «أكبر الكبائر».

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أكبر الكبائر: الشرك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله ^(١).

قال سعيد بن جبير: سأل رجل ابن عباس عن الكبائر: أسبغ هن؟ قال: هن إلى السبع مائة أقرب، إلَّا أنَّه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار. وقال: كل شيء عَصِي الله به فهو كبيرة، من عمل شيئاً منها فليستغفر الله، فإنَّ الله لا يخلد في النَّار من الأمة إلَّا من كان راجعاً عن الإسلام، أو جاحداً فريضة، أو مكذباً بالقدر ^(٢).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ما نهى الله عنه في سورة النساء من أولها إلى قوله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]. فهو كبيرة ^(٣).

وقال ابن عباس: هي كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب ^(٤).

وقال الضحاك: هي ما أوعده الله عليه حدًّا في الدنيا، أو عذاباً في الآخرة.

وقال الحسين بن الفضل: ما سمَّاه الله في القرآن كبيراً، أو عظيمًا،

(١) رواه الطبراني (١٥٦/٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٩٢): إسناده صحيح.

(٢) رواه ابن جرير في تفسيره (٦٥١/٦، ٦٥٢)، والبخاري في تفسيره (٢٠٢/٢).

(٣) رواه ابن المنذر في تفسيره (٦٧٠/٢)، تحقيق د. سعد بن محمد السعد، نشر دار المآثر، المدينة النبوية، ط ١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

(٤) رواه ابن جرير في تفسيره (٦٥٢/٦).

نحو قوله في أكل أموال اليتامى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]، وفي قتل الأولاد: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١]، وفي الشرك: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وفي الإفك: ﴿سُبْحَنَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]، وفي إيذاء النبي: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]^(١).

وقال مالك بن مَعُول: الكبائر ذنوب أهل البدع، والسيئات ذنوب أهل السُّنَّة^(٢).

قلت: يريد أن البدعة من الكبائر، وأنها أكبر من كبائر أهل السُّنَّة، فكبائر أهل السُّنَّة صغائر بالنسبة إلى البدع، وهذا معنى قول بعض السلف: البدعة أحبُّ إلى إبليس من المعصية؛ لأنَّ البدعة لا يُتاب منها، والمعصية يُتاب منها.

وقالت فرقة: الصغائر ما دون الحدّين، والكبائر: ما تعلّق بها أحد الحدّين.

ومرادهم بالحدّين: عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة، فكل ذنب عليه عقوبة مشروعة محدودة في الدنيا، كالزنى، وشرب الخمر، والسرقة، والقذف، أو عليه وعيد في الآخرة، كأكل مال اليتيم، والشرب في آنية الفضة والذهب، وقتل الإنسان نفسه، وخيانتة أمانته، ونحو ذلك، فهو من الكبائر^(٣).

(١) الأثران ذكرهما البغوي في تفسيره (٢٠٣/٢).

(٢) ذكره الثعلبي في تفسيره (٢٦٦/١٠)، تحقيق عدد من الباحثين، نشر دار التفسير، جدة، ط ١،

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م، والبغوي في تفسيره (٢٠٣/٢).

(٣) مدارج السالكين (٣١٧/١ - ٣٢٧) ببعض تصرف.

أقول: وهذا هو أقرب التعاريف إلى بيان حقيقة «الكبيرة»، فنحن نعرفها بما رتبّه الله عليها من إقامة حدٍّ أو عقوبة منصوص عليها، فهذا دليل خطرها وعظمتها، وكذلك إذا أوعد عليها بوعيد شديد، مثل دخول النار ولعنة الله وغضبه وعذابه العظيم أو الأليم.. أو نحو ذلك، ولكن يجب أن يثبت هذا الوعيد بالقرآن الكريم، أو بالأحاديث الصحيحة الصريحة التي لا خلاف عليها، أمّا الأحاديث المشخنة بالجراح، مثل أحاديث الغناء والآلات ولعب الشطرنج.. ونحوها، ممّا يختلف العلماء في ثبوته أو في دلالته على مجرّد التحريم، فكيف تثبت به الكبيرة، وأصل التحريم مشكوك فيه؟!



حقائق حول الكبائر والصغائر

١ - الصغيرة تجرُّ إلى الكبيرة:

هناك جملة من الحقائق يجب أن نلّم بها حول الكبائر والصغائر:
الحقيقة الأولى: إنّ الذنوب يفضي بعضها إلى بعض، والأدنى منها يفضي إلى الأعلى، فالصغيرة تجرُّ إلى الكبيرة، والكبيرة قد تجرُّ إلى الكفر، والعياذ بالله، ولهذا قالوا: أول ذنب إبليس معصية، وآخره كفر، وأول ذنب قابيل ابن آدم الشرير شهوة، وآخره شقوة.

ولهذا كان تحذير الإسلام من كل ما يؤدّي إلى المعصية، أو يساعد عليها، وخصوصاً الكبيرة منها، ومن أجل هذا حرّم الخمر قليلاً وكثيراً، ولو قطرة منها، والكثير هو المقصود بالتحريم، ولكنّ القليل يدفع عادة إلى الكثير، والألف تجرُّ إلى الباء كما يقولون.

وكذلك لعن في الخمر عشرة، والمقصود هو منع الشرب والسُّكر، ولكنّه لعن كل من ساهم فيها، وسهّل تناولها، حتّى يقطع جذورها، ويسد الطريق إليها، ولعل بعض هؤلاء يكون أعظم من الشارب إثماً، مثل مرّوجها، والمتاجر فيها، وخصوصاً مع المخدّرات، وهي جزء من الخمر، فإنّ الخمر - كما قال عمر - ما خامر العقل^(١)، فصنع الخمر

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأشربة (٥٥١٨)، ومسلم في التفسير (٣٠٣٢)، عن ابن عمر.

والمخدرات والاتجار بها أشد آلاف المرات من تعاطيها، ولهذا اتفق كثير من فقهاء عصرنا على ضرورة عقاب تجار هذه السموم بالقتل (الإعدام)، قصاصاً لهم، فهم قتلة سفاحون، ولكن يقتلون شعوباً، ويدمرون مجتمعات بأسرها، وهم محاربون لله ورسوله، وساعون في الأرض فساداً.

ولعن رسول الله ﷺ مع آكل الربا مؤكله وكاتبه وشاهديه وقال: «هم سواء»^(١).

أي: في أصل الإثم، وإن كان الأكل هو المقصود أصلاً، وهؤلاء له تبع لمعاونتهم على الإثم والعدوان.

وحرم الإسلام الزنى، فإنه كان فاحشة، وساء سبيلاً، ولكنه حرم كل ما يقرب إلى الزنى ويعين عليه، مثل: الخلوة، والنظرة بشهوة، والقُبلة.. ونحوها، وكذلك التبرُّج، والمغريات بالفاحشة من الأغاني والصور والمشاهد المثيرة.

وهكذا نجد الصغائر تجرُّ إلى الكبائر، فإذا زلَّت قدم المكلف، وسقط في حفرة المعصية - ولو كانت صغيرة - ولم يتدارك نفسه بسرعة بالتوبة، تنهضه من عثرته، وتقيمه من كبوته، فسرعان ما تدفع هذه المعصية إلى ثانية، والثانية إلى ثالثة، وهلمَّ جرّاً، ويستجري عليه الشيطان بمجرّد انهزامه أمامه مرة، وتضعف نفسه الأمّارة بالسوء عن المقاومة، حتّى ينتهي إلى الاستسلام لعوامل السوء، ونوازع الشر، ويستمرئ هذا الطريق، ولا يستطيع فطاماً عنه، وهذا هو الخطر، الذي يُستعاذ بالله منه.

(١) رواه مسلم في المساقاة (١٥٩٨)، وأحمد (١٤٢٦٣)، عن جابر.



٢ - اجتناب الكبائر يكفر الصغائر:

والحقيقة الثانية من أحكام الكبيرة: أَنَّ اجتنابها يكفر الصغائر، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

قال ابن كثير: «أي إذا اجتنبت كبائر الآثام التي نهيت عنها، كفرنا عنكم صغائر الذنوب، وأدخلناكم الجنة»^(١).

وقال الإمام الغزالي: «اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة، إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة، كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها، فكف نفسه عن الوقاع، فيقتصر على نظر أو لمس، فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع: أشد تأثيراً في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه، فهذا معنى تكفيره، فإن كان عنيئاً (عاجزًا جنسيًا) أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز، أو كان قادرًا ولكن امتنع لخوف أمر آخر، فهذا لا يصلح للتكفير أصلاً، وكل من لا يشتهي الخمر أصلاً، ولو أبيح له لما شربه، فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر، نعم من يشتهي الخمر، وسماع الأوتار، فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر، ويطلقها في السماع، لمجاهدته النفس بالكف، ربما تمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت إليه من معصية السماع...»^(٢).

وينقل العلامة رشيد رضا كلام الغزالي هذا، وكلامه في تكفير السيئات بفعل الحسنات المضادة لها، وأنَّ كلَّ سيئة تُمحى بحسنة من جنسها... إلى آخر ما نقلناه من قبل. ثم يقول: «لله دره: ما أدق فهمه

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢٣٧).

(٢) الإحياء (٤/٢٢).

لحكمة القرآن، وتطبيقه على فطرة الإنسان، ومن وقف على ما ثبت عند علماء الإنسان بعد الغزالي... فإنه يعجب بما أوتي هذا الرجل من قوة الذهن، ونفوذ أشعة الفهم»^(١).

وتقرير هذه الحقيقة يفيدنا فائدتين كبيرتين ومهمتين في المجال التربوي:

الأولى: غرس الأمل والرجاء في سعة رحمة الله تعالى، وجميل فضله، وواسع كرمه، فيكفي أن يجتنب المسلم كبائر الإثم، ليكفر عنه سيئاته الأخرى، وجراحاته التي لا يكاد يسلم منها الناس.

عن أنس رضي الله عنه خادم النبي ﷺ قال: لم أر مثل الذي بلغنا عن ربنا تعالى، لم نخرج له عن كل أهل ومال. ثم سكت، ثم قال: والله لقد كلّفنا ربنا أهون من ذلك، لقد تجاوز لنا عما دون الكبائر، فما لنا ولها؟ ثم تلا: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ...﴾ الآية [النساء: ٣١]^(٢).

والثانية: غرس روح السماحة والعفو في التعامل بين الناس، وترك التغليظ عليهم، ومحاسبتهم على كل صغيرة وكبيرة، فهذا منافٍ لمعاملة الله تعالى مع عباده، فلا ينبغي لنا أن نشدد على الناس في صغائر الذنوب إذا اجتنبوا كبارها، وقد عفا الله تعالى عنها، وقد عرفنا من نصوص القرآن والسنة أن في دين الله متسعاً لكل من لم يصبح ارتكاب الكبائر خطاً ثابتاً في حياته.

ومن روائع الدروس التربوية الإسلامية ما جاء عن أمير المؤمنين

(١) تفسير المنار (٤٥/٥، ٤٥)، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

(٢) رواه الطبري في تفسيره (٦/٦٥٩).



عمر رضي الله عنه في تعليم النَّاسِ كيف يتغاضون عن صغائر الذنوب، وتوافه العيوب، إذا وقعت ممَّن يؤدي الفرائض، ويجتنب الكبائر، فليس هناك إنسان معصوم، وكل بني آدم خطاء، ولم يخلق الله البشر ملائكة مطهرين.

روى ابن جرير بسنده، عن ابن عون، عن الحسن البصري: أنَّ ناسًا سألوا عبد الله بن عمرو بمصر فقالوا: نرى أشياء من كتاب الله وَعَلَيْكَ، أمر أن يُعمل بها، لا يُعمل بها! فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين في ذلك. فقدم وقدموا معه، فلقي عمر رضي الله عنه فقال: متى قدمت؟ قال: منذ كذا وكذا.

قال: أبأذن قدمت؟ قال الحسن: فلا أدري كيف ردَّ عليه. فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ ناسًا لقوني بمصر فقالوا: إنَّا نرى أشياء في كتاب الله أمر أن يُعمل بها، فلا يُعمل بها، فأحْبُّوا أن يلقوك في ذلك. قال: فاجمعهم لي.

قال: فجمعتهم له - قال ابن عون: في بهو - فأخذ أدناهم رجلاً. فقال: أنشدك بالله وبحقِّ الإسلام عليك: أقرأت القرآن كله؟ قال: نعم.

قال: فهل أحصيته في نفسك؟ (يعني: هل استقصيت العمل به في تصحيح نيتك وتطهير قلبك، ومحاسبتك نفسك؟). فقال: اللهم لا. ولو قال: نعم، لخصمه. (أي: لأفحمه وألزمه الحجة).

قال: فهل أحصيته ببصرك؟ فهل أحصيته في لفظك (أي كلامك)؟ فهل أحصيته في أثرك (أي في خطواتك ومشيك)؟

ثم تتبَّعهم حتَّى أتى على آخرهم (يعني وهو يسألهم: هل استقصيت العمل بكتاب الله كله في أنفسكم وجوارحكم، وأقوالكم وأعمالكم، وحركاتكم وسكناتكم؟ وهم بالطبع يجيبون: اللهم لا).

فقال: ثكلت عمراً أمه! أتكلّفونه أن يقيم الناس على كتاب الله؟ (أي بالصورة التي تفهمونها أنتم، ولم تقيموها في أنفسكم باعترافكم) قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات. وتلا: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

ثم قال: هل علم أهل المدينة - أو قال: هل علم أحد - بما قدمتم؟ قالوا: لا.

قال: لو علموا لوعظت بكم! (أي: لجعلتكم عظة ونكالا لغيركم). ذكره ابن كثير في «تفسيره»، عن ابن جرير، وقال عقبه: إسناد صحيح ومتن حسن^(١) اهـ.

وهذا في الواقع درس في التربية، ودرس في السياسة أيضاً، وفقه السياسة في الإسلام لا ينفصل عن فقه التربية.

وبهذا الفقه العمري الواعي لكتاب الله، حسم أمير المؤمنين عليه السلام هذه القضية في بدايتها، وسدّ باباً للتشدد والتنطع لو كان تساهل فيه، لربما هبت منه رياح فتنة لا يعلم إلا الله مدى عواقبها^(٢) اهـ.

وهذا التشدد الذي بدت بذوره في عهد عمر، وأطفأ نار فتنه في مهدها بفقهه وحزمه، قد ظهر بعد ذلك في عهد عثمان بقوة أكبر، وتفاقم واستفحل، حتّى أشعل الفتنة الكبرى، التي لم يزل يعاني المسلمون إلى اليوم من آثارها.

(١) انظر: تفسير ابن جرير (٦/٦٥٨، ٦٥٩)، وتفسير ابن كثير (٢/٢٤٥).

(٢) الصحو الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ١٤٢ - ١٤٤، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٣،

٣ - الكبيرة قد تصغر بأسباب وملا بسات:

وهنا حقيقة ثالثة ينبغي التفطن لها، نبّه عليها العلامة ابن القيم، وهي أنّ «الكبيرة» قد يقترن بها من الحياء والخوف، والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة، من قلة الحياء، وعدم المبالاة، وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر، بل يجعلها في أعلى رتبها.

وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب، وهو قدر زائد على مجرد الفعل، والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره.

وأيضاً فإنّه يُعفى للمحبّ، ولصاحب الإحسان العظيم، ما لا يُعفى لغيره، ويُسامح بما لا يُسامح به غيره.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدّس الله روحه يقول: انظر إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه رمى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه بيده، فكسرها، وجرّ بلحية نبيّ مثله، وهو هارون، وعاتب ربّه ليلة الإسراء في محمد ﷺ ورفع عليه، وربّه تعالى يحتمل له ذلك كله، ويحبّه ويكرمه؛ لأنّه قام لله تلك المقامات العظيمة في مقابلة أعدى عدو له، وصدع بأمره، وعالج أمّتي القبط وبني إسرائيل أشدّ المعالجة، فكانت هذه الأمور كالشعرة في البحر.

وانظر إلى يونس بن متى حيث لم يكن له هذه المقامات التي لموسى، غاضب ربه مرّة، فأخذه وسجنه في بطن الحوت، ولم يحتمل له ما احتمل لموسى، وفرق بين من إذا أتى بذنب واحد ولم يكن له من الإحسان والمحاسن ما يشفع له، وبين من إذا أتى بذنب جاءت محاسنه بكلّ شفيع، كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنبٍ واحدٍ جاءت محاسنه بألفٍ شفيع^(١)!

فالأعمال تشفع لصاحبها عند الله، وتذكر به إذا وقع في الشدائد، قال تعالى عن ذي النون: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلِثَّ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصفات: ١٤٣، ١٤٤]. وفرعون لما لم تكن له سابقة خير تشفع له وقال: ﴿ءَاَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَاَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠]، قال له جبريل: ﴿ءَاَلَكُنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١].

ولهذا من رجحت حسناته على سيئاته أفلح ولم يعذب، ووُهبَت له سيئاته لأجل حسناته، ولأجل هذا يُغفر لصاحب التوحيد ما لا يُغفر لصاحب الإشراك، لأنَّه قد قام به ممَّا يحبه الله ما اقتضى أن يغفر له ويسامحه، ما لا يسامح به المشرك، وكلما كان توحيد العبد أعظم، كانت مغفرة الله له أتم، فمن لقيه لا يشرك به شيئاً البتة غفر ذنوبه كلها، كائنة ما كانت، ولم يعذب بها.

ولسنا نقول: إنَّه لا يدخل النار أحد من أهل التوحيد، بل كثير منهم يدخل بذنوبه، على مقدار جُرمه، ثم يخرج منها، ولا تنافي بين الأمرين لمن أحاط علماً بما قدمناه.

ونزيد هاهنا إيضاحاً لعظم هذا المقام من شدَّة الحاجة إليه.

اعلم أنَّ أشعَّة «لا إله إلا الله» تُبَدِّد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه، فلها نور، وتفاوت أهلها في ذلك النور قوة وضعفاً لا يحصيه إلا الله تعالى.

(١) من شعر أبي البركات المنقري كما في تاريخ بغداد وذيوله (٨/٢١)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط ١، ١٤١٧هـ.



فمن الناس: من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس.

ومنهم: من نورها في قلبه كالكوكب الدري.

ومنهم: من نورها في قلبه كالمشعل العظيم.

وآخر: كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف.

ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم، على هذا المقدار، بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة، علمًا وعملاً، ومعرفةً وحالاً.

وكُلَّمَا عَظُم نور هذه الكلمة واشتد: أحرقت من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته، حتَّى إِنَّهُ ربما وصل إلى حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة، ولا ذنبًا، إلَّا أحرقه، وهذا حال الصادق في توحيده، الذي لم يشرك بالله شيئًا، فأَيُّ ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النُّور أحرقتها، فسماء إيمانه قد حُرست بالنجوم من كل سارق لحسناته، فلا ينال منها السارق إلَّا على غِرَّة وغفلة لا بدَّ منها للبشر، فإذا استيقظ وعلم ما سُرِق منه استنقذه من سارقه، أو حصَّل أضعافه بكسبه، فهو هكذا أبدًا مع لصوص الجن والإنس، ليس كمن فتح لهم خزانته، وولَّى الباب ظهره.

وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنَّه لا خالق إلَّا الله، وأنَّ الله رب كل شيء ومليكه، كما كان عبَاد الأصنام مقرِّين بذلك وهم مشركون، بل التوحيد يتضمن من محبة الله، والخضوع له، والذلَّ له، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع والعطاء.

نعم من قالها بلسانه، غافلًا عن معناها، معرضًا عن تدبُّرها، ولم يواطئ قلبه لسانه، ولا عرف قدرها وحقيقتها، راجيًا مع ذلك ثوابها،

حَطَّتْ من خطاياها بحسب ما في قلبه، فَإِنَّ الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وَإِنَّمَا تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العملين واحدة، وبينهما في التفاضل كما بين السماء والأرض، والرجلان يكون مقامهما في الصفِّ واحدًا، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض.

وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق^(١) عن السير إلى القرية، وحملته وهو في تلك الحال على أن جعل ينوء بصدرة، وهو يعالج سكرات الموت، فهذا أمر آخر، وإيمان آخر، ولا جرم أن ألحق بالقرية الصالحة، وجعل من أهلها.

وقريب من هذا ما قام بقلب البغي التي رأت ذلك الكلب، وقد اشتدَّ به العطش يأكل الثرى، فقام بقلبها ذلك الوقت - مع عدم الآلة، وعدم المعين، وعدم من ترائيه بعملها - ما حملها على أن غررت بنفسها في نزول البئر، وملء الماء في خفِّها، ولم تعباً بتعرضها للتلف، وحملها خفِّها بفيها وهو ملآن، حتَّى أمكنها الرُّقي من البئر، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادة النَّاس بضربه، فأمسكت له الخف بيدها حتَّى شرب، من غير أن ترجو منه جزاء ولا شكورًا، فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدَّم منها من البغاء، فغفر لها.

فهكذا الأعمال والعُمال عند الله، والغافل في غفلة من هذا الإكسير الكيماوي، الذي إذا وضع منه مثقال ذرَّة على قناطير من نحاس الأعمال قلبها ذهبًا^(٢).

(١) أي: عند الاحتضار، قال ابن منظور: والسَّيَاق: نَزْعُ الرُّوح. لسان العرب (س. و. ق).

(٢) انظر: المدارج (٣٢٨/١ - ٣٣٢).



٤ - الصغيرة قد تكبر بأسباب وملابسات:

كما أَنَّ الكبيرة قد تصغر بما يصاحبها من مشاعر الحياء والخوف وعدم الرضا عن النفس ونحوها، فإنَّ الصغيرة قد تصاحبها مشاعر ومظاهر وملابسات معينة تحيلها إلى كبيرة، كما أَنَّ هذه الملابسات نفسها إذا صحبت الكبيرة تجعل إثمها أكبر وخطرها أعظم. وهذه هي الحقيقة الرابعة في هذا المقام.

وهذا ما عرض له الإمام الغزالي في فصل رائع من كتاب التَّوْبَةُ من «الإحياء» بيَّن فيه الأمور والأسباب التي تعظم بها الذنوب الصغائر، وتزداد الكبائر بها كبرًا وعظمًا، ويحسن أن ننقله هنا بتصرف قليل.

قال رحمته الله تعالى: «اعلم أَنَّ الصغيرة تكبر بأسباب:

الإصرار والمواظبة:

منها: الإصرار والمواظبة، ولذلك قيل: لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار. فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها - لو تُصوَّر ذلك - كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها. ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توالٍ فتؤثِّر فيه، وذلك القدر من الماء لو ضُبَّ عليه دفعة واحدة لم يؤثِّر، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدُومُهَا وَإِنْ قَلَّ»^(١). والأشياء تُستَبان بأضدادها، وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل، فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظيم تأثيره

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٦٤)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٨٣)، عن عائشة.

في إظلام القلب، إِلَّا أَنَّ الكبيرة قلما يتصوّر الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر، فقلما يزني الزاني بغتة من غير مراودة ومقدمات، وقلما يقتل القاتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة، فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة، ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق إليها عود، ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واطب الإنسان عليها عمره.

استصغار المعصية:

ومنها: أَنْ يستصغر الذنب، فَإِنَّ الذَّنْبَ كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى؛ لِأَنَّ استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به، واستصغاره يصدر عن الإلف به، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات، والمحذور تسويده بالسيئات، ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة فَإِنَّ القلب لا يتأثر بما يجري في الغفلة، وقد جاء في الخبر: «المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه، يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب مرّ على أنفه فأطاره»^(١).

وقال بعضهم: الذَّنْبُ الذي لا يُغفر، قول العبد: ليت كل ذنب عملته مثل هذا! وَإِنَّمَا يعظم الذَّنْبُ في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله، فإذا نظر إلى عظم من عصى رأى الصغيرة كبيرة، وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: لا تنظر إلى قلة الهدية، وانظر إلى عظم مُهديها، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة، وانظر إلى كبرياء من واجهته بها.

(١) سبق تخريجه ص ٣٩.

وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين: لا صغيرة، بل كل مخالفة فهي كبيرة. وكذلك قال بعض الصحابة رضي الله عنهم للتابعين: إِنَّكُمْ لتعملون أعمالاً هي أدقُّ في أعينكم من الشَّعَرِ، إِنَّ كُنَّا لنُعْذُّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات^(١)! إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر، وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل، ويُتجاوز عن العامي في أمور، لا يتجاوز في أمثالها عن العارف؛ لأنَّ الذَّنْبَ والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف.

الفرح بالمعصية:

ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجُّح بها، واعتداد التمكن من ذلك نعمة، والغفلة عن كونه سبب الشقاوة، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد، كبرت الصغيرة، وعظم أثرها في تسويد قلبه، حتَّى إِنَّ من المذنبين من يتمدَّح بذنبه ويتبجَّح به، لشدة فرحه بمقارفته إياه، كما يقول: أَمَا رَأَيْتَنِي كَيْفَ مَزَّقْتُ عَرْضَهُ؟! ويقول المناظر في مناظرته: أَمَا رَأَيْتَنِي كَيْفَ فَضَحَّتْهُ؟ وكيف ذكرت مساوئه حتَّى أَخَجَلْتَهُ؟ وكيف استخففت به؟ وكيف لبَّست عليه؟ ويقول المعامل في التجارة: أَمَا رَأَيْتَ كَيْفَ رَوَّجْتُ عَلَيْهِ الزَّائِفَ؟ وكيف خدعته؟ وكيف غَبَنْتُهُ فِي مَالِهِ؟ وكيف استحمقته؟!

فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر، فَإِنَّ الذنوب مهلكات، وإذا دُفِعَ العبد إليها، وظفر الشيطان به في الحمل عليها، فينبغي أن يكون في مصيبة

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٩٢)، عن أنس.

وتأسف بسبب غلبة العدو عليه، وبسبب بعده من الله تعالى، فالمريض الذي يفرح بأن ينكسر إناءه الذي فيه دواؤه، حتى يتخلص من ألم شربه؛ لا يُرجى شفاؤه.

التهاون بستر الله عليه:

ومنها: أن يتهاون بستر الله عليه، وحلمه وإمهاله إياه ولا يدري أنه إنما يمهل مقتًا، ليزداد بالإمهال إثماً، فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به، فيكون ذلك لأمنه من مكر الله، وجهله بمكامن الغرور بالله، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فِئْتَسَ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨].

إظهار المعصية والتبجح بها:

ومنها: أن يأتي الذنب ويُظهره، بأن يذكره بعد إتيانه، أو يأتيه في مشهد غيره، فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي سدله عليه، وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعته ذنبه أو أشهده فعله، فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته، فغلظت به، فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه، والحمل عليه، وتهيئة الأسباب له: صارت جناية رابعة، وتفاحش الأمر، وفي الخبر: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، يبيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه، فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه»^(١). وهذا لأن من صفات الله ونعمه: أنه يُظهر الجميل، ويستر القبيح، ولا يهتك الستر، فالإظهار كُفران لهذه النعمة.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٩)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٩٠)، عن أبي هريرة.

وقال بعضهم: لا تذب، فإن كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه، فتذب ذنين، ولذلك قال تعالى: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ [التوبة: ٦٧].

وقال بعض السلف: ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية، ثم يهونها عليه^(١).

معصية العالم والقدوة:

ومنها: أن يكون المذنب عالمًا يقتدى به، فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه، كلبس العالم الإبريسم (الحرير)، وركوبه مراكب الذهب، وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين، ودخوله على السلاطين، وتردده عليهم، ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم، وإطلاق اللسان في الأغراض، وتعدّيه باللسان في المناظرة، وقصده الاستخفاف، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه، كعلم الجدل والمناظرة، فهذه ذنوب يتبع العالم عليها، فيموت العالم ويبقى شره مستطيرًا في العالم أمدًا متطاولة، فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه، وفي الخبر: «من سنَّ سُنَّةَ سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها، لا ينقص من أوزارهم شيئًا»^(٢). قال تعالى: ﴿وَنَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَرَهُمْ﴾ [يس: ١٢]. والآثار: ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل.

وقال ابن عباس: ويل للعالم من الأتباع: يزل زلة فيرجع عنها، ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق.

(١) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (٣٠٩/١).

(٢) سبق تخريجه ص ١٨١.

وقال بعضهم: مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة، تغرق ويغرق أهلها! وفي الإسرائيليات: أنَّ عالمًا كان يُضِلُّ النَّاسَ بالبدعة، ثم أدركته توبة، فعمل في الإصلاح دهرًا، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم: قل له إنَّ ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرته لك، ولكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النَّارَ؟!

فبهذا يتَّضح أنَّ أمر العلماء مخطر، فعليهم وظيفتان: إحداهما ترك الذنب، والآخرى إخفاؤه. وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب، فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتَّبَعُوا، فإذا ترك التجمل والميل إلى الدنيا، وقنع منها باليسير، ومن الطعام بالقوت، ومن الكسوة بالخلق، فَيُتَّبَع عليه، ويقتدي به العلماء والعوامُّ، فيكون له مثل ثوابهم، وإنَّ مال إلى التجمل مالت طباع من دونه إلى التشبه به، ولا يقدرُونَ على التجمل إلَّا بخدمة السلاطين، وجمع الحُطَام من الحرام، ويكون هو السبب في جميع ذلك، فحركات العلماء في طوري الزيادة والنقصان، تتضاعف آثارها: إمَّا بالربح وإمَّا بالخسران»^(١).

أسباب وملابسات أخرى لتضخيم الذنوب:

وما ذكره الإمام الغزالي كله مسلَّم ولا ريب، ولكن ينبغي أن نضيف إليه أنَّ ثَمَّة أسبابًا وملابسات أخرى تؤدِّي إلى تضخيم الذنوب والمعاصي، وخصوصًا الكبيرة، فإنَّها بهذه الأسباب والملابسات التي تَقْتَرَن بها تتضخَّم وتتفاقم، وتتعاظم عقوبتها عند الله وَجَلَّ.

فإذا أخذنا كبيرة كالزنى الذي قال الله فيه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ

(١) إحياء علوم الدين (٣٢/٤، ٣٣) بتصرف قليل.

فَحِشَّةٌ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿ [إسراء: ٣٢]، وجدنا أنَّ هذه الكبيرة الفاحشة قد تزداد فحشًا بإضافات معينة تلتبس بها.

منها: ما يتصل بالزنى، فالزاني المحصن غير الزاني العزب، ولهذا كان حدُّ العزب مائة جلدة كما في كتاب الله، وحدُّ المحصن الرجم، كما ثبت في السُّنة، والزاني الشيخ المُسنُّ غير الزاني إذا كان شابًا، فالشباب شُعلة من الجنون، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكِّيهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، ومملك كذاب، وعائل فقير» مستكبر^(١)، وهؤلاء الأصناف الثلاثة يرتكبون معاصيهم دون حاجة شديدة إليها.

ومنها: ما يتصل بالمزنيِّ بها، كأن تكون امرأة متزوجة، فهو يفسدها على زوجها، ويهتك حرمة، ويؤذيه أبلغ الأذى، وقد تحمل منه، فيفسد عليه نسبه، وينسب إليه ولد ليس من صلبه، ولهذا قال ﷺ: «ليس منَّا من خَبَبَ - أي أفسد - امرأة على زوجها»^(٢). ولا سيما إذا كانت المرأة مستقيمة الحال، وهو الذي أغراها بالانحراف، وربما ظلَّ يطاردها حتَّى ضعفت واستجابت.

ويزداد إثم الزنى بالمرأة المتزوجة إذا كانت امرأة جاره، التي يفترض فيه أن يكون حارسًا لها، لا لصًا يسرق عَفَّتْها، ويخون جاره فيها، وقد قال عنتره وهو جاهلي:

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٠٧)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (٩١٥٧)، وقال مخرَّجوه: حديث صحيح. وأبو داود (٢١٧٥)، والحاكم (١٩٦/٢)، وصحَّحه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، كلاهما في الطلاق، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٣٢٤)، عن أبي هريرة.

وأغضُّ طرفي إنْ بدتْ لي جارتِي حتَّى يُواري جارتِي مأواها^(١)!
ولكن هذا يُغير عليها، ويفتك بها، وقد نفى الرسول الكريم الإيمان
عمَّن لا يأمن جاره بوائقه^(٢).

روى الشيخان، من حديث ابن مسعود، أنَّ النبي ﷺ سئل: أيُّ الذَّنْبِ
أعظم؟ فقال: «أَنْ تجعلَ لله ندًّا، وهو خالقك». قال: ثم أي؟ قال: «أَنْ تقتل
ولديكَ مخافةً أَنْ يطعم معك». قال: ثم أي؟ قال: «أَنْ تزاني حليلة جارك»^(٣).
فذكر من هذه الذنوب أعظمها، وهي في نفسها عزيمة، فالشرك كله
ظلم عظيم، وأعظمه أَنْ تتخذَ لله ندًّا وهو خالقك، والقتل في حدِّ ذاته من
أكبر الكبائر، ولكن أعظمه أَنْ تقتل ولدك، الذي يُفترض أَنْ تجوع ليشبع،
وتسهر لينام، وتفديه بنفسك، وتقتله بدافع خسيس، وهو خوف أَنْ
يزاحمكَ في طعامك! والزنى كبيرة في نفسه، ولكن أَنْ تزني بحليلة
جارك الذي يفترض أَنْ تكون أُمِينًا على حرَماته، تحفظه إذا غاب، وتُعينه
إذا حضر، فهذه أكبر وأعظم.

وعن المقداد بن الأسود قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما تقولون
في الزنى؟». قالوا: حرام، حرَّمه الله ورسوله، فهو حرام إلى يوم القيامة.
فقال رسول الله ﷺ: «لأنَّ يزني الرجل بعشر نَسوة: أيسر عليه من أَنْ
يزني بامرأة جاره». قال: «ما تقولون في السرقة؟». قالوا: السرقة حرام،

(١) انظر: شرح ديوان عنترة للخطيب التبريزي ص ٢٠٨، تحقيق مجيد طراد، نشر دار الكتاب
العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٢م

(٢) كما في حديث أبي شريح، أنَّ النبي ﷺ قال: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن». قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه». رواه البخاري في الأدب (٦٠١٦).

(٣) سبق تخريجه ص ١٩٥.

حَرَّمَهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَهِيَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. قَالَ: «لَأَنْ يَسْرِقَ الرَّجُلُ مِنْ عَشْرَةِ أَبْيَاتٍ: أَيْسَرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ جَارِهِ»^(١).

فَإِذَا كَانَ هَذَا الْجَارُ قَرِيبًا لِلزَّانِي، كَأَنْ يَكُونَ ابْنُ عَمٍّ أَوْ ابْنُ خَالٍ أَوْ ابْنُ خَالَةٍ، أَوْ كَانَ أَخًا لَهُ أَوْ عَمًّا أَوْ خَالًا، كَانَ الْإِثْمُ أَعْظَمَ؛ لِأَنَّهُ ضَمَّ إِلَى إِفْسَادِ الزَّوْجَةِ قَطْعِ الرَّحْمِ، وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ، وَلِأَنَّهُ جَارٌ لَهُ ثَلَاثَةُ حَقُوقٍ: حَقُّ الْإِسْلَامِ، وَحَقُّ الْجَوَارِ، وَحَقُّ الْقَرَابَةِ، لِهَذَا كَانَ إِيْذَاؤُهُ أَعْظَمَ خَطَرًا.

وَمِثْلُ ذَلِكَ الْمَرْأَةُ «الْمُغِيبَةُ» الَّتِي غَابَ زَوْجُهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ، فِي حَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ، أَوْ طَلَبِ عِلْمٍ، أَوْ دَعْوَةٍ إِلَى اللَّهِ، أَوْ فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَهُوَ أَعْظَمُهَا، فَالزَّانِي بِهَذِهِ الْمَرْأَةِ أَعْظَمُ إِثْمًا، وَأَكْبَرُ جَرْمًا، مِنَ الزَّانِي بِزَوْجَةٍ رَجُلٍ عَادِيٍّ؛ لِأَنَّ فِي هَذَا الزَّانِي خِيَانَةً لِهَذَا الزَّوْجِ الَّتِي غَابَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، أَوْ فِي مَصْلَحَةِ الدِّينِ وَالْأَمَّةِ، فَهَذَا يَكْفِيهِ بَانْتِهَاكُ حَرَمَتِهِ، وَالْإِعْتِدَاءُ عَلَى عَرْضِهِ.

وَفِي الْحَدِيثِ: «مِثْلُ الَّذِي يَجْلِسُ عَلَى فِرَاشِ الْمُغِيبَةِ، مِثْلُ الَّذِي يَنْهَشُهُ أَسْوَدٌ مِنْ أَسَاوِدِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٢).

وَالْمُغِيبَةُ: مَنْ غَابَ عَنْهَا زَوْجُهَا. وَالْأَسْوَدُ: الْحَيَّةُ.

(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ (٢٣٨٥٤)، وَقَالَ مَخْرَجُوه: إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ. وَالبخاري في الأدب المفرد (١٠٣)، والبخاري (٢١١٥)، والطبراني (٢٥٦/٢٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥٦١): رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتَّطَبُّعِيُّ فِي الْكَبِيرِ وَالْأَوْسَطِ وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ. وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ الْأَدَبِ الْمَفْرُودِ (٧٦).

(٢) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ (٥٢٦/١٣)، وَقَالَ الْمُنْذَرِيُّ فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ (٣٦٣٦): رَوَاتُهُ ثِقَاتٌ. وَكَذَا الْهَيْثَمِيُّ فِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ (١٠٥٥٩)، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو.

وفي «الصحيح»، عن بريدة، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «حرمة نساء المجاهدين على القاعدين، كحرمة أمهاتهم! ما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله، فيخونه فيهم، إِلَّا وقف له يوم القيامة، فيأخذ من حسناته ما شاء حَتَّى يرضى». ثم التفت إلينا رسول الله ﷺ فقال: «فما ظنكم؟!» أي فما ظنكم بمن حَكَمَ في حسنات خصمه في يوم يكون النَّاسُ أحوج ما يكونون فيه إلى الحسنات، ولا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده؟. وفي رواية النسائي لهذا الحديث زاد: «ما ظنكم ترون يدع له من حسناته شيئاً؟!»^(١).

ومثل ذلك أو شر منه: من يزني بإحدى محارمه، كأخته أو عمته أو خالته، فإثمه هنا أكبر؛ لأنَّ المفروض أنَّ يحمي عرض هؤلاء، ويقاوم عنهن إذا اعتدي عليهن، لا أنَّ يفترسهن، ويدخل في ذلك: المحارم بالمصاهرة، مثل: حماته وامرأة أبيه وامرأة ابنه.

وقد تتعاضم الكبيرة خاصة والسيئة عامة: بحكم المكان الذي وقعت فيه، كأن تقع في البلد الحرام، فإنَّ السيئات تضاعف فيه عقوبتها، كما أنَّ الحسنات تضاعف مثوبتها. وهذا هو العدل، فإنَّ الله كما ضاعف لنساء النبيَّ أجرهن إذا قنتن لله وعملن صالحاً، ضاعف عذابهنَّ إذا أتين بفاحشة مبينة.

وكما تضاعف الكبيرة أو السيئة بسبب المكان، تتضاعف بسبب الزمان، فمن يزني في الشهر الحرام يكون إثمه أشد، لقوله تعالى عن الأشهر الحرم: ﴿ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْقِمُوا فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]. وظلم النفس حرام في كل الشهور، ولكنَّه في الأشهر الحرم أعظم إثماً.

(١) رواه مسلم في الإمامة (١٨٩٧)، وأحمد (٢٢٩٧٧)، والنسائي في الجهاد (٣١٩١).



ومثل ذلك في شهر رمضان، الذي فرض الله صيام أيامه، وسَنَّ الرسول قيام ليلاليه، ونهى فيه عن اللغو والرفث، فالمسلم يدع فيه شهوته وزوجته من أجل الله، وهذا يزني بامرأة أجنبية من أجل شيطانه وهواه. ولهذا حين جيء إلى عمر رضي الله عنه بسكران أقام عليه حدَّ السُّكْرِ، وزاده عشرين جلدة، لانتهاكه حرمة شهر رمضان، وقال له: أَسْكُرْ وصبياننا صيام^(١)؟!

ومثل ذلك: أيام عشر ذي الحجة، التي تُضاعف فيها مثوبة الحسنات، وخصوصًا يوم عرفة! وكذلك أوقات الصلوات وسماع الأذان، وأوقات إجابة الدعاء ونحوها.

وقد يتضاعف إثم السيئة أو الكبيرة بسبب الفعل نفسه، كما ذكر الغزالي، مثل المواظبة والتكرار له، كما في قوله: «أن تُزاني حليمة جارك»^(٢). فعبارة «تزاني» لا يقصد بمرة أو مرتين، بل تقتضي المعاودة والتكرار.

ومثل ذلك: المعالنة والمجاهرة، كما في الحديث الصحيح: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين»^(٣).

ولهذا جعل الشارع عقوبة الزنى على المجاهرة لا على مجرد الفعل، بدليل أنه اشترط لإثبات جريمة الزنى وإقامة الحدِّ على الزنى: أربعة شهود عدول يرون العملية الجنسية بوضوح، كالميل في المَكْحَلَة، أو

(١) علقه البخاري في الصيام مختصرًا قبل الحديث (١٩٦٠)، ورواه عبد الرزاق في الطلاق (١٣٥٥٧).

(٢) سبق تخريجه ص ١٩٥.

(٣) سبق تخريجه ص ٢١٢.

القلم في الدواة، كما يقول الفقهاء، وهذا لا يمكن أن يحدث في العادة، إلا إذا كان الزانيان فاجرين، لا يباليان أن يراهما الناس متلبسين.

وفي حديث ابن عمر، عن ابن ماجه والبخاري والبيهقي: «يا معشر المهاجرين، خمس خصال إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا» الحديث^(١).

فالاستعلان بالفاحشة - وهي تشمل الزنى وعمل قوم لوط - ينزل بها عقوبة القدر، بظهور الطاعون والأمراض التي لم يعرفها السابقون، وهو ما صدقه الواقع أبلغ التصديق، ولا سيما بعد فُشُو مرض «الإيدز» الذي أعجز الأطباء علاجه إلى اليوم، ويسمونه «الطاعون الأبيض»!

وقد جاء في حديث ابن مسعود: «ما ظهر في قوم الزنى والربا إلا أحلوا بأنفسهم عذاب الله»^(٢). فعذاب الله إنما حل بهم بعد الظهور والاستعلان لفاحشة الزنى، وموبقة الربا، وهو ذنب آخر فوق ذنب الكل منهما.

وشتر من الاستعلان: ارتكاب فاحشة الزنى اغتصاباً وعدواناً وعنوة، تحت تهديد القوة والسلاح، كما يفعله بعض الحكام الطغاة، أو الأقوياء الظلمة، أو الأغنياء الفجرة، في بنات الأسر المستضعفة، التي لا تملك

(١) رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠١٩)، والحاكم في الفتن والملاحم (٥٤٠/٤)، وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٠٦)، عن ابن عمر.

(٢) رواه أحمد (٣٨٠٩)، وقال مخرجه: صحيح لغيره. وأبو يعلى (٤٩٨١)، وابن حبان في الحدود (٤٤١٠)، وعزاه المنذري في الترغيب والترهيب (٢٨٥٦)، والهيتمي في مجمع الزوائد (٦٥٨١): لأبي يعلى فقط، وجود إسناده.

حولاً ولا قوة، وكما يفعله بعض الأشرار الذين يخطفون النساء من الطريق، ويركبنهن سياراتهم بالحديد والنار، ويرتكبون معهن الفاحشة، ثم يلقونهن بعد ذلك عظمًا، بعد أن أكلوهن لحمًا، ولهذا ذهب كثير من علماء العصر إلى أنَّ عقوبة هؤلاء يجب أن تكون القتل، ردعًا وزجرًا، وهو ما نرجّحه.

وما نقوله في الزنى نقوله في غيره، مثل القتل، فالقتل كله من الموبقات، ولكن قتل المؤمن الصالح أشد وأعظم من قتل المسلم العاصي أو المخلّط، وقتل المسلم الداعية إلى الله أشد من قتل المسلم العادي، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

وقتل الأطفال البراء أشد من قتل الكبار، كما ذكر القرآن على لسان موسى للعبد الصالح: ﴿أَقْنَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤].

وقتل الأولاد من الأطفال أشد نكرًا؛ لأنه قتل وقطع رحم، فإذا قتلهم من أجل الإملاق أو خشية الإملاق كانت الجريمة أعظم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

فإذا كان القتل بطريق «الوَاد» كما كانوا يفعلون بالبنات في الجاهلية كان الجرم أبشع وأشنع ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِلَتْ﴾﴾ [التكوير: ٨، ٩].

وانظر إلى ذنب مثل الكذب، فلا شك أن الكذب كله حرام، ولكن إثمه يتفاوت ويتعاضم بسبب وآخر، فكذب الملوك والحكام ممّا يشتدُّ

بغض الله له، وقد جاء في «الصحيح» أَنَّ أَحَدَ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: «مَلِكٌ كَذَّابٌ»^(١).

ومن ذلك: الكذب في «الشهادة» لما يترتب عليها من تضليل العدالة، وتضييع الحقوق، وزرع الشر في المجتمع، ولذا عدّها الحديث المتفق عليه من أكبر الكبائر.

ومن ذلك: الكذب في اليمين، لما فيها من استهانة باسم الله تعالى والقسم به، وما ينشأ عن ذلك من ضياع الأموال والدماء والأعراض، ولهذا سُمِّيت اليمين الفاجرة، واليمين الغموس؛ لأنّها تغمس صاحبها في الإثم في الدنيا، وفي النَّار في الآخرة، ولهذا عدّت في الكبائر.

ومن ذلك: الكذب في الرؤيا: أن يُري الرجل عينيه ما لم تريا، كما صحّ في الحديث^(٢)، لما فيها من كذب على الناس، في أمر قد يؤثّر في أفكار الناس وميولهم.

وأكبر من ذلك: الكذب على رسول الله باختراع أحاديث لم يقلها، وقد تواتر عنه ﷺ: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ ككَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، مِنْ كَذِبٍ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(٣).

وأكبر وأكبر: من كذب على الله تعالى بادّعاء النبوة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

(١) سبق تخريجه ص ٢١٥.

(٢) إشارة إلى حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ، قال: «إِنْ مِنْ أَفْرَى الْفَرَى أَنْ يُرَى عَيْنِي مَا لَمْ تَرَ». رواه البخاري في التعبير (٧٠٤٣).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الجناز (١٢٩١)، ومسلم في المقدمة (٤)، عن المغيرة بن شعبه.



وهكذا نجد الذنوب كلها قابلة لأن تتعاضم وتتعاظم، ويتضاعف
إثمها وعقوبتها عند الله، بأسباب وملا بسات شتّى تنضم إليها، فيكبر
ضررها، ويتفاقم أثرها.

* * *



مكفّرات الذنوب

من فضل الله تعالى علينا، ورحمته بنا: أنّه تعالى علم ضعفنا، كما قال سبحانه: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

وقد علم الله سبحانه أنّ هذا الضعف الذي جبل عليه الإنسان، سيدفع بالإنسان إلى المعصية، كما وقع لأبيه الأول آدم عليه السلام ومن هنا أتاح لنا وَعَلَى فرصة بعد فرصة للتطهّر من أوساخ هذه المعاصي والذنوب، فجعل لنا مغاسل أو «حمامات» عدة متنوعة، نغتسل فيها من الخطايا التي تغلب إرادتنا، وينهزم فيها باعث الدين أمام باعث الهوى، وينتصر فيها الشيطان على الإنسان.

وقد عبّر ابن القيم رحمه الله عن هذه المكفّرات بـ «الأنهار»، يغتسل فيها المذنب من خطايا نهاراً بعد نهار، حتّى يتطهّر تماماً من كل درن.

وفي عصرنا أصبحت الأنهار تلوّث من يغتسل فيها أكثر ممّا تطهّره، نظراً لكثرة ما يلقي فيها من الفضلات والنفايات والقاذورات، حتّى إنّ الجهات الصحيّة والبيئيّة لتحذّر من مياه هذه الأنهار، ولهذا أثرت أن أستخدم لفظاً أكثر تعبيراً عن المقصود في زمننا، وهو لفظ «الحمامات» التي يدخلها الناس ليتنظفوا ويتطهّروا.

وحاجة الإنسان إلى التطهّر المعنوي من الذنوب: أشدُّ من حاجته إلى التطهّر الحسّي من الأوساخ.

وبعض هذه الذنوب والخطايا: لا يكاد يسلم منها أحد، ومن سلم منها اليوم وقع في شراكها في الغد، سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، فكل بني آدم خطّاء.

هذه الحمّامات الروحية المتاحة لكل إنسان: بعضها يومي، كالصلوات الخمس، وبعضها أسبوعي كصلاة الجمعة، وبعضها شهري، كصيام الأيام البيض من كل شهر، وبعضها سنوي كصيام رمضان، وبعضها عُمرى، كفريضة الحج، الذي يجب في العمر مرة واحدة، وبعضها مرهون بظروفه مثل الهجرة والجهاد، وبعضها مفتوح ومتاح أبداً، مثل التَّوْبَةِ والاستغفار، وذكر الله ونوافل العبادات.

وسنتحدث عن هذه «المكفّرات» أو «الحمّامات» في الصفحات التالية، حتّى يحاول كل من دنسته الذنوب أن يغسل نفسه منها، ليكون من التَّوَّابِينَ ومن المتطهّرين الذين يحبُّهم الله وَجَلَّ.

١ - حمام التوبة:

أول هذه الحمامات هو: التَّوْبَةُ، فَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ ثَمَرَاتِهَا: تكفير السيئات ومغفرة الذنوب، فهي تجبُّ ما قبلها من الذنوب وتهدمه، كما أَنَّ الْإِسْلَامَ يَجِبُّ مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْجَاهِلِيَّةِ وَيُهْدِمُهُ.

يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ ۖ﴾ [التحریم: ٨] فجعل تكفير السيئات أولى ثمرات التَّوْبَةِ.

وقد مرّ بنا حديث: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»^(١).

ونؤكد هنا ما ذكرناه من قبل، وهو الاستمرار في التوبة، وتكرارها كلما تكرر الذنب، ولا يئس أبداً، فإنه لا يئس من روح الله إلا القوم الكافرون.

روى الحاكم، عن عقبة بن عامر، أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، أخطأنا يذنب! فقال: «يُكتب عليه». قال: ثم يستغفر! قال: «يغفر له ويتاب عليه». قال: فيعود فيذنب! قال: «يُكتب عليه». قال: ثم يستغفر منه ويتوب! قال: «يُغفر له ويتاب عليه، ولا يمل الله حتى تملوا»^(٢).

روى ابن أبي الدنيا، عن علي رضي الله عنه قال: خياركم كل مفتن تواب (والمفتن: الذي يُفتن ويبتلى بالذنب حيناً بعد حين. والتواب: الذي يتوب من الذنب مرة بعد مرة). قيل لعلي: فإن عاد؟ قال: يستغفر الله ويتوب. قيل: فإن عاد؟ قال: يستغفر الله ويتوب. قيل: حتى يكون الشيطان هو المحسور^(٣)! أي المغلوب اليأس.

وقال الإمام الغزالي: «فإن تبت ثم نقضت التوبة، وعدت إلى الذنب ثانياً، فعد إلى التوبة مبادراً، وقل لنفسك: لعلي أموت قبل أن أعود إلى الذنب هذه المرة. وكذلك ثالثاً ورابعاً، وكما اتخذت الذنب والعود إليه حرفة، فاتخذ التوبة والعود إليها حرفة، فلا تكن في التوبة أعجز منك

(١) سبق تخريجه ص ٣٦.

(٢) رواه الحاكم (٥٩/١)، وصحّحه على شرط الشيخين، وصحّحه الذهبي على شرط البخاري، والطبراني في الكبير (٢٨٧/١٧) والأوسط (٨٦٨٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٥٣٠): رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وإسناده حسن.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في التوبة (١٧٧)، تحقيق مجدي السيد إبراهيم، نشر مكتبة القرآن، مصر.

في الذنب، ولا تيئس، ولا يمنعك الشيطان من التَّوْبَةِ سبب ذلك، فإنَّه دلالة الخير»^(١).

٢ - حمام الاستغفار:

والحمام الثاني هو: الاستغفار، وهو مكمل للتوبة، بل هو التَّوْبَةُ نفسها إذا صدق، ولذا يقتربان، ويفرد أحدهما فيعبر به عن الآخر معه، كما ذكرنا قبل. وقد جاء عن أنس قال: بلغني أنَّ إبليس حين نزلت هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥] بكى «اللعين»^(٢).

وقال ابن مسعود: هذه الآية خير لأهل الذنوب من الدنيا وما فيها^(٣). وذكر العلامة ابن رجب في «العلوم والحكم» قال: قال أبو هريرة: إنِّي لأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم ألف مرة، وذلك على قدر ديتي^(٤).

عَبَّرَ بِالْأَلْفِ عَمَّا يُطْلَبُ مِنْهُ مَقَابِلُ الذُّنُوبِ.

وقالت عائشة: طوبى لمن وُجِدَ في صحيفته استغفارًا كثيرًا^(٥).

وقال أبو المنهال: ما جاور عبد في قبره من جارٍ أحب إليه من استغفار كثير^(٦).

(١) منهاج العابدین للغزالي ص ٨٠، تحقيق محمود مصطفى حلاوي، نشر دار الرسالة، ط ١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

(٢) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٤٦٢)، تحقيق د. محمود محمد عبده، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ.

(٣) ذكره ابن المنذر في تفسيره (٣٨٦/١).

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٨٣/١).

(٥) رواه البيهقي في الشعب (٦٣٧) مرفوعًا وموقوفًا، وصحَّح الموقوف.

(٦) رواه أحمد في الزهد (١٩٢٠).

وبالجملة فدواء الذنوب: الاستغفار، وعن أبي ذرٍّ: إِنَّ لكلِّ داءٍ دواءً،
وإنَّ دواءَ الذنوبِ الاستغفارُ^(١).

وقال قتادة: إِنَّ هذا القرآن يدلُّكم على داءكم ودوائكم، فأما داءكم
فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار^(٢).

وقال بعضهم: إِنَّمَا معول المذنبين البكاء والاستغفار، فمن أهمته
ذنوبه، أكثر لها من الاستغفار.

قال رياح القيسي: لي نَيْفٌ وأربعون ذنبًا، قد استغفرت الله لكلِّ ذنبٍ
مائة ألف مرَّة^(٣).

وحاسب بعضهم نفسه من وقت بلوغه، فإذا زلَّاته لا تجاوز ستًّا
وثلاثين زلَّةً، فاستغفر الله لكلِّ زلَّةٍ مائة ألف مرة، وصلى لكلِّ زلَّةٍ ألف
ركعة، قال: ومع ذلك، فإنِّي غير آمنٍ سَطوةً ربي أن يأخذني بها، وأنا
على خطرٍ من قبول التَّوبة.

وقيل للحسن: ألا يستحيي أحدنا من ربه، يستغفر من ذنوبه، ثم
يعود، ثم يستغفر، ثم يعود؟! فقال: ودَّ الشيطان لو ظفر منكم بهذه،
فلا تملُّوا من الاستغفار^(٤). ورؤي عنه أنَّه قال: ما أرى هذا إلَّا من أخلاق
المؤمنين^(٥)، يعني: أنَّ المؤمن كلما أذنب تاب.

وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته: من أحسن منكم، فليحمد الله،

(١) رواه الحاكم في البر والصلة (٢٤١/٤)، وصحَّحه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٦٧٤٥).

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (١٩٤/٦).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في التوبة (١٤٧).

(٥) رواه أحمد في الزهد (١٦٠٩).

ومن أساء، فليستغفر الله، فَإِنَّهُ لَا بَدَّ لِأَقْوَامٍ مِنْ أَنْ يَعْمَلُوا أَعْمَالًا وَظَفَهَا اللَّهُ فِي رِقَابِهِمْ، وَكَتَبَهَا عَلَيْهِمْ^(١)، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ أَلَمَّ بِذَنْبٍ، فَلْيَسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَلْيَتُبْ، فَإِنْ عَادَ، فَلْيَسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَلْيَتُبْ، فَإِنْ عَادَ، فَلْيَسْتَغْفِرِ اللَّهَ وَلْيَتُبْ، فَإِنَّمَا هِيَ خَطَايَا مَطْوَوَّةٌ فِي أَعْنَاقِ الرِّجَالِ، وَإِنَّ الْهَلَاكَ كُلَّ الْهَلَاكَ فِي الْإِصْرَارِ عَلَيْهَا^(٢).

ومعنى هذا: أَنَّ الْعَبْدَ لَا بَدَّ أَنْ يَفْعَلَ مَا قَدَرَ عَلَيْهِ مِنَ الذُّنُوبِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حُطُّهُ مِنَ الزَّنَى، فَهُوَ مَدْرُكُ ذَلِكَ لَا مُحَالَةَ»^(٣). وَلَكِنَّ اللَّهَ جَعَلَ لِلْعَبْدِ مَخْرَجًا مِمَّا وَقَعَ فِيهِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَمَحَاهُ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، فَإِنْ فَعَلَ، فَقَدْ تَخَلَّصَ مِنْ شَرِّ الذَّنْبِ، وَإِنْ أَصْرَرَ عَلَى الذَّنْبِ، هَلَكَ.

وَيُرَوَّى عَنْ لُقْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، عَوِّدْ لِسَانَكَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، فَإِنَّ لِلَّهِ سَاعَاتٍ لَا يَرُدُّ فِيهَا سَائِلًا^(٤).

وَقَالَ الْحَسَنُ: أَكْثَرُوا مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ فِي بَيُوتِكُمْ، وَعَلَى مَوَائِدِكُمْ، وَفِي طَرِيقِكُمْ، وَفِي أَسْوَاقِكُمْ، وَفِي مَجَالِسِكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ، فَإِنَّكُمْ مَا تَدْرُونَ مَتَى تَنْزِلُ الْمَغْفِرَةُ^(٥).

وَرَوَى ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي كِتَابِ «حَسَنِ الظَّنِّ» - بِسَنْدٍ ضَعِيفٍ^(٦) - مِنْ

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٦٢٣٠).

(٢) رواه ابن عساکر في تاريخ دمشق (٢٤٨/٢٥)، تحقيق عمرو بن غرامة العمري، نشر دار الفكر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

(٣) سبق تخريجه ص ١٩٢.

(٤) ذكره ابن أبي الدنيا في كلام الليالي والأيام ص ١٦، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، نشر دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في التوبة (١٥٨).

(٦) لضعف عبد الله بن جعفر بن نجیح السعدي أحد رواة، ورقم الحديث (١٠٧).

حديث أبي هريرة مرفوعاً: «بينما رجل مستلقٍ، إذ نظر إلى السماء وإلى النجوم، فقال: إِنِّي لأعلم أَنَّ لك ربًّا خالقًا، اللهم اغفر لي، فغفر له»^(١).

وعن مورّق قال: كان رجل يعمل السيئات، فخرج إلى البرية، فجمع ترابًا، فاضطجع عليه مستلقيًا، فقال: رب اغفر لي ذنوبي. فقال: إِنَّ هذا ليعرف أَنَّ له ربًّا يغفر ويعذب، فغفر له.

وروى أبو نعيم في «الحلية» عن مغيث بن سُميٍّ، قال: بينما رجل خبيث، فتذكر يومًا، فقال: اللهم غفرانك، اللهم غفرانك، اللهم غفرانك! ثم مات، فغفر له^(٢).

قال العلامة ابن رجب: «ومن زاد اهتمامه بذنوبه، فربما تعلّق بأذيال من قلّت ذنوبه، فالتمس منه الاستغفار، وكان عمر يطلب من الصبيان الاستغفار، ويقول: إِنَّكم لم تذنّبوا! وكان أبو هريرة يقول لغلمان الكتّاب: قولوا: اللهم اغفر لأبي هريرة. فيدعون فيؤمّن على دعائهم.

قال بكر المزني: لو كان رجل يطوف على الأبواب كما يطوف المسكين يقول: استغفروا لي، لكان له أن يفعل.

ومن كثرت ذنوبه وسيئاته حتّى فاتت العدّ والإحصاء، فليستغفر الله ممّا علم الله، فإنّ الله قد علم كل شيء وأحصاه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴿[المجادلة: ٦]، وفي حديث شداد بن أوس، عن النبي ﷺ: «أسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شرّ ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إِنَّك أنت علّام الغيوب»^(٣).

(١) رواه ابن أبي الدنيا في حسن الظن (١٠٧).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٦٨/٦).

(٣) رواه أحمد (١٧١١٤)، وقال مخرّجوه: حسن بطرقه. والترمذي في الدعوات (٣٤٠٧)، =



وفي هذا يقول بعضهم:

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِمَّا يَعْلَمُ اللَّهُ إِنَّ الشَّقِيَّ لَمَنْ لَا يَرْحَمُ اللَّهُ
مَا أَحْلَمَ اللَّهُ عَمَّنْ لَا يَرِاقِبُهُ كُلُّ مُسِيٍّ وَلَكِنْ يَحْلُمُ اللَّهُ
فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِمَّا كَانَ مِنْ زَلَلٍ طُوبَى لِمَنْ كَفَّ عَمَّا يَكْرَهُ اللَّهُ^(١)

٣ - حمام الحسنات والطاعات:

والحمام الثالث الذي يغتسل فيه المذنب من ذنوبه هو: حمام الحسنات والطاعات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِيَّاتِ﴾ [هود: ١١٤].

وكما قال ﷺ في وصيته لأبي ذرٍّ: «وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا»^(٢).

وقد بيَّنا ذلك بإجمال في حديثنا عن «مقومات التوبة»، وذكرنا رأي الإمام الغزالي في محو السيئات بما يضادها من الحسنات من جنسها، وذكرنا أمثلة عدة لذلك، وهنا نذكر تفصيلات أكثر للحسنات والطاعات التي يبدها نورها ظلمات المعاصي، كما تشرق الشمس، فتزيل دجى الليل.

التوحيد والخلوص من الشرك:

على رأس قائمة الحسنات: التوحيد، فهو حسنة الحسنات، وأساس الطاعات، ولا يكفي فيه «توحيد الخالقية» أو «الربوبية»، فقد كان مشركو

= وابن حبان في الرقائق (٩٣٥)، والحاكم في الدعاء (٥٠٨/١)، وصحَّحه على شرط مسلم، وقال ابن حجر في نتائج الأفكار (٧٧/٣) بعد أن ذكره من عدة طرق: هذه طرق يقوي بعضها بعضاً يمتنع معها إطلاق القول بضعف الحديث.

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (٤١٥/١، ٤١٦).

(٢) سبق تخريجه ص ٧١.

العرب يَقْرُون به، ولكن لا بدّ من «توحيد الإلهية»، بمعنى: أن لا يُعبد إلا الله، وهو التوحيد الذي أنزل الله به كتبه، وبعث به رسله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فإقامة التوحيد، والخلوص من الشرك: أعظم أسباب مغفرة الذنوب، وأمّا الشُّرك، فهو المانع الأول من المغفرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وقد روى مسلم عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله تعالى: من تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا.. ومن لقيني بقرب الأرض - أي بملئها أو ما يقاربه - خطيئة، لا يشرك بي شيئًا، لقيته بمثلها مغفرة»^(١).

وروى الترمذي عن أنس في الحديث القدسي أيضًا: «يا ابن آدم، لو أتيتني بقرب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا، لأتيتك بقربها مغفرة»^(٢).

المهم أن يتحقق الشرط وهو: ألا يشرك بالله شيئًا، لا حجرًا، ولا شجرًا، ولا شمسًا ولا قمرًا، ولا جنًا ولا بشرًا، فيتحرّر من الشرك كله، أكبره وأصغره، جليه وخفيه، ومن عبادة كل ما سوى الله: من عبادة الأشياء، وعبادة الأشخاص، وعبادة الذات: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وبهذا يحقق معنى «لا إله إلا الله» في نفسه وفي حياته، فيعبد الله وحده، ويجتنب الطاغوت.

(١) سبق تخريجه ص ١٤١.

(٢) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٤٠)، وقال: حسن غريب. والطبراني في الأوسط (٤٣٠٥).



يقول الحافظ ابن رجب: «فمن تحقّق بكلمة التوحيد قلبه: أخرجت منه كل ما سوى الله؛ محبةً، وتعظيمًا وإجلالًا، ومهابةً وخشيةً، ورجاءً وتوكلًا، وحينئذ تحرق ذنوبه وخطاياها كلها، ولو كانت مثل زبد البحر، وربما قلبتها حسنات، فإنّ هذا التوحيد هو الأكسير الأعظم، فلو وضع ذرّة منها على جبال الذنوب والخطايا، لقلبها حسنات.

وفي «المسند»، عن شداد بن أوس وعُبادة بن الصامت، أنّ النبي ﷺ قال لأصحابه: «ارفعوا أيديكم، وقولوا: لا إله إلا الله». فرفعنا أيدينا ساعة، ثم وضع رسول الله ﷺ يده ثم قال: «الحمد لله، اللهم بعثني بهذه الكلمة، وأمرتني بها، ووعدتني الجنة عليها، وإنّك لا تخلف الميعاد». ثم قال: «أبشروا، فإنّ الله قد غفر لكم»^(١).

وليس المراد: أن يقولها المرء من طرف لسانه، فالمنافقون يقولونها، وإنّما المطلوب أن يتواطأ القلب واللسان، حتّى تؤتي أكلها، وتحقق أثرها.

إحسان الوضوء والصلاة:

ومن هذه الحسنات والطاعات: إحسان الوضوء، وإتمام الصلاة، العبادة اليومية التي تجعل المسلم على موعد مع ربّه كل يوم خمس مرّات.

روى الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما من رجل يذنب ذنبًا،

(١) جامع العلوم والحكم (٤١٧/٢). والحديث رواه أحمد (١٧١٢١)، وقال مخرّجه: إسناده ضعيف. والبخاري (٢٧١٧)، والطبراني (٣٤٧/٧)، والحاكم في الدعاء والتكبير (٥٠١/١)، وصحّحه، وتعقبه الذهبي: فيه راشد بن داود ضعفه الدارقطني وغيره ووثقه دحيم، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٢٣٥١)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد في موضعين (٢٣): رواه أحمد والطبراني والبخاري، ورجاله موثقون. وقال في الموضع الثاني (١٦٧٩٨): رواه أحمد، وفيه راشد بن داود، وقد وثقه غير واحد، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات.

ثم يقوم فيتطهر ثم يصلي، ثم يستغفر الله، إِلَّا غفر الله له». ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥] ^(١).

وفي «الصحيحين»، عن عثمان أنه توضأ ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه» ^(٢).

وفي «مسند الإمام أحمد»، عن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من توضأ فأحسن الوضوء، ثم قام فصلّى ركعتين أو أربعاً، يحسن فيهما الركوع والخشوع، ثم استغفر الله؛ غفر له» ^(٣).

وفي «الصحيحين»، عن أنس قال: كنت عند النبي ﷺ، فجاءه رجل، فقال: يا رسول الله إنني أصبت حداً، فأقمه عليّ. قال: ولم يسأله عنه، فحضرت الصلاة، فصلّى مع النبي ﷺ، فلما قضى النبي ﷺ الصلاة قام إليه الرجل فقال: يا رسول الله، إنني أصبت حداً، فأقم فيّ كتاب الله، قال: «أليس قد صليت معنا؟». قال: نعم. قال: «فإن الله قد غفر لك ذنبك». أو قال: «حدك» ^(٤).

(١) سبق تخريجه ص ٨٦.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الوضوء (١٥٩، ١٦٤)، ومسلم في الطهارة (٢٢٦).

(٣) رواه أحمد (٢٧٥٤٦)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. والطبراني في الدعاء (١٨٤٨)، وحسن إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (٣٦٦٧).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الحدود (٦٨٢٣)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٤) وقوله: «أصبت حداً». قال النووي في شرح مسلم (٨١/١٧): هذا الحد معناه معصية من المعاصي الموجبة للتعزير، وهي هنا من الصغائر؛ لأنها كفرتها الصلاة، ولو كانت كبيرة موجبة لحد أو غير موجبة له لم تسقط بالصلاة.

ويرى ابن القيم أن الذي أسقط هذه الكبيرة هو: التوبة، وقوله: «فأقمه عليّ». يدل على أنه من العقوبات التي تقام على الجاني.

وخرّجه مسلم بمعناه من حديث أبي أمامة^(١).

وفي «الصحيحين»، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «أرأيتم لو أنّ نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟». قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهنّ الخطايا»^(٢).

وفي «صحيح مسلم»، عن عثمان، عن النبي ﷺ قال: «من توضأ فأحسن الوضوء، خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره»^(٣).

وفيه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟». قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»^(٤).

ومن الصلوات التي لها أهمية خاصة: صلاة الجمعة. ففي «صحيح مسلم»، عن أبي هريرة، أنّ النبي ﷺ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفّرات لما بينهنّ إذا اجتنب الكبائر»^(٥).

(١) رواه مسلم في التوبة (٢٧٦٥).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٨)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٦٧).

(٣) رواه مسلم في الطهارة (٢٤٥).

(٤) رواه مسلم في الطهارة (٢٥١).

(٥) سبق تخريجه ص ١٩٠.

وفي «مسند أحمد»، عن سلمان، عن النبي ﷺ: «لا يتطهر الرجل - يعني يوم الجمعة - فيحسن طهوره، ثم يأتي الجمعة فينصت، حتى يقضي الإمام صلاته، إلا كان كفارة ما بينه وبين الجمعة المقبلة، ما اجتنبت المقتلة»^(١).

والمراد بالمقتلة: الكبائر التي توبق الإنسان، وتعرضه لعذاب الله.

ومن هذه الصلوات المكفرة: قيام الليل، وفي الحديث: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى الله تعالى، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردة للداء عن الجسد»^(٢).

الصيام والصدقة والحج:

وللعبادات الأخرى أثرها في التطهير والتكفير: من الصيام والصدقة والحج والعمرة.

وفي «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من قام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٣)، ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٤).

(١) رواه أحمد (٢٣٧١٨)، وقال مخرّجوه: حديث صحيح. والنسائي في الكبرى في الجمعة (١٦٧٧).

(٢) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٤٩)، وقال: حديث غريب لا نعرفه من حديث بلال إلا من هذا الوجه ولا يصح من قبل إسناده. والبيهقي في الصلاة (٥٠٢/٢)، عن بلال. ورواه الترمذي في الدعوات عقب حديث بلال (٣٥٤٩)، وقال: هذا أصح من حديث أبي إدريس عن بلال. وابن خزيمة في الصلاة (١١٣٥)، والطبراني (٩٢/٨)، والحاكم في الوتر (٣٠٨/١)، وصحّحه على شرط البخاري، عن أبي أمامة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٣٧)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٥٩).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الصوم (١٩٠١)، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٦٠).

وهكذا جعل الثواب الموعود هنا لمن فعل ذلك «إيمانًا واحتسابًا»، أي تصديقًا بوعده سبحانه، وابتغاءً للمثوبة عنده.

وفيهما عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «من حجَّ هذا البيت، فلم يرفث، ولم يفسق، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»^(١).

فهذه التَّوْبَةُ ليست لكلِّ حاج، ولكن لمن حجَّ فلم يرفث ولم يفسق.

وفي «صحيح مسلم»، عن عمرو بن العاص، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله، وإنَّ الهجرة تهدم ما كان قبلها، وإنَّ الحج يهدم ما كان قبله»^(٢).

وفي «الصحيحين»: «العمرة إلى العمرة: كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلاَّ الجنة»^(٣). وفي النسائي: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنَّهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد»^(٤).

وفي «صحيح مسلم»، من حديث أبي قتادة، عن النبي ﷺ قال في صوم عاشوراء: «أحتسب على الله أن يكفِّر السنَّة التي قبله»، وقال في صوم يوم عرفة: «أحتسب على الله أن يكفِّر السنَّة التي قبله والتي بعده»^(٥).

وروى الإمام أحمد، من حديث عقبة بن عامر، عن النبي ﷺ قال: «مثل الذي يعمل السيئات، ثم يعمل الحسنات، كمثل رجل كانت عليه

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٨١٩)، ومسلم (١٣٥٠)، كلاهما في الحج.

(٢) سبق تخريجه ص ٦١.

(٣) رواه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩)، كلاهما في الحج، عن أبي هريرة.

(٤) رواه النسائي في الحج (٢٦٣٠)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٩٠٠)، عن ابن عباس.

(٥) رواه مسلم في الصيام (١١٦٢).

درع ضيقة قد خنقته، ثم عمل حسنة فانفكت حلقة، ثم عمل حسنة أخرى، فانفكت أخرى، حتّى يخرج إلى الأرض»^(١).

وروى الترمذي، من حديث معاذ بن جبل الطويل، وقال: حسن صحيح: «الصّدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النّار»^(٢).

ذكر الله:

وممّا يكفر الخطايا: ذكر الله ﷻ، وخصوصاً إذا تواطأ عليه القلب واللسان: سواء كان ذكر ثناء أم ذكر دعاء قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

ومن هذا الذكر: التسبيح والتهليل (قول: لا إله إلا الله) والتحميد (الحمد لله) والتكبير، والحوقة (لا حول ولا قوة إلا بالله).

وفي «الصحيحين»، عن أبي هريرة رضي عنه، عن النبي صلّى الله عليه وآله قال: «من قال: سبحان الله وبحمده، في يومه مائة مرة، حُطَّت خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر»^(٣).

وفيهما عنه، عن النبي صلّى الله عليه وآله قال: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك

(١) سبق تخريجه ص ٤٠.

(٢) رواه الترمذي في الإيمان (٢٦١٦)، وأحمد (٢٢٠١٦)، وقال مخرّجوه: صحيح بطرق وشواهده. وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٣)، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٥١٣٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٤٠٥)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة (٢٦٩٢).

حَتَّى يَمْسِيَ، وَلَمْ يَأْت أَحَدٌ بِأَفْضَل مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَفْضَلَ
مِنْ ذَلِكَ»^(١).

وخرَّج الإمام أحمد بإسناد صحيح عن أنس أن رسول الله ﷺ قال:
«إِنَّ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدَ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ: تَنْفُضُ الْخَطَايَا
كَمَا تَنْفُضُ الشَّجَرَةَ وَرَقَهَا»^(٢).

والأحاديث في هذا كثيرة جدًا يطول الكتاب بذكرها.

وسئل الحسن عن رجل لا يتحاشى من معصية إلا أن لسانه لا يفتر
من ذكر الله، فقال: إن ذلك لعون حسن^(٣).

وسئل الإمام أحمد عن رجل اكتسب مالاً من شبهة: صلاته وتسبيحه
يحط عنه شيئاً من ذلك؟ فقال: إن صَلَّى وسبح يريد به ذلك، فأرجو،
قال الله تعالى: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾
[التوبة: ١٠٢].

وقال مالك بن دينار: البكاء على الخطيئة يحطُّ الخطايا، كما تحطُّ
الريح الورق اليابس^(٤).

وقال عطاء: من جلس مجلساً من مجالس الذكر، كفر به عشرة
مجالس من مجالس الباطل.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٩٣)، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة (٢١٩١).
(٢) رواه أحمد (١٢٥٣٤)، وقال مخرَّجوه: إسناده حسن في المتابعات والشواهد. والبخاري في
الأدب المفرد (٦٣٤)، والطبراني في الدعاء (١٦٨٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع
(٢٠٨٩).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في التوبة (١٤٨).

(٤) المصدر السابق (١٩١).

ولمّا سئل عطاء: ما مجلس الذكر؟ قال: مجلس الحلال والحرام، وكيف تصلي، وكيف تصوم، وكيف تنكح، وكيف تطلق وتبيع وتشتري (يعني: مجلس الذكر هو مجلس العلم)^(١).

البر والصلة:

ومن مكفّرات الذنوب: بر الوالدين، وصلة الرحم، وبخاصة بر الوالدين في حالة الكبر، وفي الحديث أنّ جبريل عليه السلام دعا على من أدرك أبويه عند الكبر أو أحدهما، فلم يغفر له، وأمن عليه النبي ﷺ^(٢).

وروى الإمام أحمد والترمذي من حديث ابن عمر أنّ رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنني أصبت ذنباً عظيماً، فهل لي من توبة؟ قال: «هل لك من أم؟». قال: لا. قال: «هل لك من خالة؟». قال: نعم. قال: «فبرّها»^(٣).

وروي عن عمر أنّ رجلاً قال له: قتلت نفساً! قال: أمك حيّة؟ قال: لا، قال: فأبوك؟ قال: نعم. قال: فبرّه وأحسن إليه. ثم قال عمر: لو كانت أمه حيّة فبرّها، وأحسن إليها، رجوت ألا تطعمه النار أبداً^(٤).

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/٣١٣).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٦٤٦)، وابن خزيمة في الصيام (١٨٨٨)، وابن حبان في الرقائق (٩٠٧)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن. وقال الألباني في صحيح الترغيب (٩٩٧): حسن صحيح. عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (٤٦٢٤)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والترمذي في البر والصلة (١٩٠٤) مرفوعاً ومرسلاً ورجّح المرسل، وابن حبان في البر والإحسان (٤٣٥)، والحاكم في البر والصلة (١٥٥/٤)، وصحّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٤) رواه ابن الجوزي في البر والصلة (٥٢)، تحقيق عادل عبد الموجود وعلي معوض، نشر مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

وعن ابن عَبَّاسٍ معناه أيضًا^(١).

وكذلك المرأة التي عملت بالسحر بدوامة الجندل، وقدمت المدينة تسأل عن توبتها، فوجدت النبي ﷺ قد تُوفِّي، فقال لها أصحابه: لو كان أبواك حيَّين أو أحدهما كانا يكفيانك. رواه الحاكم^(٢)، وقال: فيه إجماع الصحابة حدثان وفاة الرسول على أنَّ برَّ الوالدين يكفيانها.

الإحسان إلى الخلق:

ومن الحسنات والطاعات المكفِّرة للذنوب: فعل الخيرات، والإحسان إلى خلق الله، والرحمة بهم جميعًا من إنسان وحيوان.

فالراحمون يرحمهم الرحمن، ومن رحم من في الأرض رحمه من في السماء. وقد ذكرنا في تأثير العبادات أنَّ الصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النَّارَ، وقد قال الرسول الكريم: «كُلُّ معروفٍ صدقة». رواه الشيخان^(٣).

وقد صحَّ عن أبي موسى أَنَّهُ لَمَّا حضرته الوفاة قال: يا بَنِيَّ، اذكروا صاحب الرغبة: كان رجل يتعبد في صومعة - أراه - سبعين سنة، فشبهه الشيطان في عينه امرأة، فكان معها سبعة أيام وسبع ليال، ثم كُشف عن الرجل غطاؤه، فخرج تائبًا. ثم ذكر أَنَّهُ بات بين مساكين، فتصدَّق عليهم برغيف رغيف، فأعطوه رغيفًا، ففقدته صاحبه الذي كان يُعطاه، فلمَّا علم

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٤)، وقال الألباني في الصحيحة (٧١١/٦): صحيح على شرط الشيخين.

(٢) رواه الحاكم في البر والصلة (١٥٦/٤)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه البخاري في الأدب (٦٠٢١) عن جابر، ومسلم في الزكاة (١٠٠٥) عن حذيفة.

بذلك أعطاه الرغيف، وأصبح ميّئاً! فؤزنت السبعون سنة بالسبع ليال، فرجحت الليالي، ووزن الرغيف بالسبع الليال، فرجح الرغيف^(١)! وهذا وإن كان موقوفاً على أبي موسى، فله حكم الحديث المرفوع؛ لأنّه ممّا لا مجال للرأي فيه.

ولا يقتصر تكفير السيئات على الإحسان إلى النّاس والعقلاء، بل الإحسان إلى البهائم والحيوانات والرفق بها ممّا تغفر به الذنوب.

ومن أبرز النماذج الدالة على ذلك: هذا النموذج الحي الذي قصّه علينا النبي ﷺ من قصص السابقين، فيما رواه عنه أبو هريرة، قال ﷺ: «غُفِرَ لامرأة مومسة - بَغِيٍّ - مرّت بكلب على رأس رَكِيٍّ - بئر - يلهث، كاد يقتله العطش، فنزعت خُفَّها، فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فغُفِرَ لها بذلك»^(٢). قيل: إنّ لنا في البهائم أجراً؟ قال: «في كلّ ذات كبدٍ رطوبةً أجر»^(٣).

وكُنّي برطوبة الكبد عن الحياة، أي في الإحسان إلى كلّ كائنٍ حيٍّ أجر. فرغم الماضي الخبيث لهذه المرأة التي كانت تحترف البغاء والتكسّب بفرجها، فغفر الله لها بهذه الفعلة العظيمة التي قامت بها، والتي دلّت على أنّ حِرْفَتها السيئة لم تطفئ كل ما في قلبها من النور، ولم تقتلع كل ما فيه من جذور الخير، وقد بدا ذلك فيما قامت به من جهد لسقي الكلب وإرواء عطشه، وإنقاذ حياته.

(١) رواه ابن أبي شيبة في ذكر رحمة الله (٣٥٣٥٣).

(٢) رواه البخاري في بدء الخلق (٣٣٢١)، عن أبي هريرة.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم والغصب (٢٤٦٦)، ومسلم في السلام (٢٢٤٤)، عن أبي هريرة.

وفي مقابل هذه الرحمة التي أوجبت لها المغفرة، نجد امرأةً أخرى انتهت بها «قسوة القلب» إلى عذاب جهنم، وبئس المصير، وذلك فيما رواه ابن عمر وأبو هريرة قالا: قال رسول الله ﷺ: «عُذِّبَتْ امرأةٌ في هَرَّةٍ أَمْسَكْتَهَا حَتَّى مَاتَتْ مِنَ الْجُوعِ، فَلَمْ تَكُنْ تَطْعَمُهَا، وَلَا تَرْسُلُهَا فَتَأْكُلَ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ». أي من هوائها وحشراتهما. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ^(١).

هل تكفر الأعمال الصالحة الكبائر؟

قال ابن رجب: «وقد اختلف الناس: هل تكفر الأعمال الصالحة الكبائر والصغائر أم لا تكفر سوى الصغائر؟ فمنهم من قال: لا تكفر سوى الصغائر، وقد رُوي هذا عن عطاء وغيره من السلف في الوضوء أنه يكفر الصغائر، وقال سلمان الفارسي في الوضوء: إنه يكفر الجراحات الصغار، والمشي إلى المساجد يكفر أكبر من ذلك، والصلاة تكفر أكبر من ذلك، أخرجه محمد بن نصر المروزي^(٢).

وأما الكبائر، فلا بدَّ لها من التوبة؛ لأنَّ الله أمر العباد بالتَّوْبَةِ، وجعل من لم يتب ظالمًا، واتفقت الأمة على أنَّ التَّوْبَةَ فرض، والفرائض لا تؤدَّى إلَّا بنية وقصد، ولو كانت الكبائر تقع مكفَّرة بالوضوء والصلاة، وأداء بقية أركان الإسلام، لم يحتج إلى التَّوْبَةِ، وهذا باطل بالإجماع.

وأيضًا فلو كُفِّرَت الكبائر بفعل الفرائض لم يبق لأحدٍ ذنبٌ يدخل به النَّارَ إذا أتى بالفرائض، وهذا يُشبه قول المرجئة وهو باطل، هذا ما ذكره

(١) رواه البخاري في المساقاة (٢٣٦٥) وفي بدء الخلق (٣٣١٨)، ومسلم في السلام (٢٢٤٢)، (٢٢٤٣).

(٢) رواه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٩٩)، تحقيق د. عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، نشر مكتبة الدار، ط ١، ١٤٠٦هـ.

ابن عبد البر في كتابه «التمهيد»^(١)، وحكى إجماع المسلمين على ذلك، واستدلّ عليه بأحاديث:

منها قول النبي ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفّرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر». وهو مخرّج في «الصحيح»، من حديث أبي هريرة^(٢)، وهذا يدلّ على أنّ الكبائر لا تكفرها هذه الفرائض.

وفي «صحيح مسلم»، عن عثمان، عن النبي ﷺ قال: «ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها؛ إلّا كانت كفّارة لما قبلها من الذنوب، ما لم يؤت كبيرة، وذلك الدهر كله»^(٣).

وفي «مسند الإمام أحمد»، عن سلمان، عن النبي ﷺ قال: «لا يتطهر الرجل - يعني يوم الجمعة - فيحسن طهوره، ثم يأتي الجمعة، فينصت حتّى يقضي الإمام صلاته، إلّا كان كفّارة ما بينه وبين الجمعة المقبلة، ما اجتنبت المقتلة»^(٤).

وخرّج النسائي وابن حبان والحاكم، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، ما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويخرج الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع؛ إلّا فتحت له أبواب الجنّة، ثم قيل له: ادخل بسلام»^(٥).

(١) التمهيد (٤٥/٤) وما بعدها، نشر وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، عام ١٣٨٧هـ.

(٢) سبق تخريجه ص ١٩٠.

(٣) رواه مسلم في الطهارة (٢٢٨).

(٤) سبق تخريجه ص ٢٣٦.

(٥) رواه النسائي في الزكاة (٢٤٣٨)، وابن خزيمة (٣١٥)، وابن حبان في الصلاة (١٧٤٨)، =

وقال ابن مسعود: الصلوات الخمس كفّارات لما بينهم ما اجتنبت الكبائر^(١).

وقال سلمان: حافظوا على هذه الصلوات الخمس، فإنهنّ كفّارات لهذه الجراح، ما لم تصب المقتلة^(٢).

قال ابن عمر لرجل: أتخاف النّار أن تدخلها، وتحبّ الجنّة أن تدخلها؟ قال: نعم، قال: برّ أمك، فوالله لئن ألنت لها الكلام، وأطعمتها الطعام، لتدخلنّ الجنّة، ما اجتنبت الموجبات^(٣).

وقال قتادة: إنّما وعد الله المغفرة لمن اجتنب الكبائر.

وذهب قوم من أهل الحديث وغيرهم إلى أنّ هذه الأعمال تكفّر الكبائر، ومنهم ابن حزم الظاهري، وإيّاه عني ابن عبد البر في كتاب «التمهيد» بالردّ عليه، وقال: قد كنت أرغب بنفسي عن الكلام في هذا الباب، لولا قول ذلك القائل، وخشيت أن يغترّ به جاهل، فينهمك في الموبقات، اتكالا على أنّها تكفّر الصلوات، دون الندم والاستغفار والتوبة، والله نسأله العصمة والتوفيق^(٤).

قلتُ (والقائل ابن رجب): وقد وقع مثل هذا في كلام طائفة من أهل الحديث في الوضوء ونحوه، ووقع مثله في كلام ابن المنذر في قيام ليلة

= والحاكم في فضل الصلوات الخمس (٢٠٠/١)، وصحّح إسناده، ووافقه الذهبي، وضعّفه الألباني في ضعيف الجامع (٦١١٠).

(١) رواه عبد الرزاق في الطهارة (١٤٧)، وابن أبي شيبة في صلاة التطوع (٧٧٢٦).

(٢) رواه عبد الرزاق في الطهارة (١٤٨)، وابن أبي شيبة في صلاة التطوع (٧٧٢٥).

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد (٨)، وصحّحه الألباني في صحيح الأدب المفرد ص ٣٥.

(٤) التمهيد (٤٩/٤).

القدر، قال: يُرجى لمن قامها أن يغفر له جميع ذنوبه، صغيرها وكبيرها^(١).

والصحيح قول الجمهور: إنَّ الكبائر لا تُكفَّر بدون التوبة؛ لأنَّ التَّوبَةَ فرض على العباد، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

وقال ابن عون: لا تثق بكثرة العمل، فإنَّك لا تدري أيقبل منك أم لا، ولا تأمن ذنوبك، فإنَّك لا تدري كُفِّرَتْ عنك أم لا، إنَّ عملك مغيب عنك كله^(٢).

قال: والأظهر - والله أعلم - في هذه المسألة، أعني مسألة تكفير الكبائر بالأعمال: أنَّه إن أريد أنَّ الكبائر تُمحي بمجرد الإتيان بالفرائض، وتقع الكبائر مكفرة بذلك، كما تكفِّر الصغائر باجتناّب الكبائر، فهذا باطل، وإن أريد أنَّه قد يوازن يوم القيامة بين الكبائر وبين بعض الأعمال، فتُمحي الكبيرة بما يقابلها من العمل، ويسقط العمل، فلا يبقى له ثواب، فهذا قد يقع.

وقد تقدّم عن ابن عمر أنَّه لمّا أعتق مملوكه الذي ضربه، قال: ليس لي فيه من الأجر شيء^(٣). حيث كان كفّارة لذنبه، ولم يكن ذنبه من الكبائر، فكيف بما كان من الأعمال مكفّراً للكبائر؟

وسبق أيضاً قول من قال من السلف: إنَّ السيئة تُمحي، ويسقط

(١) انظر: الإشراف على مذاهب العلماء لابن المنذر (١٧٢/٣)، تحقيق صغير أحمد الأنصاري أبو حماد، نشر مكتبة مكة الثقافية، رأس الخيمة، ط ١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في التوبة (٦٣).

(٣) رواه مسلم في الأيمان (١٦٥٧).

نظيرها حسنة من الحسنات التي هي ثواب العمل، فإذا كان هذا في الصغائر، فكيف بالكبائر؟ فإنَّ بعض الكبائر قد يُحبط بعض الأعمال المنافية لها، كما يُبطل المَنِّ والأذى الصدقة»^(١).

٤ - حَمَامُ المصائب والهموم:

ومن أعظم المكفَّرات للذنوب والخطايا: ما يتلى الله به المسلم والمسلمة من مصائب الدنيا، من المرض والفقر، ومن فقد الأحباب والأموال، والغربة عن الأهل والوطن، والاعتقال والسجن، ومن الهم والحزن، ومن كل ما يتألم الإنسان منه بدنيًّا أو نفسيًّا من ابتلاءات الحياة، وذلك أنَّ هذه المصائب تشعر الإنسان بعجزه وضعفه وفقره، وقدرة ربه وقوته وغناه المطلق، وتتيح له فرصة محاسبة نفسه، ومراجعة رصيده، والرجوع إلى مولاه، فيدعو ربه منيبًا إليه، ويقول: ربِّ، إنِّي ظلمت نفسي فاغفر لي. وفي هذا قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

ومن ثم كان تكفير البلايا للخطايا متَّفِقًا مع سنن الله تعالى، لما لها من تأثير في نفس المبتلى، وإنزاله من دعوى الفرعونية إلى حقيقة العبودية.

وفي هذا روى أبو هُرَيْرَةَ وأبو سعيد، عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتَّى الشوكة يشاكُّها، إلَّا كفرَّ الله بها من خطاياها»^(٢).

(١) جامع العلوم والحكم (١/٤٢٥ - ٤٣٨).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في المرضي (٥٦٤١)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٧٣).

وعن عبد الله بن مسعود قال: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك - أي يتألم من شدة المرض - فمسسته بيدي، فقلت: يا رسول الله! إنك توعك وعكاً شديداً! فقال: «أجل إنني أوعك كما يوعك رجلان منكم». قال: فقلت: ذلك لأن لك أجريين! فقال: «أجل». ثم قال: «ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه، إلا حط الله تعالى به سيئاته، كما تحط الشجرة ورقها»^(١).

ومن أجل هذا روى ابن عباس قال: كان النبي ﷺ إذا دخل على مريض يعودُه قال: «لا بأس، طهور إن شاء الله»^(٢)! يعني: إنَّ هذا المرض طهارة وكفارة له.

وعن جابر قال: دخل رسول الله ﷺ على أمِّ السائب، فقال: «ما لك تُزففين؟». - أي ترتعدين - قالت: الحمى، لا بارك الله فيها! فقال: «لا تسبِّي الحمى، فإنها تُذهب خطايا بني آدم، كما يُذهب الكير خبث الحديد»^(٣).

وعلى قدر شدة البلاء واستمراره، يكون التطهير والتكفير للخطايا، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة: في نفسه وماله وولده، حتَّى يلقي الله تعالى، وما عليه من خطيئة». رواه الترمذي وقال: حسن صحيح^(٤)، وروى مالك نحوه.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المرضى (٥٦٦٠)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧١).

(٢) رواه البخاري في المناقب (٣٦١٦).

(٣) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٥).

(٤) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٩٩)، ومالك (٨٠٧) تحقيق الأعظمي، وأحمد (٧٨٥٩)، وقال

مخرَّجوه: إسناده حسن.

وعن سعد قال: سئل النبي ﷺ: أي الناس أشدَّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان صلباً في دينه اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقة هُوِّنَ عليه، فما زال كذلك، أي ينزل به البلاء حتَّى يمشي على الأرض ما له ذنب». رواه الترمذي وابن ماجه والدرامي، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح^(١).

وهذا التطهير والتكفير والثواب من الله تعالى، إنّما هو لمن استقبل البلاء بصبر جميل، واحتسب ما أصابه عند الله تعالى، ولم يقابله بالسخط والجزع، فيضيّع بحماقته ما له عند ربه.

عن أنس، أنّ النبي ﷺ قال: «إنَّ عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإنَّ الله ﷻ إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط». رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه^(٢).

وعنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه، ثم صبر، عوّضته منهما الجنة» يريد: عينيه. رواه البخاري^(٣)، فانظر قوله: «ثم صبر»، ليدل على وجوب الصبر عند البلاء.

وعن شداد بن أوس والصُّنَابِحِي، أنّهما دخلا على رجل مريض يعودانه، فقالا له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بنقمة! فقال شداد: أبشر بكفّارات السيئات، وحطّ الخطايا، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله ﷻ يقول: إذا أنا ابتليت عبداً من عبادي مؤمناً، فحمدني على

(١) رواه أحمد (١٤٨١)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. والترمذي في الزهد (٢٣٩٨)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٣)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٩٦)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٣١)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢١١٠).

(٣) رواه البخاري في المرضي (٥٦٥٣).

ما ابتليته، فإنَّه يقوم من مضجعه ذلك، كيومَ ولدته أمه من الخطايا»^(١)، فانظر قوله سبحانه: «فحمدني على ما ابتليته». فهو قيد لا بدَّ منه ليستحق ما وُعد به: أن يخرج من خطاياها، كيومَ ولدته أمه، أي: يولد ميلادًا جديدًا، وذلك بأن يُفلسف بلواه، وينظر إلى جانب النعمة فيها، كما قال عمر: ما أصبت ببلاء، إلَّا رأيت لله عليَّ فيه أربع نعم: أنَّه لم يكن في ديني، وأنَّه لم يكن أكبر منه، وأنِّي لم أحرم الرضا به، وأنِّي أرجو مثوبة الله عليه!

ومن هنا روى جابر مرفوعًا: «يودُّ أهل العافية يوم القيامة، حين يُعطى أهل البلاء الثواب، لو أنَّ جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض». رواه الترمذي وقال: غريب^(٢) وله شاهد من حديث ابن عبَّاس يرتقي به إلى درجة الحسن.

ولهذا لم يكونوا يرحبون بالإنسان يعيش طول عمره معافًى لا يُبتلى بشيء، فإنَّ معنى هذا أنَّ كل عقابه على سيئاته مؤجل له في الآخرة.

فعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير، عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر، أمسك عنه بذنبه، حتَّى يوافيه به يوم القيامة». رواه الترمذي وقال: حسن غريب^(٣).

(١) رواه أحمد (١٧١١٨)، وقال مخرَّجه: صحيح لغيره. والطبراني (٢٧٩/٧)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٥١٩٥): رواه أحمد من طريق إسماعيل بن عياش عن راشد الصنعاني، والطبراني في الكبير والأوسط وله شواهد كثيرة. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٨١١): رواه أحمد، والطبراني في الكبير والأوسط، كلهم من رواية إسماعيل بن عياش، عن راشد الصنعاني، وهو ضعيف في غير الشاميين.

(٢) رواه الترمذي في الزهد (٢٤٠٢)، والطبراني في الصغير (٢٤١)، والبيهقي في الجنائز (٣٧٥/٣)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب (٣٤٠٤).

(٣) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٩٦)، والحاكم في الأحوال (٦٠٨/٤)، وسكت عنه هو والذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٨).

وعن يحيى بن سعيد قال: إِنَّ رجلاً جاءه الموت في زمن رسول الله ﷺ، فقال رجل: هنيئاً له، مات ولم يُبتَلْ بمرض! فقال رسول الله ﷺ: «ويحك! وما يُدريك لو أَنَّ الله ابتلاه بمرض، فكفَّر عنه من سيئاته!». رواه مالك مرسلًا، وهو مرسل صحيح الإسناد^{(١)(٢)}.

٥ - حمام الحدود والعقوبات الشرعية:

ومن الحمامات المطهرة والمكفِّرة للذنوب والخطايا: إقامة الحدود والعقوبات الشرعية على من اقترف الجرائم الموجبة لها.

كما إذا زنى وأقيم عليه حدُّ الزنى، أو سرق وأقيم عليه حدُّ السرقة، أو قذف وأقيم عليه حدُّ القذف، أو شرب وأقيم عليه حدُّ الشرب.. وهكذا، فإنَّ الله تعالى أكرم من أن يعاقبه مرتين: مرَّة في الدنيا ومرَّة في الآخرة، كما ورد ذلك عن عليٍّ رضي الله عنه مرفوعاً: «من أصاب حدًّا، فعُجِّل عقوبته في الدنيا، فالله أعدل من أن يثني على عبده العقوبة في الآخرة، ومن أصاب حدًّا فستره الله عليه، عفا عنه، فالله أكرم من أن يعود في شيء قد عفا عنه»^(٣).

وأوضح وأصح ما يُستدلُّ به على أنَّ الحدود والعقوبات الشرعية كفَّارة

(١) رواه مالك في العين (٣٤٦٨) تحقيق الأعظمي، وقال ابن عبد البر في التمهيد (٥٧/٢٤):

لا أعلم هذا الخبر بهذا اللفظ يستند عن النبي ﷺ من وجه محفوظ.

(٢) أحاديث هذه الفقرة كلها (حمام المصائب والهموم) أخذناها من مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي باب عيادة المريض وثواب المرض من كتاب الجنائز (٤٨٦/١ - ٤٩٦)، تحقيق الشيخ الألباني، نشر المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٩٨٥م.

(٣) رواه أحمد (٧٧٥)، وقال مخرَّجوه: إسناده حسن. والترمذي في الإيمان (٢٦٢٦)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الحدود (٢٦٠٤)، والحاكم في التفسير (٤٤٥/٢)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

لمن أقيمت عليه: حديث عبادة بن الصامت، قال: كُنَّا عند رسول الله ﷺ فقال: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا.. فمن وفى منكم، فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً، فعوقب به - أي في الدنيا - فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً، فستره الله عليه، فهو إلى الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له». خرَّجَاه في «الصحيحين»، وفي رواية لمسلم: «من أتى منكم حدًّا فأقيم عليه فهو كفارته»^(١).

وهذا يدل على أنَّ الحدود كفارات، قال الشافعي: «لم أسمع في هذا الباب أنَّ الحدَّ يكون كفارةً لأهله شيئاً أحسن من حديث عبادة بن الصامت»^(٢).

وقوله: «فعوقب به»، يُعْمُ العقوبات الشرعية، وهي الحدود المقدرة أو غير المقدرة، كالتعزيرات، ويشمل العقوبات القدرية: كالمصائب، والأسقام والآلام، كما ذكرنا من قبل.

وأما حديث: «لا أدري: الحدود كفارة لأهلها أم لا؟»^(٣) فمحمول على أنَّه قال ذلك قبل أن يعلمه الله تعالى، فإنَّ الله تعالى يعلمه ما لم يكن يعلم.

فهذه كلها مكفَّرات للذنوب والخطايا، فمن لم تطهره هذه الحمامات كلها، طهر في حياة البرزخ، بأن يُعذَّب في قبره، فإن لم يتطهر بذلك، فلا يُطهره إلا النَّار، أعاذنا الله منها.

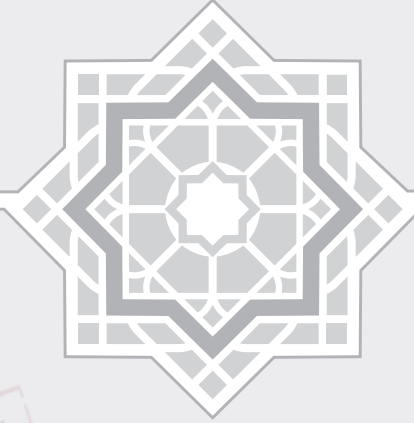
* * *

(١) سبق تخريجه ص ١٤١.

(٢) ذكره الترمذي في الحدود إثر الحديث (١٤٣٩).

(٣) رواه البزار (٨٥٤١) والحاكم في التفسير (٤٥٠/٢)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصحَّحه ابن حجر في الفتح (٦٦/١) على شرط الشيخين.

مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
بُيُوتِ الْقُرْطُبِي



الباب الخامس

ثمرات التوبة



- تكفير السيئات ودخول الجنات.
- تجديد الإيمان.
- تبديل السيئات حسنات.
- الانتصار على العدو الدائم.
- الانتصار على النفس الأمّارة بالسوء.
- انكسار القلب لله.
- محبة الله تعالى.
- فرح الله بالتائب.



ثمرات التوبة

وللتوبة النصوح إذا تحققت أركانها، واستوفت شروطها: ثمار دانية القطوف، يجدها كل تائب في نفسه وفي حياته الدنيا، وجزاء الآخرة خير وأبقى، وهي ثمرات أخروية ودنيوية، روحية ومادية، أخلاقية وعملية، فردية واجتماعية.

١- تكفير السيئات ودخول الجنات:

وأولى هذه الثمرات: كسب المغفرة ودخول الجنة، التي أعدَّ الله فيها لعباده الصّالحين: ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

لقد أمرنا الله تعالى في كتابه بالمسارعة إلى مغفرة من ربّنا، وإلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدّت للمتقين، ولكنه بيّن لنا في جلاء أن المتقين ليسوا ملائكةً أطهاراً، ولا أنبياء معصومين، ولكنهم بشر من خلق الله، يصيبون ويخطئون، ويطيعون ويعصون، ويستقيمون، وقد ينحرفون، بيد أن مزيّتهم على غيرهم أنّهم لا يتمادون في الخطايا، ولا يذهبون في المعاصي حيث لا يعودون، بل سرعان ما يعودون إلى باب ربهم، واقفين على عتباته، مبتغيين لمرضاته، طالبين لعفوه، سائلين لمغفرته، راجين

لرحمته، يقول تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبَظِمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٥].

فوصفهم الله تعالى ببذل الندي، واحتمال الأذى، حين وصفهم بالإنفاق في حالتي اليسر والعسر، وكف النفس عن الغضب، بل يكظمون الغيظ، ويعفون عن الناس، ثم بيّن سبحانه أنهم إذا ضعفوا يوماً فوقعوا في كبيرة مثل فعل الفاحشة، أو في صغيرة وهو ما عبّرت عن الآية بظلم النفس، ذكروا الله، فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله؟

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحریم: ٨].

رتبت الآية الكريمة على التوبة النصوح أمرين: تكفير السيئات، ودخول الجنات.

وقد بيّن الغزالي رحمه الله: «أنَّ للتوبة ثمرتين:

إحداهما: تكفير السيئات حتّى يصير كمن لا ذنب له.

الثانية: نيل الدرجات حتّى يصير حبيباً لله.

وللتكفير أيضاً درجات: فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية، وبعضه تخفيف له، ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة، فالاستغفار بالقلب،

والتدارك بالحسنات - وإن خلا عن حل عُقدة الإصرار - من أوائل الدرجات، فليس يخلو عن الفائدة أصلاً، فلا ينبغي أن تظنَّ أنَّ وجودها كعدمها، بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها: أنَّ قول الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧] صدق، وأنَّه لا تخلو ذرَّة من الخير عن أثر، كما لا تخلو شعيرة تُطرح في الميزان عن أثر، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر، لكانت الثانية مثلها، ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرَّات، وذلك بالضرورة محال، بل ميزان الحسنات يَرْجَحُ بذرَّات الخير إلى أن يثقل، فتُرفع كِفَّة السيئات، فإياك أن تستصغر ذرَّات الطاعات فلا تأتيها، وذرَّات المعاصي فلا تتقيها، كالمرأة الخرقاء التي تدع الغزل اتكالاً بأنَّها لا تقدر في كل ساعة إلَّا على خيط واحد، وتقول: أي غنى يحصل بخيط؟ وما وقع ذلك في الثياب؟ لا تدري المعتوهة أنَّ ثياب الدنيا اجتمعت خيطاً خيطاً، وأنَّ أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرَّة ذرَّة، فإذن التضرُّع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلاً، بل أقول: الاستغفار باللسان أيضاً حسنة، إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام، بل هو خير من السكوت عنه، فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه، وإنَّما يكون نقصاناً بالإضافة إلى عمل القلب»^(١).

٢ - تجديد الإيمان:

ومن الثمار اليانعة للتوبة: أنَّها تعمل على تجديد إيمان التائب وترميمه بعدما نالت منه الخطايا ما نالت، فإنَّ الذنوب والمعاصي التي

(١) الإحياء (٤/٤٨).

تقع من المسلم تخذش الإيمان وتجرحه جرحًا يصغر أو يكبر، بقدر حجمها من الصغر والكبر، وبقدر كمّها من القلة والكثرة، وبقدر كيفها من التأثير في النفس، فالمعصية التي يفرح بها صاحبها، ويستعيد ذكراها بتلذذ، غير التي يحزن لوقوعها، ويشعر بالأسى كلّما تذكرها، والمعصية التي يجاهر بها مرتكبها ويتبجّح غير التي يستخفي بها، ويخجل منها، ويسأل الله أن يسترها عليه، ولا يفضحه في الدنيا ولا الآخرة.

والمعصية التي تقع فلتة من صاحبها - كأنّها بيضة الديك كما يقال - غير التي تتكرّر منه، ويصرّ عليها مواظبًا، فيعلّق القلب بها. وعلى كل حال، يظل هناك للمعصية تأثير سلبي على إيمان المكلف، قد ينتهي به إلى الكفر والعياذ بالله.

وفي الحديث الصحيح: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»^(١).

ويقول ﷺ: «إذا زنى العبد خرج منه الإيمان، فكان على رأسه كالظلّة، فإذا ألق، رجع إليه»^(٢).

ويقول: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن! من لا يأمن جاره بوائقه»^(٣).

«لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه»^(٤).

(١) سبق تخريجه ص ٢٤.

(٢) رواه أبو داود في السنة (٤٦٩٠)، والحاكم في الإيمان (٢٢/١)، وصحّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصحح إسناده ابن حجر في فتح الباري (٦١/١٢)، عن أبي هريرة.

(٣) سبق تخريجه ص ٢١٦.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥)، كلاهما في الإيمان، عن أنس.

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»^(١). ومفهومه أنّ من لم يفعل هذه الخصال قد انتفى عنه الإيمان.

ما المراد بنفي الإيمان في هذه الأحاديث؟ لا نريد أن ندخل في خلاف الفرق حول هذه النصوص وما شابهها.

ولكن المتفق عليه: أنّها تنفي الإيمان الصادق والكامل، وتغشي نوره بظلامها، وصفاءه بسوادها، فلا يصبح الإيمان بعد المعصية بقوته ونقائه وكماله وتأثيره، كما كان قبل المعصية.

ولهذا كانت التَّوْبَةُ الصادقة النصوص تجديدًا للإيمان: تقويّه بعد ضعف، وتوقظه بعد رقود، وتثبتّه بعد زعزعة، بما تضيف إليه من أشواق وبواعث ومشاعر حية وجديدة، تحفّز إلى الخير، وتزجر عن الشر.

ومن هنا وجدنا القرآن الكريم يعطف الإيمان على التَّوْبَةِ، ويقرنه بها؛ لأنّه مكمل لها، بل مصحح لوجودها، كما في قوله تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ...﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢].

ولتجديد الإيمان بالله في نفس التائب دلائل وآيات يعرفها صاحبها ويعيشها.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠١٩)، ومسلم في الإيمان (٤٨)، عن أبي شريح.

«منها: أن يعرف برّه سبحانه في ستره عليه حال ارتكاب المعصية، مع كمال رؤيته له، ولو شاء لفضحه بين خلقه، فحذروه، وهذا من كمال بره، ومن أسمائه «البرّ»، وهذا البر من سيده كان مع كمال غناه عنه، وكمال فقر العبد إليه، فيشتغل بمطالعة هذه المِنَّة، ومشاهدة هذا البر والإحسان والكرم، فيذهل عن كل ما سوى الله، ولا يشتغل إلا بذكره وشكره وحسن عبادته، فإنَّ الاشتغال بالله والغفلة عمّا سواه: هو المطلوب الأعلى والمقصد الأسنى.

ومنها: شهود حلم الله ﷻ في إمهال راكب الخطيئة، ولو شاء لعاجله بالعقوبة، ولكنه الحليم الذي لا يعجل، فيُحدث له ذلك معرفة ربه سبحانه باسمه «الحليم»، ومشاهدة صفة «الحلم»، والتعبد بهذا الاسم.

ومنها: معرفة العبد كرم ربّه في قبول العذر منه، إذا اعتذر إليه بضعفه وعجزه، وغلبة هواه وشيطانه عليه، ونحو ذلك، فيقبل عذره بكرمه وجوده، فيوجب له ذلك اشتغاله بذكره وشكره، ومحبة أخرى لم تكن حاصلة له قبل ذلك، فإنَّ محبتك لمن شكرك على إحسانك وجزاك به، ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها: أضعاف محبتك على شكر الإحسان وحده، والواقع شاهد بذلك، فعبودية التَّوْبَة بعد الذَّنْب لون، وهذا لون آخر.

ومنها: أن يشهد فضله في مغفرته، فإنَّ المغفرة فضل من الله، وإلا فلو أخذك بمحض حقّه، كان عادلاً محموداً، وإنَّما عفوه بفضله لا باستحقاقك، فيوجب لك ذلك أيضاً شكراً له ومحبة، وإنابة إليه، وفرحاً وابتهاجاً به، ومعرفة له باسمه «الغفار»، ومشاهدة لهذه الصفة، وتعبدًا بمقتضاها، وذلك أكمل في العبودية، والمحبة والمعرفة.

ومنها: أن تكتمل للتَّائِبِ مراتب الذل والخضوع لربه جل شأنه، والانكسار بين يديه، والافتقار إليه، فإنَّ النفس فيها مضاهاة للربوبية، ولو قدرت لقالت كقول فرعون، ولكنَّه قدر فأظهر، وغيره عجز فأضمَر، وإنَّما يخلِّصها من هذه المضاهاة ذلُّ العبودية، وهو أربع مراتب:

المرتبة الأولى: مشتركة بين الخلق، وهي ذلُّ الحاجة والفقر إلى الله، فأهل السماوات والأرض جميعاً محتاجون إليه، فقراء إليه، وهو وحده الغنيُّ عنهم، وكلُّ أهل السماوات والأرض يسألونه، وهو لا يسأل أحداً.

المرتبة الثانية: ذلُّ الطاعة والعبودية، وهو ذلُّ الاختيار، وهذا خاصٌّ بأهل طاعته، وهو سرُّ العبودية.

المرتبة الثالث: ذلُّ المحبة، فإنَّ المحبَّ ذليل بالذات، وعلى قدر محبته له يكون ذله، فالمحبة أسست على الذلة للمحسوب، كما قيل:

اخضع وذل لمن تحب، فليس في حكم الهوى أنف يُشال ويعقد

وقال آخر:

مساكينُ أهل الحب، حتَّى قبورهم عليها تراب الذل بين المقابر^(١)

المرتبة الرابعة: ذلُّ المعصية والجناية.

فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع: كان الذلُّ لله والخضوع له أكمل وأتم، إذ يذلُّ له خوفاً وخشية، ومحبة وإنابة، وطاعة، وفقراً وفاقاً^(٢).

(١) في هامش الأصل من المدارج:

وكم عزة قد نالها المرء بالذل
ذليلاً له، فافتر السلام على الوصل

أذلُّ لمن أهوى لأكسب عزة
إذا كان من تهوى عزيزاً ولم تكن

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢٠٦/١، ٢٠٧).

٣ - تبديل السيئات حسنات:

ومن ثمار التوبة: ما ذكره الله تعالى في كتابه من تبديل سيئات التائبين حسنات.

وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠]، وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح، وهو حقيقة التوبة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما رأيت النبي ﷺ فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت، وفرحه بنزول ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١، ٢]^(١).

«واختلفوا في صفة هذا التبديل، وهل هو في الدنيا، أو في الآخرة؟ على قولين:

فقال ابن عباس وأصحابه: هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها، فبدلهم بالشرك إيمانًا، وبالزنى عفة وإحصانًا، وبالكذب صدقًا، وبالخيانة أمانة.

فعلى هذا معنى الآية: أَنَّ صفاتهم القبيحة، وأعمالهم السيئة، بُدِّلوا عوضها صفات جميلة، وأعمالًا صالحة، كما يُبدَّل المريض بالمرض صحة، والمبتلى ببلائه عافية.

(١) رواه ابن أبي عاصم في السنة (٩٧٢)، والطبراني في الكبير (٢١٧/١٢)، والأوسط (٥٥٧٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٢٤٠): رواه الطبراني من رواية علي بن زيد عن يوسف بن مهران، وقد وثقا وفيهما ضعف، وبقية رجاله ثقات. وقال في موضع آخر (١٧٤٩٧): رواه الطبراني في الأوسط، وإسناده حسن.

وقال سعيد بن المسيب وغيره من التابعين: هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة، فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة. واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذي في «جامعه»، عن أبي ذرٍّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ رَجُلٍ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ: يُوْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه. ويُخْبَأُ عَنْهُ كِبَارُهَا، فيقال: عملت يوم كذا وكذا وكذا وكذا، وهو مُقَرَّرٌ لَا يَنْكُرُ، وهو مشفق من كِبَارِهَا، فيقال: أُعْطِيَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ عَمَلُهَا حَسَنَةً، فيقول: إِنَّ لِي ذُنُوبًا مَا أَرَاهَا هَاهُنَا!» قال أبو ذرٍّ: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتَّى بدت نواجذه^(١).

قال ابن القيم: «فهذا حديث صحيح، ولكن في الاستدلال به على صحة هذا القول نظر، فإنَّ هذا قد عُذِّبَ بسيئاته ودخل بها النَّارَ، ثم بعد ذلك أخرج منها، وأُعْطِيَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداءً بعدد ذنوبه، وليس في هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات، إذ لو كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يُعاقب التَّائِبُ، والكلام إنَّما هو في تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة، فزادت حسناته، فأين في هذا الحديث ما يدل على ذلك؟

والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلِّين به في تفسير هذه الآية على هذا القول، وقد علمت ما فيه، لكن للسلف غور ودقة فهم لا يدركها كثير من المتأخرين.

فالاستدلال به صحيح، بعد تمهيد قاعدة، إذا عُرِفَتْ عُرِفَ لطف الاستدلال به ودِقَّتْ، وهي أَنَّ الذَّنْبَ لَا بَدَّ لَهُ مِنْ أَثَرٍ، وأثره يرتفع بالتَّوْبَةِ

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٩٠)، وأحمد (٢١٣٩٣).

تارة، وبالحسنات الماحية تارة، وبالمصائب المكفرة تارة، وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة، وكذلك إذا اشتد أثره، ولم تقوَ تلك الأمور على محوه، فلا بدّ إذن من دخول النار؛ لأنّ الجنة لا يكون فيها ذرّة من الخبيث، ولا يدخلها إلّا من طاب من كل وجه، فإذا بقي عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كير الامتحان، ليخلص ذهبُ إيمانه من خبثه، فيصلح حينئذٍ لدار الملك.

إذا علِمَ هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح، وهي أقوى الأسباب، وتارة يكون باستيفاء الحقّ منه وتطهيره في النار، فإذا تطهّر بالنار، وزال أثر الوسخ والخبث عنه، أُعطي مكان كل سيئة حسنة، فإذا تطهّر بالتوبة النصوح، وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها، كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة؛ لأنّ إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار، وأحبُّ إلى الله، وإزالة النار بدل منها، وهي الأصل، فهي أولى بالتبديل ممّا بعد الدخول.

يوضحه: أنّ التائب قد بدّل كل سيئة بندمه عليها حسنة، إذ هو توبة تلك السيئة، والندم توبة، والتوبة من كل ذنب حسنة، فصار كل ذنب عمله زائلاً بالتوبة التي حلتّ محله وهي حسنة، فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار، فتأمله، فإنّه من ألطف الوجوه.

وعلى هذا، فقد تكون هذه الحسنة مساوية في القدر لتلك السيئة، وقد تكون دونها، وقد تكون فوقها، وهذا بحسب نُصح (خلوص) هذه التوبة، وصدق التائب فيها، وما يقترن بها من عمل القلب الذي تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة، وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها.

يوضحه: أَنَّ ذَنْبَ الْعَارِفِ بِاللَّهِ وَبِأَمْرِهِ قَدْ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ حَسَنَاتٌ أَكْبَرُ مِنْهُ وَأَكْثَرُ، وَأَعْظَمُ نَفْعًا، وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ عَصْمَتِهِ مِنْ ذَلِكَ الذَّنْبِ: مِنْ ذَلٍّ وَانْكَسَارٍ وَخَشْيَةٍ، وَإِنَابَةٍ وَنَدَمٍ، وَتَدَارُكٍ بِمِرَاغِمَةِ الْعَدُوِّ بِحَسَنَةٍ أَوْ حَسَنَاتٍ أَعْظَمَ مِنْهُ، حَتَّى يَقُولَ الشَّيْطَانُ: يَا لَيْتَنِي لَمْ أَوْقِعْهُ فِيمَا أَوْقَعْتَهُ فِيهِ، وَيَنْدَمُ الشَّيْطَانُ عَلَى إِيقَاعِهِ فِي الذَّنْبِ، كِنْدَامَةِ فَاعِلِهِ عَلَى ارْتِكَابِهِ، لَكِنْ شَتَّانَ مَا بَيْنَ النَّدَمِينَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَحِبُّ مَنْ عَبْدَهُ مِرَاغِمَةَ عَدُوِّهِ وَغِيظَهُ، كَمَا تَقَدَّمَ أَنَّ هَذَا مِنَ الْعِبَادِيَّةِ مِنْ أَسْرَارِ التَّوْبَةِ، فَيَحْصُلُ مِنَ الْعَبْدِ مِرَاغِمَةُ بِالتَّوْبَةِ وَالتَّدَارُكِ، وَحُصُولُ مَحْبُوبِ اللَّهِ مِنَ التَّوْبَةِ، وَمَا يَتَّبِعُهَا مِنْ زِيَادَةِ الْأَعْمَالِ هُنَا، مَا يُوْجِبُ جَعْلَ مَكَانِ السَّيِّئَةِ حَسَنَةً، بَلْ حَسَنَاتٍ.

وَتَأْمَلْ قَوْلَهُ: ﴿يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: مَكَانَ كُلِّ وَاحِدَةٍ وَاحِدَةٍ، فَهَذَا يَجُوزُ أَنْ يَبْدِلَ السَّيِّئَةَ الْوَاحِدَةَ بَعْدَ حَسَنَاتٍ بِحَسَبِ حَالِ الْمَبْدَلِ.

وَأَمَّا فِي الْحَدِيثِ، فَإِنَّ الَّذِي عُذِّبَ عَلَى ذُنُوبِهِ لَمْ يَبْدَلْهَا فِي الدُّنْيَا بِحَسَنَاتٍ، مِنَ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ وَتَوَابِعِهَا، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يَجْعَلُ مَكَانَ السَّيِّئَةِ حَسَنَاتٍ، فَأَعْطِيَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً وَاحِدَةً، وَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ، وَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهَا ضَحَكَ. وَلَمْ يَبَيِّنْ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِهَا، وَأَخْبَرَ أَنَّ اللَّهَ يَبْدِلُ مَكَانَ كُلِّ صَغِيرَةٍ حَسَنَةً، وَلَكِنْ فِي الْحَدِيثِ إِشَارَةٌ لَطِيفَةٌ إِلَى أَنَّ هَذَا التَّبْدِيلَ يَعْمُ كِبَارُهَا وَصَغَارُهَا مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: قَوْلُهُ: «اخْبُؤُوا عَنْهُ كِبَارُهَا». فَهَذَا إِشْعَارٌ بِأَنَّهُ إِذَا رَأَى تَبْدِيلَ الصَّغَائِرِ ذِكْرُهَا، وَطَمَعَ فِي تَبْدِيلِهَا، فَيَكُونُ تَبْدِيلُهَا أَعْظَمَ مَوْقِعًا عِنْدَهُ مِنْ تَبْدِيلِ الصَّغَائِرِ، وَهُوَ بِهِ أَشَدُّ فَرْحًا وَاعْتِبَاطًا.

وَالثَّانِي: ضَحْكُ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ ذِكْرِ ذَلِكَ، وَهَذَا الضَّحْكُ مَشْعُرٌ

بالتعجب ممّا يُفعل به من الإحسان، وما يُقرُّ به على نفسه من الذنوب، من غير أن يقرّر عليها ولا يُسأل عنها، وإنّما عُرضت عليه الصغائر.

فتبارك الله ربُّ العالمين، وأجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، البر اللطيف، المتودّد إلى عباده بأنواع الإحسان، وإيصاله إليهم من كل طريق بكلّ نوع، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم»^(١).

٤ - الانتصار على العدو الدائم:

ومن ثمار التوبة: الانتصار على العدو الدائم للإنسان، وهو الشيطان، الذي أقسم أمام الله تعالى: ليضلنّ بني آدم، وليغوينّهم أجمعين، وأكّد ذلك القرآن في عدة سور بأساليب شتى، كلها تدل على إصرار هذا اللعين على إهلاك الإنسان كما هلك هو باستكباره وتمرّده على ربه.

فبعد أن طرده الله من السماء، وأخرجه مذؤومًا مدحورًا، وكتب عليه اللعنة إلى يوم الدين: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩].

﴿قَالَ فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَأَنْتَهُنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

ولقد نفّذ اللعين وعده، وبرّ في قسمه وهو كذوب، ولم يتوان ساعة في تزيين الشر، وتحسين الباطل، وإضلال الناس في الاعتقاد والفكر، وإغوائهم في العمل والسلوك، حتّى سُئل الحسن البصري رضي الله عنه: هل ينام الشيطان؟ قال: لو نام لاسترحنا منه بعض الوقت! ولكنّه لا ينام ولا

(١) مدارج السالكين (٣٠٢/١ - ٣٠٤).

يأخذ إجازة^(١)، ومن هنا وجب التيقظ لعداوته، والتنبُّه لمكائده، والتفطُّن لكلِّ المداخل التي يدخل منها، والثغرات التي يستغل غفلة حراسها، ليتسلَّل إليها، ويقفز منها إلى داخل حصوننا، ليهدمها من داخلها.

لهذا حذَرنا الله تعالى منه أشدَّ التحذير، وبصَّرنا أبلغ التبصير، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

هذا العدو عدو دائم، لا يقبل صلحاً ولا هدنة، ولا يرضيه إلاَّ هلاك بني آدم، الذي كان سبب عداوته لهم الحسد، وقد قال الشاعر:

كُلُّ الْعَدَاوَاتِ قَدْ تُرْجَى إِزَالَتُهَا إِلَّا عداوةَ مَنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدٍ^(٢)!
وقال معاوية: أستطيع أن أرضي كلَّ الأعداء، إلاَّ الحاسد، فإنَّه لا يُرضيه إلاَّ زوال نعمتي^(٣)!

وكلما أوقع الشيطان اللعين بني الإنسان في براثن الذنوب قرَّت عينه، وغمرته الفرحة، بما أصاب من عدوه، وكلما استنارت بصائرهم واستيقظت ضمائرهم بعد المعصية، فتابوا إلى الله واستغفروه، أدركته الحسرة، وركبه الغم، لضياح جهده سُدى، ولهذا يُروى عن إبليس أنَّه قال: أهلك بني آدم بالذنوب، فأهلكوني بالتَّوْبَةِ والاستغفار.

(١) إحياء علوم الدين (٣١/٣).

(٢) البيت لعبد الله بن المبارك، كما في العقد الفريد (١٧١/٢)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت،

١، ١٤٠٤هـ. وقد روى البيهقي في مناقب الشافعي (٧٤/٢) أنَّه من إنشاده، تحقيق السيد

أحمد صقر، نشر مكتبة دار التراث - القاهرة، ط ١، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

(٣) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للأصفهاني (٣١٣/١).

ويُروى أيضًا أنه قال لربه: بعزتك لأظنّ أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الله ﷻ: «وبعزتي لأظل أغفر لهم ما استغفروني»^(١).

لقد انتصر الشيطان اللعين على الإنسان في أول الأمر حين أوقعه في المعصية، ثم انتصر عليه الإنسان حين رجع إلى الله بالتوبة.

٥ - الانتصار على النفس الأمّارة بالسوء:

ومن ثمرات التوبة: انتصار التائب على شهوات نفسه، التي بين جنبيه، والتي تدفعه - بما رُكّب فيها من غرائز ودوافع فطرية - إلى مقارفة الشرّ والمعصية، والتكاسل عن الخير والطاعة، وهي النفس التي سمّاها القرآن: أمّارة بالسوء، حين قال على لسان امرأة العزيز في قصة يوسف الصديق ﷺ: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].

وهذه الصيغة «أمّارة» تدل على المبالغة والكثرة، فهي دائمة الأمر بالسوء، والإغراء به، والتحريض عليه، وكثيرًا ما يضعف الإنسان أمام إغراءاتها وتحريضاتها، وتسترخي إرادته، ويستجيب لداعيها، حتّى إنّ القرآن الكريم قصّ علينا قصة أول جريمة قتل وقعت في تاريخ البشرية، وفي فجر حياتها، قبل أن يعرف الناس كيف يوارون جثث موتاهم، وذلك في قصة ابني آدم التي قصّ الله علينا نبأهما بالحق. ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنْ

(١) رواه أحمد (١١٣٦٧)، وقال مخرّجوه: حسن. والحاكم في التوبة والإنابة (٢٦١/٤)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، والطبراني في الأوسط (٨٧٨٨)، وأبو نعيم في الحلية (٣٣٢/٨)، عن أبي سعيد الخدري.

الْمُنْقِنَ * لِيْنُ بَسَطَتْ إِلَيَّ يَدَكَ لِنَقْلِنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْنُكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ بِإِثْمِي وَإِثْمَكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاؤُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿المائدة: ٢٧ - ٣٠﴾.

فانظر كيف تهوي نفس الإنسان به إلى أيِّ درك؟ حتَّى تطوَّع له قتل أخيه الطيب الخير بلا جُرم جناه، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ تقَبَّلَ منه قربانه ولم يتقبل من الآخر، وما ذنب الأخ المسكين في ذلك، حتَّى يكون جزاؤه القتل؟ إِنَّ هذه النفس إذا تركت لغرائزها وحدها أهلك صاحبها، ولا بدَّ من مجاهدتها ورياضتها حتَّى تتزكى فتُفلح، كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

وبهذا تنتقل من النفس «الأمّارة» إلى «النفس اللوامة» التي ذكرها القرآن في مطلع سورة القيامة حين قال: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ [القيامة: ١، ٢].

و«اللوامة» صيغة مبالغة من اللوم، فهي كثيرة اللوم لصاحبها كلّما ارتكب شرًّا أو قصّر في خير، وهي ما نعبر عنه الآن بـ «الضمير الحي»، وهي التي لا تزال تلوم صاحبها حتَّى تدفعه إلى التوبة.

وقد ترتقي هذه النفس حتَّى تصبح «النفس المطمئنة» المذكورة في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

ولا ريب أنَّ التائب إلى ربّه توبة نصوحًا، قد انتصر في هذه المعركة الكبيرة التي عبّرت عنها بعض الكلمات الماثورة التي تقول: «المؤمن

بين خمس شدائد: بين مسلم يحسده، ومنافق يُبغضه، وكافر يقاتله، وشيطان يُضِلُّه، ونفس تنازعه»^(١). إنها معركة كثيرة الأعداء، متعدّدة الميادين، متنوّعة الأسلحة، معركة في الداخل والخارج، تحتاج إلى يقظة وتأهب واستعداد، للجهاد الدائم، والبذل المستمرّ، والمنصور من نصره الله.

٦ - انكسار القلب لله:

ومن ثمار التّوبة العاجلة: انكسار القلب لله الجليل العظيم، والشعور بحقيقة العبودية والضراعة بين يديه سبحانه، وفي بعض الآثار الإلهية: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»^(٢).

فالتّوبة النصوح تحدث في قلب التائب كسرة خاصة لا يُشبهها شيء، ولا تكون لغير المذنب، الذي شعر بذنبه، وحاصره من كل جانب، فهو يريد أن يصطلح على ربه، ويقف على بابه، بعد الجفوة التي باعدت بينه وبين مولاه بسبب المعصية، ولكن هذه المعصية ولدت له خيراً، ورُبَّ ضارّة نافعة، وكم من منحة في طيّ محنة.

لقد كانت مصيبة المعصية سبباً في إفاقته ويقظة ضميره، وصحوة قلبه، وغلبة إحساسه بفضل ربّه، وتفريط نفسه، فيحدث له هذا تحوّلاً في حياته من الشرّ إلى الخير، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الضياع إلى الالتزام، ومن الإعراض إلى الإقبال.

(١) رواه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث أنس بسند ضعيف. كما قال العراقي في تخريج الإحياء ص ٩٤٨.

(٢) سبق تخريجه ص ١٢٩.

وفي هذا يقول ابن عطاء الله في «حِكْمِهِ»: ربما فتح الله لك باب الطاعة، وما فتح لك باب القبول، وربما قَدَّرَ عليك المعصية فكانت سببًا في الوصول. معصية أُوْرثت ذُلًّا لله وانكسارًا، خيرٌ من طاعةٍ أُوْرثت عُجْبًا واستكبارًا^(١).

هذا الشعور الحي، وهذا التصوُّر الواعي، وهذه الصحوَّة القلبية: ثمرة لهذا المشهد الذي عبَّرَ عنه ابن القيم بمشهد الذل والانكسار والخضوع والافتقار للرب جَلَّالَهُ.

«فيشهد في كل ذرَّة من ذرَّاته الباطنة والظاهرة: ضرورة تامة، وافتقارًا تامًّا إلى ربه ووليه، ومن بيده صلاحه وفلاحه، وهدايه وسعادته، وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها، وإنَّما تدرك بالحصول، فيحصل لقلبه كسرة خاصة لا يشبهها شيء».

فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما من ربِّه إليه من الخير، ويرى أنَّه لا يستحق قليلًا منه ولا كثيرًا، فأَيُّ خير ناله من الله استكثره على نفسه، وعلم أنَّ قدره دونه، وأنَّ رحمة ربه هي التي اقتضت ذكره به، وسياقته إليه، واستقل ما من نفسه من الطاعات لربه، ورآها - ولو ساوت طاعات الثقلين - من أقل ما ينبغي لربه عليه، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه، فإنَّ الكسرة التي حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله.

فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور! وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه! وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه! وذرَّة من هذا ونفس منه أحب إلى الله من طاعات أمثال الجبال من المُدْلِيْن المُعْجِبِينَ بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم، وأحبُّ القلوب إلى الله سبحانه: قلبٌ قد

(١) حكم ابن عطاء الله ص ٢٢٢ - ٢٢٣، شرح العارف بالله الشيخ زروق، تحقيق د. عبد الحليم محمود، ود. محمود بن الشريف، طبعة دار الشعب، القاهرة.

تمكّنت منه هذه الكسرة، وملكته هذه الذلة، فهو ناكس الرأس بين يدي ربه، لا يرفع رأسه إليه حياءً وخجلًا من الله.

قيل لبعض العارفين: أيسجد القلب؟ قال: نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء، فهذا سجود القلب.

فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه، وإذا سجد القلب لله - هذه السجدة العظمى - سجدت معه جميع الجوارح، وعنا الوجه حينئذ للحَيِّ القيوم، وخشع الصوت والجوارح كلها، وذل العبد وخضع واستكان، ووضع خده على عتبة العبودية، ناظرًا بقلبه إلى ربه ووليه نظر الذليل إلى العزيز الرحيم، فلا يُرى إِلَّا متملّقًا لربه، خاضعًا له، ذليلاً مستعطفاً له، يسأله عطفه ورحمته، فهو يترضى ربه كما يترضى المحبُّ الكامل المحبة محبوبه المالك له، الذي لا غنى له عنه، ولا بدّ له منه، فليس له هم غير استرضائه واستعطافه؛ لأنّه لا حياة له ولا فلاح، إِلَّا في قربه ورضاه عنه، ومحبته له، يقول: كيف أغضب من حياتي في رضاه؟ وكيف أعدل عمّن سعادتي وفلاحي وفوزي في قربه وحبّه وذكره^(١)؟.

٧ - محبة الله تعالى:

ومن ثمار التوبة: الحصول على محبة الله تعالى، فقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

والحصول على محبة الله تعالى ليس بالأمر الهين، ولا الكسب الضئيل، إنّها شيء كبير لا يُقادر قدره، ولا يعرفه إِلَّا أهله.

(١) المدارج (١/٤٢٨، ٤٢٩).



وإذا كان النَّاسُ يَسْعَوْنَ جَهْدَهُمْ، ويبدلون وُسْعَهُمْ، للحصول على محبة رئيس أو أمير أو ملك، أو غيرهم من كبراء الدنيا، فإذا ظفر بذلك اعتبر نفسه قد فاز فوزًا عظيمًا، وفاخر بهذه المحبة أقرانه، مع أنَّ هذا الرئيس أو الأمير لا يستطيع أن يزيد في رزقه درهمًا لم يكتبه الله له، ولا أن يؤخر أجله ساعة ليست من عمره، ولا يملك أن يهب له سكينه في قلبه، أو راحة لضميره، أو صلاحًا لذريته، أو قرعة عين بزوجه، أو نحو ذلك من طيبات الحياة التي لا يجدها الملوك أنفسهم، فكيف يهبونها لغيرهم، وفاقد الشيء لا يعطيه؟

إنَّ المسلم يرنو بعينه، ويهفو بقلبه، ويسعى بجهد، لكي يرتقي إلى محبة الله تعالى، لكي يكون محبوبًا لله ربِّ العالمين، وأي منزلة أسمى من هذه المنزلة التي عبَّرَ عنها الحديث القدسي الشريف الذي رواه البخاري: «وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتَّى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها.. ولئن سألتني لَأُعْطِيته، ولئن استعاذني لأَعِذَّنَّهُ»^(١).

وإنَّما يحبُّ الله التَّوَّابِينَ؛ لأنَّه يكره من عباده الشُّرُودَ عنه، والبعد عن ساحته، والوقوع في أسر عدوه الشَّيْطَانِ، ويحبُّ منهم أن يرجعوا إليه، ويقفوا على بابهِ، وإن عصوه وقصَّروا في حقه جل شأنه، فبابه لهم مفتوح، ويده إليهم مبسوطة أبدًا، يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنَّهار ليتوب مسيء الليل، ولا يردُّهم عن عتبته، ويناديهم: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

ومن ناحية أخرى، نجد التَّائِبَ - بعد تورطه في معصية الله - يشعر

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢)، عن أبي هريرة.

بشدة الحاجة إليه، والافتقار إلى رحمته، والانكسار بين يديه، وعمق الإحساس بحقيقة العبودية له، وغاية الخضوع لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

ومن هنا قال العارفون: «إِنَّ عبودية التَّوْبَةِ من أَحَبِّ العبوديات إلى الله تعالى وأكرمها عليه، فَإِنَّه سبحانه يحبُّ التوابين».

ولو لم تكن التَّوْبَةُ أَحَبَّ الأشياء إليه، لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه، فلمحبته لتوبة عبده ابتلاه بالذنب، الذي يوجب وقوع محبوبه من التَّوْبَةِ، وزيادة محبته لعبده، فَإِنَّ للتَّائِبِينَ عنده محبة خاصة. يوضح ذلك:

الوجه الثاني: أَنَّ للتوبة عنده سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات، ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدر، كما مثله النبي ﷺ بفرح الواجد راحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدويَّة المَهْلُكَةِ، بعدما فقدوها، وأيس من أسباب الحياة^(١)، ولم يجئ هذا الفرح في شيء من الطاعات سوى التَّوْبَةِ، ومعلوم أَنَّ لهذا الفرح تأثيرًا عظيمًا في حال التَّائِبِ وقلبه، ومزيده لا يعبر عنه، وهو من أسرار تقدير الذنوب على العباد، فَإِنَّ العبد ينال بالتَّوْبَةِ درجة المحبوبة، فيصير حبيبًا لله، فَإِنَّ الله يحبُّ التوابين، ويحبُّ العبد المفتن التَّوَّاب، يوضحه:

الوجه الثالث: أَنَّ عبودية التَّوْبَةِ فيها من الذل والانكسار، والخضوع والتملق لله، والتذلل له، ما هو أَحَبُّ إليه من كثير من الأعمال الظاهرة، وإن زادت في القدر والكمية على عبودية التَّوْبَةِ، فَإِنَّ الذلَّ والانكسار روحُ العبودية ومخُّها ولُبُّها، يوضحها:

(١) رواه مسلم في التوبة (٢٧٤٧)، عن أنس.

الوجع الرابع: أَنَّ حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره، فَإِنَّهُ قد شارك من لم يذنب في ذلّ الفقر والعبودية والمحبة، وامتناز عنه بانكسار قلبه بالمعصية، واللّه سبحانه أقرب ما يكون إلى عبده عند ذله، وانكسار قلبه، كما في الأثر الإسرائيلى: «يا رب أين أجذك؟ قال: عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»^(١). ولأجل هذا كان «أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد»^(٢)؛ لَأَنَّهُ مقام ذلّ وانكسارٍ بين يدي ربّه.

وتأمل قولَ النَّبِيِّ ﷺ، فيما يروى عن ربّه ﷻ أَنَّهُ يقول يوم القيامة: «يا ابنَ آدم، استطعمْتُك فلم تُطعمْني. قال: يا ربّ، كيف أُطعمُكَ وأنت ربُّ العالمين؟ قال: استطعمْتُ عبدي فلانٌ فلم تُطعمْهُ، أمّا لو أطعمته لوجدت ذلك عندي.

ابنَ آدم، استسقيْتُك فلم تسقني. قال: يا ربّ، كيف أسقيكَ وأنت ربُّ العالمين؟ قال: استسقاكَ عبدي فلانٌ فلم تسقه، أمّا لو سقيته لوجدت ذلك عندي.

ابنَ آدم، مرضتُ فلم تُعْذني. قال: يا ربّ، كيف أعودُكَ وأنت ربُّ العالمين؟ قال: أمّا إنَّ عبدي فلاناً مرض فلم تُعْده، أمّا لو عُدته لوجدتني عنده»^(٣). فقال في عيادة المريض: «لوجدتني عنده». وقال في الإطعام، والإسقاء «لوجدت ذلك عندي»، ففرّق بينهما، فإنَّ المريض مكسور القلب ولو كان من كان، فلا بدّ أن يكسره المرض، فإذا كان مؤمناً قد انكسر قلبه بالمرض كان الله عنده.

وهذا - والله أعلم - هو السرُّ في استجابة دعوة الثلاثة: المظلوم،

(١) سبق تخريجه ص ١٢٩.

(٢) سبق تخريجه ص ١٣٠.

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٩)، عن أبي هريرة.

والمسافر، والصائم، للكسرة التي في قلب كل واحد منهم، فإنَّ غربة المسافر وكسرتة ممَّا يجده العبد في نفسه، وكذلك الصوم، فإنَّه يكسر سورة النفس السبعية الحيوانية، ويذلها.

والقصد: أنَّ شَمعة الجبر والفضل والعطايا، إنَّما تنزل في شمعدان الانكسار، وللعاصي التائب من ذلك أوفر نصيب، يوضحه:

الوجه الخامس: أنَّ الذَّنْب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التَّوْبَة من كثير من الطاعات، وهذا معنى قول بعض السلف: قد يعمل العبد الذَّنْب فيدخل به الجَنَّة، ويعمل الطاعة فيدخل بها النَّار، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الذَّنْب فلا يزال نُصَبَ عَيْنُه، إن قام، وإن قعد، وإن مشى: ذكر ذنبه، فيحدث له انكسارًا، وتوبةً، واستغفارًا، وندمًا، فيكون ذلك سبب نجاته، ويعمل الحسنة، فلا تزال نصب عينيه، إن قام، وإن قعد، وإن مشى، كلما ذكرها أورثته عُجْبًا وكبرًا ومَنَّةً، فتكون سبب هلاكه، فيكون الذَّنْب موجبًا لترتُّب طاعات وحسنات، ومعاملات قلبية، من خوف الله والحياء منه، والإطراق بين يديه منكسًا رأسه خجلًا، باكيًا نادمًا، مستقبلًا ربه، وكل واحد من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صَوْلَة، وكبرًا، وازدراءً بالناس، ورؤيتهم بعين الاحتقار، ولا ريب أنَّ هذا الذَّنْب خير عند الله، وأقرب إلى النجاة والفوز، من هذا المعجب بطاعته، الصائل بها، المانُّ بها، وبحاله على الله وَجَلَّ وعبادته، وإن قال بلسانه خلاف ذلك، فالله شهيد على ما في قلبه، ويكاد يعادي الخلق إذا لم يعظّموه ويرفعوه، ويخضعوا له، ويجد في قلبه بغضة لمن لم يفعل به ذلك، ولو فتش نفسه حق التفتيش لرأى فيه ذلك كامنًا^(١).

(١) انظر: المدارج (٢٩٧/١ - ٢٩٩).



٨ - فرح الله بالتائب:

ومن ثمار التوبة: نيل الفرحة الكبرى التي لا تعادلها ولا تدانيها فرحة، إنها فرحة الرب الأعلى، رب العالمين، بتوبة عبده ورجوعه إليه، بعد شروده عنه، ووقوعه أسيرًا في يد عدوه وجنوده: إبليس اللعين، وهو بالتوبة قد فكَّ أسرَه، وخرج من سجنه، وخلَّص من عدوّه، وعاد إلى رحاب ربّه وحبيبه، الذي غمره بإحسانه، وأحاطه بنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، المادية والمعنوية.

إنها الفرحة الكبرى التي لا نجد في تصويرها والتعبير عن مداها أبلغ من حديث رسول الله ﷺ الذي رواه عنه ابن مسعود أنّه قال: «لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً، وبه مهلكة، ومعه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهب راحلته، فطلبها، حتّى إذا اشتدّ عليه الحر والعطش، قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتّى أموت، فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه، فإذا راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه! فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن، من هذا براحلته»^(١).

ولقد تحدّث ابن القيم عن هذا الفرح الإلهي بتوبة التائب حديثاً بليغاً فياضاً، بيّن فيه «أنّ هذا الفرح له شأن لا ينبغي للعبد إهماله والإعراض عنه، ولا يطلع عليه إلّا من له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته، وما يليق بعزّ جلاله».

قال: «اعلم أنّ الله ﷻ اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأنّ كرّمه وفضّله، وشرّفه، وخلق له نفسه، وخلق كل شيء له، وخصه من معرفته ومحبته وقربه إكرامه بما لم يعطه غيره، وسخر له ما في سماواته وأرضه

(١) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٨).

وما بينهما، حتّى ملائكته - الذين هم أهل قربه - استخدمهم له، وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته، وظعنه وإقامته، وأنزل إليه وعليه كتبه، وأرسله وأرسل إليه، وخاطبه وكلمه منه إليه، واتّخذ منهم الخليل والكليم، والأولياء والخواص والأحبار، وجعلهم معدن أسرارهم، ومحل حكمتهم، وموضع حبه، وخلق لهم الجنة والنار، فالخلق والأمر والثواب والعقاب مداره على النوع الإنساني، فإنّه خلاصة الخلق، وهو المقصود بالأمر والنهي، وعليه الثواب والعقاب، فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات.

وقد خلق أباه بيده، ونفخ فيه من رُوحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات، وطرد إبليس عن قربه، وأبعده عن بابه، إذ لم يسجد له مع الساجدين، واتّخذهُ عدوًّا له.

والمؤمن من نوع الإنسان: خير البرية على الإطلاق، وخيرة الله من العالمين، فإنّه خلقه ليتم نعمته عليه، وليتواتر إحسانه إليه، وليخصّه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته، ولم يخطر على باله، ولم يشعر به، ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة، والعاجلة والآجلة، التي لا تنال إلّا بمحبته، ولا تنال محبته إلّا بطاعته وإيثاره على ما سواه، فاتخذهُ محبوبًا له، وأعدّ له أفضل ما يعده محبّ غني قادر جواد لمحجوبه إذا قدم عليه، وعهد إليه عهدًا تقدّم إليه فيه بأوامره ونواهيه، وأعلمه في عهده ما يقربه إليه، ويزيده محبة له، وكرامة عليه، وما يبعده منه، ويسخطه عليه، ويسقطه من عينه.

وللمحجوب عدو، هو أبغض خلقه إليه، قد جاهره بالعداوة، وأمر عباده أن يكون دينهم وطاعتهم وعبادتهم له، دون وليهم ومعبودهم

الحق، واستقطع عباده، واتخذ منهم حزباً ظاهروه ووالؤه على ربهم، وكانوا أعداءً له مع هذا العدو، يدعون إلى سخطه، ويطعنون في ربوبيته وإلهيته ووحدانيته، ويسبونه ويكذبونه، ويفتنون أوليائه، ويؤذونهم بأنواع الأذى، ويجذون على إعدامهم من الوجود وإقامة الدولة لهم، ومحو كل ما يحبه الله ويرضاه، وتبديله بكل ما يسخطه ويكرهه، فعرفه بهذا العدو وطرائقهم وأعمالهم وما لهم، وحذره موالاتهم والدخول في زمرتهم والكون معهم.

وأخبره في عهده: أنه أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وأنه سبقت رحمته غضبه، وحلمه عقوبته، وعفوه مؤاخذته، وأنه قد أفاض على خلقه النعمة، وكتب على نفسه الرحمة، وأنه يحب الإحسان والجود والعطاء والبر، وأن الفضل كله بيده، والخير كله منه، والجود كله له، وأحب ما إليه: أن يجود على عباده، ويوسعهم فضلاً، ويغمرهم إحساناً وجوداً، ويتم عليهم نعمته، ويضاعف لديهم منته، ويتعرف إليهم بأوصافه وأسمائه، ويتحجب إليهم بنعمه وآلائه.

فهو الجواد لذاته، وجود كل جواد خلقه الله ويخلقه أبداً: أقل من ذرة بالقياس إلى جوده، فليس الجواد على الإطلاق إلا هو، وجود كل جواد فمن جوده، ومحبتة للجود والإعطاء والإحسان، والبر والإنعام والإفضال: فوق ما يخطر ببال الخلق، أو يدور في أوهامهم، وفرحه بعطائه وجوده وإفضاله أشد من فرح الآخذ ما يُعطاه ويأخذه أحوج ما هو إليه أعظم ما كان قدراً، فإذا اجتمع شدة الحاجة وعظم قدر العطية والنفع بها، فما الظن بفرح المعطى؟ ففرح المعطي سبحانه بعطائه أشد وأعظم من فرح هذا بما يأخذه، والله المثل الأعلى.

فإذا تعرّض عبده ومحبوبه الذي خلقه لنفسه، وأعدّ له أنواع كرامته، وفضّله على غيره، وجعله محلّ معرفته، وأنزل إليه كتابه، وأرسل إليه رسوله، واعتنى بأمّره، ولم يهمله، ولم يتركه سُدىً، فتعرّض لغضبه، وارتكب مساخطه وما يكرهه وأبق منه، ووالى عدوّه، وظاهره عليه، وتحيّز إليه، وقطع طريق نعمه وإحسانه إليه التي هي أحبُّ شيء إليه، وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام: فقد استدعى من الجواد الكريم خلاف ما هو موصوف به من الجود والإحسان والبر، وتعرّض لإغضابه وإسقاطه وانتقامه، وأن يصير غضبه وسخطه في موضع رضاه، وانتقامه وعقوبته في موضع كرمه وبره وعطائه، فاستدعى بمعصيته من أفعاله ما سواه أحب إليه منه، وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان.

فبينما هو حبيبه المقرّب المخصوص بالكرامة، إذ انقلب أبقاً شاردًا، رادًا لكرامته، مائلًا عنه إلى عدوه، مع شدة حاجته إليه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين.

فبينما ذلك الحبيب مع العدو في طاعته وخدمته، ناسيًا لسيده، منهمكًا في موافقة عدوه، قد استدعى من سيده خلاف ما هو أهله، إذ عرضت له فكرة، فتذكّر برّ سيده وعطفه وجوده وكرمه، وعلم أنّه لا بدّ له منه، وأنّ مصيره إليه، وعرضه عليه، وأنّه إن لم يقدّم عليه بنفسه قدّم به عليه على أسوأ الأحوال. ففرّ إلى سيده من بلد عدوّه، وجدّ في الهرب إليه، حتّى وصل إلى بابه، فوضع خدّه على عتبة بابه، وتوسّد ثرى أعتابه، متذللاً متضرّعًا، خاشعًا باكياً آسفًا، يتملّق سيّده ويسترحمه، ويستعطفه ويعتذر إليه، قد ألقي بيده إليه، واستسلم له، وأعطاه قياده، وألقى إليه زمامه، فعلم سيده ما في قلبه، فعاد مكان الغضب عليه رضا

عنه، ومكان الشدة عليه رحمة به، وأبدله بالعقوبة عفواً، وبالمنع عطاءً، وبالمؤاخذه حلماً، فاستدعى بالتَّوْبَةِ والرجوع من سيده ما هو أهله، وما هو موجب أسمائه الحسنَى، وصفاته العليا؛ فكيف يكون فرح سيده به؟ وقد عاد إليه حبيبه ووليه طوعاً واختياراً، وراجع ما يحبُّه سيده منه برضاه، وفتح طريق البر والإحسان والجود، التي هي أحب إلى سيده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة؟

هذا إذا نظرت إلى تعلُّق الفرح الإلهي بالإحسان والجود والبر. وأما إن لاحظت تعلُّقه بِلَهِيَّتِهِ وكونه معبوداً: فذاك مشهد أجل من هذا وأعظم منه، وإنَّما يشهده خواصُّ المحبِّين.

فإن الله سبحانه إنَّما خلق الخلق لعبادته، الجامعة لمحبتِهِ، والخضوع له وطاعته، وهذا هو الحق الذي خُلقت به السماوات والأرض، وهو غاية الخلق والأمر، ونفيه - كما يقول أعداؤه - هو الباطل، والعبث الذي نَزَّه الله نفسه عنه، وهو السُّدى الذي نَزَّه نفسه عنه: أن يترك الإنسان عليه، وهو سبحانه يحبُّ أن يُعبد ويُطاع، ولا يعبأ بخلقه شيئاً لولا محبتهم له، وطاعتهم له، ودعاؤهم له.

وقد أنكر على من زعم أنَّه خلقهم لغير ذلك، وأنَّهم لو خُلقوا لغير عبادته وتوحيده وطاعته لكان خلقهم عبثاً وباطلاً وسُدى، وذلك ممَّا يتعالى عنه أحكم الحاكمين، والإله الحق، فإذا خرج العبد عما خُلِق له من الطاعة والعبودية، فقد خرج عن أحبِّ الأشياء إليه، وعن الغاية التي لأجلها خلقت الخليقة، وصار كأنَّه خلق عبثاً لغير شيء، إذا لم تخرج أرضه البذر الذي وضع فيها، بل قلبته شوكة ودغلاً، فإذا رجع إلى ما خُلِق له وأوجد لأجله: فقد رجع إلى الغاية التي هي أحب الأشياء إلى خالقه وفاطره، ورجع إلى مقتضى الحكمة التي خلق لأجلها، وخرج عن

معنى العبث والسُدَى والباطل، فاشتدت محبة الربّ له، فإنّ الله يحبُّ التّوّابين ويحبُّ المتطهّرين، فأوجبت هذه المحبة فرحاً كأعظم ما يقدر من الفرح، ولو كان في الفرح المشهود في هذا العالم نوع أعظم من هذا الذي ذكره النبي ﷺ لذكره، ولكن لا فرحة أعظم من فرحة هذا الواجد الفاقد لمادة حياته وبلاغه في سفره، بعد إياسه من أسباب الحياة بفقده، وهذا كشدة محبّته لتوبة التائب المحبّ، إذا اشتدت محبته للشيء وغاب عنه، ثم وجده وصار طوع يده، فلا فرحة أعظم من فرحته به.

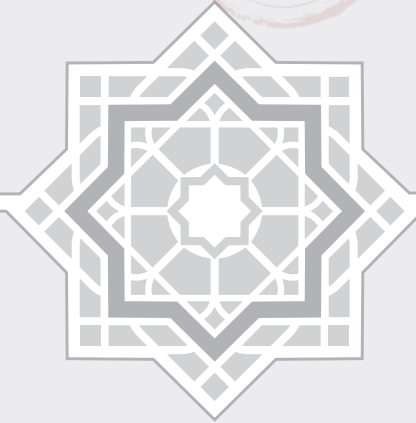
فما الظن بمحبوب لك تحبّه حبّاً شديداً، أسرّه عدوُّك، وحال بينك وبينه، وأنت تعلم أنّ العدو سيسومه سوء العذاب، ويعرضه لأنواع الهلاك، وأنت أولى به منه، وهو غرسك وتربيتك، ثم إنّه انفلت من عدوّه ووافاك على غير ميعاد.

فلم يفجأك إلّا وهو على بابك، يتملّك ويترضّاك ويستعينك، ويمرّغ خديه على تراب أعتابك، فكيف يكون فرحك به، وقد اختصّته لنفسك، ورضيته لقربك، وآثرته على سواه؟ هذا، ولست الذي أوجدته وخلقته، وأسبغت عليه نعمك!

والله ﷻ هو الذي أوجد عبده، وخلقّه، وكوّنه، وأسبغ عليه نعمه، وهو يحبُّ أن يتمّها عليه، فيصير مظهرًا لنعمه، قابلاً لها، شاكراً لها، محبّاً لوليها، مطيعاً له، عابداً له، معادياً لعدوه، مبغضاً له عاصياً له، والله تعالى يحبُّ من عبده معاداة عدوه، ومعصيته ومخالفته، كما يحبُّ أن يوالي الله مولاه سبحانه، ويطيعه ويعبده، فتتضاف محبته لعبادته وطاعته والإنابة إليه، إلى محبّته لعداوة عدوّه، ومعصيته، ومخالفته، فتشتد المحبّة منه سبحانه، مع حصول محبوبه، وهذا هو حقيقة الفرح»^(١).

(١) مدارج السالكين (١/٢١٠ - ٢١٦).

مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرِظَاوِيِّ



الباب السادس الموانع من التوبة



- الاستهانة بالذنوب.
- طول الأمل.
- الاتكال على أمانِيّ العفو الإلهي.
- استحكام الذنوب واليأس من المغفرة.
- الجهل بحقيقة المعصية.
- الاحتجاج بالقدر.



غير مرخصة للطباعة

الموانع من التوبة

التَّوْبَةُ فريضة على جميع المؤمنين، كما جاء في القرآن، وحاجة كل إنسان إليها حاجة أساسية لا يستغني عنها، كما لا يستغني عن الطعام والشراب، والإعراض عن التَّوْبَةِ خطر على الإنسان، قد يؤدي به، ويوقعه في مهاوي الرَّدَى، فهو خطر على قلبه، على إيمانه، على حسن صلته بربه، على حياته الروحية كلها.

ولكن ما الذي يمنع الإنسان من التَّوْبَةِ، ويؤخره عنها، وفيها نجاته وسعادته؟

لا يخفى أنَّ هناك عقباتٍ وموانعَ تحول بين الإنسان وبين توبته إلى الله تعالى، ينبغي أن نسلِّط عليها بعض الأشعة الكاشفة، حتَّى نحاول التغلب عليها، فليس هناك شيء مستحيل، وخصوصًا مع المحاولة وبذل الجهد وصدق العزم وصحة التوجُّه.

وجل هذه الموانع - إن لم يكن كلها - موانع نفسية، تنبع من داخل الإنسان، وتؤثر في توجهه وسلوكه.

١ - الاستهانة بالذنوب:

من أوائل هذه الموانع: الاستهانة بالذنوب، واعتبارها أمرًا هيئًا، لا يُزعج ولا يُقلق ولا يخيف. وهذا ولا شك من أثر الجهل بمقام

الله جلَّ جلاله، خالق الخلق، ومالك الملك، ذي الجلال والإكرام، الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وكرمه أفضل تكريم، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً معه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، والذي يفعل في ملكه ما يشاء، العزيز الجبار، الواحد القهار.

هذا الإله العظيم لا يجوز أن يُستهان بمعصيته، حتّى يقول: ليت كل ذنب فعلته مثل هذا! بل ينبغي أن يستعظم كل ما يصدر عنه من معصية في حق الله وعجل.

وفي الحديث الذي رواه البخاري عن ابن مسعود: «المؤمن يرى ذنبه كالجبل يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا وهكذا»^(١).

ومرّض بعض الصّالحين من السل، فعاده بعض أصحابه، فوجدوه يبكي بمرارة وحرقة، فعجبوا لذلك، وسألوه: ما هذا البكاء، ولم نرك في حياتك قد اقترفت كبيرة، أو قصّرت في فريضة، أو ضيّعت حقاً؟ فكان جوابه: والله ما أبكي على فريضة تركتها، ولا حرمة انتهكتها، ولا حقّ ضيّعته، ولكن أبكي؛ لأنّي أخشى أن أكون قد أتيت ذنباً أحسبه هيئاً وهو عند الله عظيم^(٢)!

وهو يشير إلى ما ذكره القرآن في قصة أم المؤمنين عائشة، وكيف لاكت بعض ألسنة المسلمين حديث الإفك عنها، الذي أشاعه المنافقون، فتلقّفوه بسذاجة وغباء، ونقله بعضهم عن بعض باستهتار، وبلا تهيب،

(١) سبق تخريجه ص ٣٩.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في المحتضرين (٣٦٥)، عن رجل من أصحاب النبي.

فجاء القرآن يعقّب ويقول: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]، ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

وقد ذكرت عائشة مرةً إحدى ضرائرها، فأشارت إلى أنها قصيرة القامة! فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة، لقد قلت كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته»^(١).

ولقد حذرنا رسول الله ﷺ من «محقرات الذنوب» فقال: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه»^(٢).

٢ - طول الأمل:

ومن موانع التَّوْبَةِ ومؤخراتها: طول الأمل في الحياة، بمعنى أن يعتبر الإنسان أن الحياة معه لا تزال ممتدة، وأن الموت لا يزال بعيداً، وأن في العمر متسعاً لمزيد من اللهو والغفلة، واتباع الهوى، والسير في ركاب الشيطان.

(١) رواه أحمد (٢٥٥٦٠)، وقال مخرّجه: إسناده على شرط مسلم. وأبو داود في الأدب (٤٨٧٥)، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٢)، وقال: حسن صحيح. وصحّحه الألباني في تخريج الحلال والحرام (٤٢٧)، عن عائشة.

(٢) رواه أحمد (٢٢٨٠٨)، وقال مخرّجه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين. والطبراني في الأوسط (٧٣٢٣)، وفي الصغير (٩٠٤)، وفي الكبير (١٦٥/٦)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٤٦٢): رواه أحمد عن سهل بن سعد ورجال الصريح، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين، ورجال أحدهما رجال الصريح، غير عبد الوهاب بن الحكم وهو ثقة. وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٨٦)، عن سهل بن سعد.

إِنَّ آفَةَ الْإِنْسَانِ: أَنَّهُ لَا يَزَالُ يَمْنِي نَفْسَهُ بِطُولِ الْعِيشِ، وَيُزِيحُ شَبَحَ الْمَوْتِ كُلَّمَا تَرَاءَى أَمَامَ عَيْنَيْهِ، فابْنُ الْعَشْرِينَ يَقُولُ: أَتُوبُ فِي الْأَرْبَعِينَ، وَابْنُ الْأَرْبَعِينَ يَقُولُ: أَتُوبُ فِي السَّتِينَ، وَابْنُ السَّتِينَ، يَقُولُ: أَتُوبُ فِي السَّبْعِينَ، وَهَكَذَا يَظَلُّ الْإِنْسَانُ يَسْتَبْعِدُ الْمَوْتَ وَهُوَ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ إِلَيْهِ، وَيَسُوِّفُ التَّوْبَةَ، وَهُوَ أَحْوَجُ مَا يَكُونُ إِلَيْهَا.

المشكلة أَنَّ الْمَوْتَ لَا يَسْتَأْذِنُ قَبْلَ مَجِيئِهِ، وَيَأْتِي بَغْتَةً، وَكَثِيرًا مَا يَأْتِي غَيْرَ مَتَوَقَّعٍ، فَيَخْتطفُ الصَّغِيرَ قَبْلَ الْكَبِيرِ، وَالشَّابَّ قَبْلَ الشَّيْخِ، وَالابْنَ قَبْلَ أَبِيهِ، وَالْبَنْتَ قَبْلَ أُمِّهَا.

وَأَخْطَرُ أَلْوَانِ الْمَوْتِ هُوَ مَوْتُ الْفَجْأَةِ، الَّذِي يَهْجُمُ عَلَى الْمَرْءِ دُونَ أَنْ يَسْتَعِدَّ لَهُ، أَوْ يَهَيِّئَ الزَّادَ لِسَفَرِهِ، وَلِهَذَا اسْتَعَاذَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ شَرِّهِ.

وهذا ما خَوَّفَ مِنْهُ الصَّالِحُونَ مِنْ قَدِيمٍ، وَقَالَ قَائِلُهُمْ:
تَزَوَّدْ لِلَّذِي لَا بَدَّ مِنْهُ فَإِنَّ الْمَوْتَ مِيقَاتُ الْعِبَادِ!
أَتَرْضَى أَنْ تَكُونَ رَفِيقَ قَوْمٍ لَهُمْ زَادٌ وَأَنْتَ بَغِيرِ زَادٍ^(١)؟
وفي عصرنا كَثُرَتْ أَسْبَابُ الْمَوْتِ الْمَفْاجِئِ، مِمَّا لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ فِي الْعَصُورِ الْمَاضِيَةِ، رَغْمَ تَقَدُّمِ الطَّبِّ وَالتَّفُوقِ فِي الْعِلَاجِ.

فطالما سَمِعْتُ النَّاسَ يَمُوتُونَ فَجْأَةً: بِالسَّكْتَةِ الْقَلْبِيَةِ، أَوْ الذَّبْحَةِ الصَّدْرِيَةِ، أَوْ الْجَلْطَةِ الْمُخَيَّةِ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا نَعْرِفُهُ وَمَا لَا نَعْرِفُهُ.

كما أَنَّ الْمَوْتَ فِي الْحَوَادِثِ أَصْبَحَ كَثِيرًا جَدًّا، فَهَذَا يَمُوتُ فِي حَادِثَةِ سَيَّارَةٍ، وَآخَرُ فِي بَاخِرَةٍ، وَثَالِثُ فِي قَطَارٍ، وَرَابِعُ فِي طَائِرَةٍ، وَهَذَا ثَمَنُ الْحَضَارَةِ.

(١) ذكره ابن رجب من غير نسبة بلفظ مقارب في لطائف المعارف ص ٣٤٤، نشر دار ابن حزم للطباعة والنشر، ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

لا معنى إذن لأن يستبعد الإنسان الموت، وهو يرى صرعاة في كل حين، ولو نظر فيما حوله ومن حوله، وفكّر وتأمل: كم شيع من قريب، وكم ودّع من حبيب، وكم دفن من رفيق، وكم عزّى في صديق، لو تذكّر قائمة الأسماء التي واراها التراب ممّن يعرفهم ويتصل بهم لهاله طول القائمة واتساعها.

ومن هنا علّمنا رسولنا الكريم أن نعيش في الدنيا بروح الغرباء، فنحن في هذه الدار ضيوف راحلون حتمًا، غدًا أو بعد غد، فهي دار ممرّ لا دار مقر، يقول ﷺ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعُدّ نفسك من أهل القبور». وكان ابن عمر يقول: إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وخذ من صحّتك لسقمك، ومن حياتك لموتك^(١).

ومن رجزهم الذي كانوا يتناشدونه في عهد الصحابة:
كلُّ امرئ مصبّحٌ في أهله والموت أدنى من شراك نعله^(٢)!
ومن أشعار من بعدهم من الصّالحين:

تزوّد من التّقوى فإنّك لا تدري إذا جنّ ليلٌ: هل تعيشُ إلى الفجرِ؟
فكم من سليمٍ مات من غيرِ علّة وكم من سقيمٍ عاش حينًا من الدّهرِ!
وكم من فتّى يُمسي ويُصبحُ لاهيًا وقد نُسِجتْ أكفانُهُ، وهو لا يدري^(٣)

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤١٦)، والترمذي في الزهد (٢٣٣٣)، عن ابن عمر.

(٢) رواه البخاري في فضائل المدينة (١٨٨٩)، عن عائشة موقوفًا على أبي بكر.

(٣) ذكره الفاكهاني ولم ينسبه في رياض الأفهام (١٧٠/٣)، تحقيق نور الدين طالب، نشر دار

النوادر، سوريا، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

٣ - الاتِّكَالُ عَلَى أَمَانِي الْعَضْوِ الْإِلَهِيِّ:

ومن الموانع التي تؤخّر التوبة: الاتِّكَالُ عَلَى عَفْوِ اللَّهِ تَعَالَى وَسِعَةِ رَحْمَتِهِ كَمَا حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ، أَنَّهُمْ: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وهذا لا شك من الغرور القاتل، فمن أين يضمن أن الله تعالى سيغفر له؟ وهل أخذ موثقاً أو صكاً من الله تعالى بذلك؟ وهو سبحانه يغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، ولا معقب لحكمه.

إنَّ فرق ما بين المؤمن والمنافق: أنَّ المؤمن يعمل الصَّالِحَاتِ، ويقول: أخشى ألا تُقبل مني! والمنافق يقترب السيئات، ويقول: أطمع أن تُغفر لي.

صحيح أنَّ رحمة الله تعالى وسعت كل شيء، كما أنَّ علمه وسع كل شيء، وهو ما قاله الملائكة في دعائهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، وقال تعالى في خطابه لكليمه موسى ﷺ: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

فجعل العذاب خاصاً، والرحمة عامّة، ولكِنَّه تعالى عَقَّبَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ عَنْ هَذِهِ الرَّحْمَةِ: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ... [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

إنَّ الرجاء في رحمة الله يتطلب عملاً يقرب المرء من هذه الرحمة، مثل الإيمان والهجرة والجهاد، كما قرأنا ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿البقرة: ٢١٨﴾. فلم يقرّر لهم الرجاء إلا بعد اجتياز هذه المراحل الصعبة.

وفرق بين الرجاء والأمنية: الرجاء ما قارنه عمل وسعي، وإلا فهو أمنية فارغة، كما قال عليّ كرم الله وجهه في وصيته لابنه: وإياك والاتكال على المني، فإنّها بضائع النوكى. أي الحمقى^(١). ويقول الشاعر:

ولا تكن عبد المني، فالمني رؤوس أموال المفاليس^(٢)!

وقال آخر:

أَعْلَلُ بِالْمُنَى قَلْبِي، لَعَلِّي أَرْوِّحُ بِالْأَمَانِي الهَمَّ عَنِّي!
وَأَعْلَمُ أَنَّ وَصْلَكَ لَا يُرْجَى وَلَكِنْ لَا أَقَلُّ مِنَ التَّمَنِّي^(٣)!

ولقد حكى الله لنا هذا اللون من الأمانى عن اليهود والنصارى، حيث قال: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿البقرة: ١١١، ١١٢﴾. هذا ما قرّره القرآن عن هؤلاء: تلك أمانيتهم، تمنّ للجنة بلا عمل، وإنما ينال الجنة من جمع وصفين أساسيين: إسلام الوجه لله، والإحسان.

(١) ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد (١٠٢/٣).

(٢) من شعر أبي بكر الخالدي. كما في التمثيل والمحاضرة للثعالبي ص ١١٣، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، نشر الدار العربية للكتاب، ط ٢، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٣) من شعر أبي الفتح البستي، كما في الدر الفريد وبيت القصيد (٤٥٠/٣)، تحقيق د. كامل سلمان الجبوري، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م، ونسبه الشرواني في نفحة اليمن ص ٢١٣ إلى ابن العفيف التلمساني، نشر مطبعة التقدم العلمية، مصر، ط ١، ١٣٢٤هـ.

وفي سورة أخرى يقول تعالى حُكْمًا عَدْلًا بَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُسْلِمِينَ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

لا تنس يا أخي المسلم أن الله تعالى لم يسامح نبيه آدم في لقمة أكلها من الشجرة بعد أن نهاه عنها، وهو الذي خلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته! ولا تنس أنه ﷺ لم يسامح نوحًا عليه السلام في كلمة قالها يشفع بها لابنه الكافر: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي أَبْنَىٰ مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ﴾ * قَالَ يَنْفُخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * [هود: ٤٥، ٤٦]. فانظر إلى هذا الردّ الشديد على شيخ المرسلين، حتى لا تطمع في غير مطمع. وتأمل قول الشاعر:

يا ناظرًا يرنو بعيني راقدٍ ومُشاهدًا للأمر غير مشاهد!
تصلُ الذنوبَ إلى الذنوبِ وترتجي نيلَ الجنانِ، ودركِ فوزِ العابدِ
أنسيتَ أن الله أخرج آدمًا منها إلى الدنيا بذنبٍ واحدٍ^(١)!

فلا مجال - إذن - لأولئك المسرفين على أنفسهم، المفرطين في جنب ربهم وبارئهم، المقصّرين في حقوق غيرهم، أن يؤجلوا التوبة قائلين: إن الله غفور رحيم، فإن هذا جهل بمقام الله تعالى، ونظرة إلى جانب من كمالاته وعجله، دون استيعاب الجوانب الأخرى، فقد قال ﷺ: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أُنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

(١) من أشعار محمود الوراق، كما في عيون الأخبار (٤٠٣/٢)، نشر دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ.

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

وهذا يعتبر من العجز والحماقة، وليس من الفطنة والكياسة، كما في الحديث النبوي الذي رواه الترمذي: «الكيس: مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ: مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِيَّ»^(١).

وقد أنكر صالحو الأمة على من فرط في حقّ ربّه، ثم اتّكل على عفوّه ومغفرته، وقال شاعرهم في ذلك:

ما بال قلبك ترضى أن تُدَنِّسَه وثوبك - الدهر - مغسولٌ من الدَّنَسِ؟
ترجو النِّجَاةَ ولم تسلك مسالكها إنّ السَّفِينَةَ لا تَجْرِي عَلَى الْيَبَسِ^(٢)!

إنّ الرجاء في عفو الله ومغفرته سبحانه مطلوب من كل مسلم، وإنّ كثرت معاصيه وعظمت خطاياها، فهو من ضرورات السير إلى الله تعالى، ولكن لا ينبغي أن يرجو الإنسان ثمرةً، دون أن يبذر بذرةً، أو يغرس شجرةً، ويتولى سقايتها ورعايتها.. فإنّ المبالغة في الرجاء بغير عمل يقدم، أو جهد يبذل، يجعله نوعاً من الأمن من مكر الله تعالى، وهو باب الخسران، يقول ربّك: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

(١) رواه أحمد (١٧١٢٣)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٥٩)، وقال: حديث حسن. وابن ماجه في الزهد (٤٢٦٠)، والحاكم في التوبة (٢٨٠/٤)، وصحّح إسناده، ووافقه الذهبي، عن شداد بن أوس.

(٢) من شعر أبي العتاهية، انظر: زهر الآداب وثمر الألباب (٨٧١/٣)، نشر دار الجيل، بيروت. وهما في ديوانه ص ٢٣٠ - دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٦م - في قصيدة واحدة غير متتاليتين.

٤ - استحكام الذنوب واليأس من المغفرة:

ومن موانع التَّوْبَةِ لدى بعض الناس: أن يعيش بعيداً عن ساحة الله، وأن يغوص في أحوال الذنوب صغائرها وكبائرها، مرتكباً للمحظورات، تاركاً للمأمورات، مضيئاً للحقوق، ما كان فيها من حقوق الله، وما كان منها من حقوق العباد، لقد كان في الذين أضاعوا الصلوات، واتبعوا الشهوات، لم تعرف عينه الدموع، ولا قلبه الخشوع، ولا ظهره الركوع، ولا جبهته السجود، لم يكن المسجد له داراً، ولا المصحف له أنيساً، ولا النبي له أسوة، ولا الصحابة له قدوة.

وفجأة صحا من سكرته، وتنبه من غفوته، فوجد البؤس بينه وبين أهل الخير والصلاح شاسعاً، وأين الثرى من الثرى، إنَّ ذنوبه - وما أكثرها - تثقل ظهره، وتغلُّ قدمه، فلا يستطيع أن يتحرَّك إلى الأمام، وهل يقبله الله بعد هذه الحياة المظلمة بالمعاصي، التي لم يكن يرى فيها شعاعاً من نور، وهل يفتح له الباب بعد طول الشرود إلى أبواب آخر غير باب الله؟ إنَّه هالك لا محالة، قد كُتِبَ عليه الشقوة والضياع، فلا أمل في عودته، ولا رجاء في قبوله، ولا طمع في العفو عنه، فليستمرَّ في غلوائه، وليمضِ في طريقه الأعوج، طريق الشيطان، طريق النهار الأسود والليل الأحمر.

هكذا يفكر بعض العصاة، يستعظمون ذنوبهم، ويقنطون من غفرانها، ويغلقون الأبواب أمام أنفسهم، ناسين أنَّ مغفرة الله تعالى أوسع من ذنوبهم وإنَّ كثرت، وأنَّ رحمته لا تضيق يوماً بخطاياهم وإنَّ تفاقت، فقد قال تعالى لرسوله: ﴿قُلْ يَعْبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وانظر إلى هذه الإضافة العذبة الرقيقة، ما ألطفها! وما أنداه!

«يا عبادي»، فرغم عصيانهم له تعالى، وإسرافهم على أنفسهم، لم يحرمهم شرف الانتساب إليه، والعبودية له جلّ شأنه، وهو ينهى هؤلاء المسرفين عن القنوط من رحمة الله، مؤكّداً أنّه جلّ ثناؤه يغفر الذنوب جميعاً بهذا الإطلاق، وهذا التعميم، حتّى الشرك؛ لأنّ المقصود أنّه يغفرها بالتَّوْبَةِ، وفرق بين هذه الآية والآية الأخرى في سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]: فهذه في غير التائبين، فكل ذنب قابل للغفران ولو بغير التَّوْبَةِ، ما عدا الشرك.

إنّ الخوف من الله تعالى مطلوب، وهو - مثل الرجاء - زادٌ ضروري في السفر إلى الله، والوصول إلى رضوانه، ولكنّ المبالغة في الخوف قد تنتهي بالإنسان إلى اليأس من رَوْحِ الله، والقنوط من رحمة الله، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا أَلْفَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

ولهذا قال عليّ رضي الله عنه: ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه؟ من لم يؤس عباد الله من رَوْحِ الله، ولم يؤمنهم من مكره^(١).

وهذا هو التوازن المنشود: أن يرجو المسلم ربه رجاءً لا ينتهي به إلى الأمن من مكر الله، وأن يخافه خوفاً لا ينتهي به إلى اليأس من رَوْحِ الله تعالى.

وقد وصف الله بعض عباده بأنهم: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩].

(١) رواه أبو داود في الزهد (١٠٤)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (٣٣٨/٢).

فلا ينبغي للمذنب أن يقنط من رحمة ربه، وإن كثرت ذنوبه وعظمت.

وفي الحديث القدسي: «يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني، غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي»^(١). يعني: على كثرة ذنوبك وخطاياك، ولا يتعاضمني ذلك، ولا أستكثره.

وفي «الصحيح»، عن النبي ﷺ، قال: «إذا دعا أحدكم فليُعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاضمه شيء»^(٢).

فذنوب العباد وإن عظمت، فإن عفو الله ومغفرته أعظم منها، فهي صغيرة في جنب عفو الله ومغفرته.

وفي «مستدرک الحاكم»، عن جابر أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ يقول: واذنوباه! واذنوباه! مرتين أو ثلاثاً، فقال له النبي ﷺ: «قل: اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي». فقالها، ثم قال له: «عد». فعاد، ثم قال له: «عد». فعاد، فقال له: «قم، فقد غفر الله لك»^(٣)، وفي هذا يقول بعضهم:

يا كبير الذنب عفو الـ له من ذنبك أكبر
أعظم الأشياء في جا نب عفو الله يصغر^(٤)

(١) سبق تخريجه ص ٢٣٢.

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٦٧٩)، وأحمد (٩٩٠٠)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه الحاكم في الدعاء (٥٤٣/١)، وقال: رواه عن آخرهم مدينون ممن لا يعرف واحد منهم بجرح، ولم يخترجاه. ووافقه الذهبي.

(٤) هو أبو نواس، انظر: الدر الفريد وبيت القصيد (٣٧٣/٦).

وقال:

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة
إن كان لا يرجوك إلا مُحسنٌ
فلقد علمتُ بأنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ!
فَمَنْ الذي يَرْجو ويدعو المُجْرِمُ؟
ما لي إليك وسيلةٌ إلا الرَّجَا
وجميلُ عَفْوَكَ ثُمَّ أَنِّي مُسْلِمٌ^(١)!

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: ما من ليلة اختلط ظلامها، وأرختها الليل سربال سترها، إلا نادى الجليل جل جلاله: من أعظم مني جودًا؟ والخلائق لي عاصون، وأنا لهم مراقب، أكلوهم في مضاجعهم، كأنهم لم يعصوني، وأتولّى حفظهم، كأنهم لم يذنبوا فيما بيني وبينهم، أجود بالفضل على العاصي، وأتفضل على المسيء، من ذا الذي دعاني فلم ألبّه؟ أم من ذا الذي سألني فلم أعطه؟ أم من الذي أناخ بابي فنحّيته؟ أنا الفضل، ومنني الفضل، أنا الجواد، ومنني الجود، أنا الكريم، ومنني الكرم، ومن كرمي أن أغفر للعاصين بعد المعاصي، ومن كرمي أن أعطي العبد ما سألني، وأعطيه ما لم يسألني، ومن كرمي أن أعطي التائب كأنه لم يعصني، فأين عني يهرب الخلائق؟ وأين عن بابي يتنحّى العاصون؟ خرّجه أبو نعيم^(٢).

ولبعضهم في المعنى:

أسأتُ ولم أحسن وجئتُك تائبًا
وأنّى لعبدٍ عن مواليه مهربٌ؟
يؤمّل غفرانًا فإنّ خاب ظنُّه
فما أحدٌ منه على الأرض أخيبٌ^(٣)!

(١) هذه الأبيات أيضًا لأبي نواس، العقد الفريد (٢٠٦/٣).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩٢/٨، ٩٣).

(٣) ذكرهما أبو إسحاق الوطواط ولم ينسبهما في غرر الخصاص الواضحة ص ٤٥٩، نشر دار

الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٥ - الجهل بحقيقة المعصية:

ومن موانع التوبة: أن يكون المكلف على معصية من معاصي الله، وهو لا يشعر بها، ولا يعلم أنه على معصية، لعلها من أعظم المعاصي ضرراً، وأشدّها خطراً. ولهذا صور أذكر اثنتين منها:

الأولى: أن يكون المرء معجباً ببعض الطاعات الظاهرة التي يؤديها ببدنه، من صلاة وصيام، وذكر وتسبيح وتلاوة، وصدقة وتعليم، فتعظم رؤيته لها، والتفاتة إليها، وإعجابه بها، برغم ما قد يشوبها من آفات خفية، فهذا «العجب» من المهلكات التي تحجب السالك إلى الله عن معرفة عيوب نفسه، وتعمي عين قلبه عن رؤية حقيقة أعماله، وخفايا سيئاته وخطاياها.

فربما كان غارقاً أو غريقاً في معاصٍ هي أشد خطراً من الزنى وشرب الخمر، وهو لا يدري: معاصي القلوب التي تُردي الكثيرين في مهاوي الردى وهم لا يشعرون، فربما كان هذا المرء حسوداً، أو حقوداً، أو مستكبراً، أو مغروراً، أو شحيحاً، أو مرأئياً، أو محباً للدنيا، أو للمال والجاه، أو غير ذلك من الذنوب الهائلة التي تأكل الحسنات وتلتهم الطاعات، كما تلتهم النار الحطب، والتي تحول بين صاحبها والجنة، كما في الحديث الصحيح: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»^(١). «إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم»^(٢)، «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء برأيه»^(٣)، «دبّ إليكم

(١) سبق تخريجه ص ١٦٧.

(٢) سبق تخريجه ص ١٦٦.

(٣) سبق تخريجه ص ١٦٤.

داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»^(١).

والثانية: أن يقيم على بدعة من البدع المضلة التي أبطلها الله ورسوله، وهو يحسب - كسائر المبتدعين - أنه يتقرب بها إلى الله تعالى: - سواء كانت بدعة عملية كالبدع في العبادات، شأن الذين يشرعون في الدين ما لم يأذن به الله، ويتقربون إلى الله تعالى بما لم يشرعه لعباده، جاهلين، أو متجاهلين: الأصلين الكبيرين:

الأول: ألا يعبد إلا الله ﷻ.

والثاني: ألا يعبد إلا بما شرع، لا بالأهواء والبدع، وفي الحديث المتفق عليه: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد»^(٢).

- أم كانت بدعة قولية، من بدع الأفكار والآراء التي أحدثتها فرق شتى، لم تجعل الكتاب والسنة أصلها الذي تستند إليه، ومصدرها الذي تعول عليه، لتحاكم آراءها وأقوالها وأقوال شيوخها ومعظميها إليهما، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَردُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]، بل جعلت آراءها وآراء من تعظمهم - وربما كانوا من خارج الإسلام - هي الأصل والمرجع والمعتمد، فما وافقها فهو مقبول، وما عارضها فهو مرفوض.

هذا الصنف من الناس محجوب عن رؤية بدعته ومخالفتها لأمر ربه، وحقيقة دينه، فهو ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ

(١) سبق تخريجه ص ١٦٧.

(٢) سبق تخريجه ص ١٦٩.

فَرَّاهُ حَسَنًا ﴿[فاطر: ٨]، وقال: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤].

وهكذا كان الخوارج قديماً، يستحلون دماء المسلمين خارج فرقتهم، ويستبيحون أموالهم، ويعُدُّون ذلك قرابة إلى الله تعالى: وقد صحَّ الحديث فيهم: «يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وصيامه إلى صيامهم، وقراءته إلى قراءتهم» ومع هذا وصفهم بأنهم «يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»^(١). فآفتهم أنهم لم يتعمَّقوا في فقه القرآن ومقاصده، وأنهم فهموه فهماً سطحياً، وقرؤوه دون أن يتعمَّقوا فيه، فسقطوا في هذه الكبائر الموبقات، وهؤلاء لهم خلف في عصرنا، يتعبَّدون بقتل المسلمين الأبرياء من المدنيّين العزل، حتَّى النساء والأطفال والشيخوخ، بأبشع وسائل القتل والذبح، وبياهون بذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذا الخطر ممَّا نبّه عليه سلف الأمة: أنَّ صاحب البدعة لا يتوب منها، إذ كيف يتوب من أمر يعتقده قرابة وطاعة؟

٦ - الاحتجاج بالقدر:

ومن موانع التوبة: الاحتجاج الجاهل بالقدر، فمن الذين سقطوا في شرك المعاصي، وغرَّتهم الأمانِي وغرَّهم بالله الغرور، من إذا دعوته إلى التحرُّر من أغلال المعصية، والبراء من أهلها، والدخول في عالم الطاعة والمطيعين لله، يقول لك: هذا قَدْرِي، كتبه الله عليَّ وقدره في الأزل، والمكتوب لا مهرب منه، وعلى الإنسان أن يرضى بقدره، ويستسلم لقضائه، فالقدر لا شكَّ أقوى منَّا، ونحن أضعف من أن نقاومه.

(١) سبق تخريجه ص ١٧١.

وهذا كلام مدخول، خالٍ من الفقه بدين الله، والفقه بسنن الله، وهو يدور في فلك الفكرة التي قالها المشركون قديمًا محتجّين على شركهم وتحريمهم ما أحلّ الله: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فهم يدعون أنّ شركهم وتحريمهم واقع بمشيئة الله تعالى.

وردّ عليهم القرآن بقوله: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

قد يُقبل الاحتجاج بالقدر فيما مضى من العمل، وإن كان الواجب ألا يفعل ذلك، أعني: ألا يقول: قضى الله عليّ أن أعصيه. بل يقول ما قاله أبواه، آدم وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا...﴾ [الأعراف: ٢٣]. وما قاله كليم الله موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦]. وما قال ذو النون في بطن الحوت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وفيما ترويه كتب الرقائق: أنّ رجلاً وقع في معصية، فقام يناجي ربه قائلاً: «إلهي، أنت قضيت، أنت قدّرت، أنت حكمت، فسمع صوتاً يقول له: هذا حقّ الربوبية، فأين أدب العبودية؟ فقال: إلهي، أنا عصيت، أنا أسرفت، أنا ظلمت.. فسمع كأنّ الله يقول له: وأنا غفرت، وأنا عفوت، وأنا رحمت»^(١).

أقول: لو جاز قبول الاحتجاج بالقدر على سوء العمل، لكان ذلك

(١) انظر: نزّهة المجالس ومنتخب النفائس للصفوري (٣٦/٢)، نشر المطبعة الكاستلية، مصر،

بالنسبة للماضي، أمّا بالنسبة للمستقبل، فلا يقبل بحال؛ لأنّ المكلف لا يعرف ماذا قُدِّر له فيه، ويجب عليه أن يدفع القدر بالقدر، يدفع قدر الذنوب بقدر التَّوْبَة والاستغفار، كما هو شأن المؤمن القوي، والمؤمن الصادق البصير بدينه يعلم أنّ وظيفته - كما قال الإمام ابن القيم -: «مصادمة أمواج القدر، ومعارضتها بعضها ببعض، وإلّا هلك، فيرد القدر بالقدر، وهذا سير أرباب العزائم من العارفين.

وهو معنى قول الشيخ العارف القدوة عبد القادر الكيلاني: «الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، إلّا أنا، فانفتحت لي فيه رَوْزَنَة (طاقة)، فنازعت أقدار الحقّ بالحقّ للحقّ، والرجل من يكون منازعاً للقدر، لا من يكون مستسلماً مع القدر»!!

ولا تتم مصالح العباد في معاشهم إلّا بدفع الأقدار بعضها ببعض، فكيف في معادهم؟

والله تعالى أمر أن تُدفع السيئة، وهي من قدره، بالحسنة، وهي من قدره، وكذلك الجوع من قدره، وأمر بدفعه بالأكل الذي هو من قدره، ولو استسلم العبد لقدر الجوع، مع قدرته على دفعه بقدر الأكل، حتّى مات: مات عاصياً، وكذلك البرد والحر والعطش، كلها من أقداره، وأمر بدفعها بأقدار تضادها، والدافع والمدفوع والدفع من قدره.

وقد أفصح النبي ﷺ عن هذا المعنى كل الإفصاح، إذ قالوا: يا رسول الله، أرايت أدوية ننداوى بها، ورُقّي نسترقى بها، وثُقّي نتقي بها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: «هي من قدر الله»^(١).

(١) رواه أحمد (١٥٤٧٢)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف على خطأ فيه. والترمذي (٢٠٦٥)، وقال: =

وفي الحديث الآخر: «إِنَّ الدَّعَاءَ وَالْبَلَاءَ لِيَعْتَلِجَانِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»^(١).

وإذا طرق العدو من الكفار بلد الإسلام طرقوه بقدر الله، أفيحل للمسلمين الاستسلام للقدر، وترك دفعه بقدر مثله، وهو الجهاد الذي يدفعون به قدر الله بقدره؟

وكذلك المعصية إذا قُدِّرَتْ عليك، وفعلتها بالقدر، فادفع موجبها بالتَّوْبَةِ النصوح، وهي من القدر»^(٢).

* * *

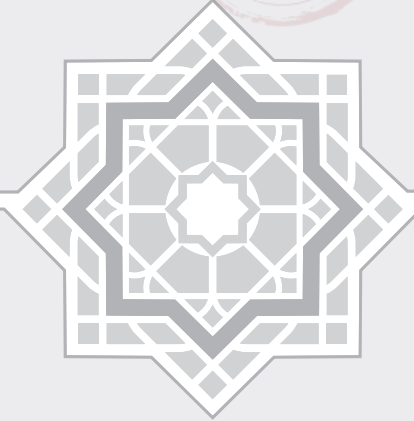
= حسن. وابن ماجه (٣٤٣٧)، كلاهما في الطب، وحسنه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (١١)، عن أبي خزيمة.

(١) رواه الطبراني في الدعاء (٣٣)، عن عائشة.

(٢) مدارج السالكين (١٩٩/١، ٢٠٠).



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرِظَاوِيِّ



الباب السابع البواعث على التوبة



- معرفة مقام الله تعالى وحقه.
- ذكر الموت والقبر.
- ذكر الآخرة والجنة والنار.
- معرفة آثار المعاصي في الدنيا والآخرة.
- خاتمة.



البواعث على التوبة

التَّوْبَةُ منزلة عظيمة من منازل الدين، ومقام رفيع من مقامات المتقين، وحاجة كل مسلم مكلف إليها - وخصوصًا السَّالِك في طريق الله - حاجة ماسّة، ولهذا كان شأنها شأن كل منازل الدين، وأخلاق الصّالحين لا تخلو من عقبات وموانع تعوق طريقها، وتحول دون الوصول إليها، كما أنّ لها بواعث ودوافع تحفّز عليها، وتحضّر على التزامها.

ونودّ في هذا الفصل أنْ نبحث في هذه البواعث، وأنْ نلقي الضوء عليها، حتّى نحرك الهمم، ونشجذ العزائم للتوبة إلى الله جل ثناؤه.

* * *





معرفة مقام الله تعالى وحقه

أول هذه البواعث: أن يعرف الإنسان مقام ربه الأعلى، الذي خلق فسوًى، والذي قدّر فهدى، وأن يعرف حقه على عباده الذين خلقهم ورزقهم، وأنعم عليهم بجلال النعم ودقائقها ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وحقه تعالى على عباده: أن يعبدوه فلا يشركوا به شيئاً، وأن يذكروه فلا ينسوه، ويشكروه فلا يكفروه، ويطيعوه فلا يعصوه.

روى الشيخان عن معاذ بن جبل أنه كان رديفاً للنبي ﷺ على حمار، فقال له: «يا معاذ، أتدري ما حقُّ الله على العباد؟ وما حقُّ العباد على الله؟». قال: الله ورسوله أعلم. قال: «حقُّ الله على العباد: أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً. وحقُّ العباد على الله: ألا يعذبهم»^(١).

ومهما يقدّم الإنسان من العبادة لله ﷻ، فلن يوفي حق الله تعالى عليه؛ لأنّ نعم الله عليه أعظم من عبادته له سبحانه، وإن طال العمر.

يقول رسول الله ﷺ: «لو أنّ رجلاً يُجرُّ على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرماً في مرضاة الله تعالى، لحقّره يوم القيامة»^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التوحيد (٧٣٧٣)، ومسلم في الإيمان (٣٠).

(٢) رواه أحمد (١٧٦٤٩)، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف. والطبراني (١٢٢/١٧)، وقال الهيثمي في =

والإنسان إذا عرف مقام الله تعالى، وتذكَّر جلاله وعظمته، وعِلْمَه به، وقدرته عليه، وأنه مُطَّلِع على سرِّه وعلايته، وأنه لا يخفى عليه خافية ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، وأنه محاسبه على ما قَدَّمَ، ومجازيه على ما عمل من خير أو شر، إذا عرف ذلك وذكره ولم ينسه، سرعان ما يرجع إلى ربِّه سبحانه تائبًا مستغفرًا، كما قال تعالى في وصف المتقين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، فانظر كيف جعل استغفارهم لذنوبهم نتيجة لذكرهم لربهم ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا﴾ والذكر هنا ليس باللسان كما قد يتوهم، بل هو ما يقابل النسيان كما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] أي: استحضروا جلال الله تعالى وشهدوا أسماءه الحسنى، مثل: العليم بذات الصدور، والرقيب والحسيب، والواحد القهار، والعزيز الجبار: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣].

ولا يليق بالمسلم إذا غرَّته نفسه أو غرَّه بالله الغرور، فسقط في المعصية: أن يتمادى فيها، ويُصرَّ عليها، ولا يسارع بالتَّوْبَة منها، يجرَّئه على ذلك أن الله تعالى لم يعاجله بالعقوبة، فإنَّه جل شأنه يمهِّل ولا يهمل، ويملي للعاصي والظالم، حتَّى إذا أخذه لم يُفلته، ولا تحسبن الله غافلًا عمَّا يفعل العصاة والفجار، فقد يكون ذلك عن مكرٍ بهم، واستدراجٍ لهم، حتَّى إنَّه قد يوسَّع عليهم في الرزق، ويمدُّهم بالمال والبنين، ثم يأخذهم في النهاية أخذ عزيز مقتدر ﴿إِنَّ أَخَذَهُ الْيَمُّ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

= مجمع الزوائد (١٥٤): رواه أحمد والطبراني في الكبير، وفيه بقية وهو مدلس، ولكنه صرح بالتحديث، وبقية رجاله وثقوا، عتبة بن عبد السلمي.

يقول ابن عطاء الله في «حِكْمِهِ»: «خَفَ من وجود إحسانه - تعالى - إليك، ودوام إساءتك معه، أن يكون ذلك استدراجاً لك».

يشير إلى قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

والاستدراج: أخذ النعمة من المستدرج شيئاً فشيئاً وهو لا يشعر.

وقال سهل بن عبد الله في معنى الآية: نمدهم بالنعمة، وننسيهم الشكر عليها، حتّى إذا ركنوا للنعمة، وحُجبوا عن المنعم أخذوا^(١).

وقال غيره: كلما أحدثوا معصية، أحدثنا لهم نعمة، وأنسيناهم الاستغفار من تلك المعصية^(٢)، كما قال تعالى: ﴿أَنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

وقال جلّ شأنه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

يقول ابن عطاء الله في «حكمه»: «إن أردت أن يفتح لك باب الرجاء، فاشهد ما منه (تعالى) إليك، وإن أردت أن يفتح لك باب الحزن، فاشهد ما منك إليه!».

(١) تفسير التستري ص ٧٠، نشر دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٣هـ.

(٢) قاله أبو روق، انظر: تفسير الرازي (٦١٥/٣٠)، نشر دار إحياء التراث العربي، ط ٣، ١٤٢٠هـ،

وتفسير القرطبي (٢٥١/١٨).

ويعني بـ «ما منه إليك»: النعم التي تغمرك من كل جانب، وقد أسبغها عليك ظاهرة وباطنة، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وهناك نعم أساسية، وهي: نعمة الخلق والإيجاد، ونعمة التيسير والإمداد، ونعمة الحفظ والإبعاد. أي: إبعاد المحن والبلايا عن الإنسان. وأما ما كان منك إليه سبحانه، فيعني به: التقصير في أداء ما أمر، واقتراف ما عنه زجر، وعدم الرضا بما قضى القدر.

وقلما يخلو مكلف من وقوع بعض هذا منه: من التفريط في الأمور، أو ارتكاب المحذور، أو السخط على المقدور.





ذكر الموت والقبر

ومن البواعث على التَّوْبَةِ من الذُّنُوبِ: أن يتذكَّرَ المرءُ الموتَ، الذي هو مصير كل حيٍّ، قصر عمره أو طال، فهو حوضٌ كل النَّاسِ وارده، وكأس كل حيٍّ شاربه.

حتى أحب الخلق إلى الله الأنبياء والرسل، وخاتمهم ومصطفاهم محمد، كتب عليهم الموت، كما كتب على غيرهم، قال تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال له في موضع آخر: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلشَّرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * [الأنبياء: ٣٤، ٣٥].

إنَّ الموتَ أصدق غائب ينتظر، وهو حقيقة بيَّنة للحس وللعقل لكلِّ الناس، وهو أحد الواعظين اللذين تركهما النبي ﷺ من بعده: الواعظ الناطق، وهو القرآن، والواعظ الصامت، وهو الموت، وكفى بالموت واعظًا لمن كان له قلب يُحسُّ، وعقل يعتبر.

وما أصدق ما قال الشاعر في ميِّت عزيز عليه:
وكانت في حياتك لي عِظَاتٌ * وأنت اليوم أوعظ منك حيًّا^(١)!

(١) من شعر أبي العتاهية، انظر: أدب الدنيا والدين للماوردي ص ١٢٥، نشر دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م. وديوان أبي العتاهية ص ٤٩٢.

إِنَّ الْمَوْتَ يَخْتطفُ الأبَّ من بنيه، والابن من أمه وأبيه، والأخ من أخيه، ومن فصيلته التي تؤويه، والحبيب من حبيبه، والملك من فوق عرشه، والقائد وهو بين أسلحته وجنوده، والثريّ ومعه ملايينه وبلايينه، لا يستأذن أحدًا قبل أن يأخذه، كبيرًا أو صغيرًا، غنيًا أو فقيرًا، مأمورًا أو أميرًا، كلهم لسلطانه خاضعون، ولدعوته ملبّون: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

ويعمر الإنسان ويطول أجله في الحياة، ولكنّه في النهاية ميّت، وعند الموت تتضاءل حياته، وينكمش عمره، حتّى ليتمنّى لو يُمدّد له قليلًا، وهيّات هيّات لما يتمنّى.

وقد حكوا أَنَّ نوحًا عليه السلام حين جاءه ملك الموت يتوفاه، قال له: يا أطول الأنبياء عمرًا، كيف وجدت الدنيا؟ فقال: وجدتُها كدار لها بابان، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر^(١)!

فهذا مقدار الدنيا عنده، وقد لبث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عامًا، ثم أخذهم الطوفان وهم ظالمون، فكم بقي بعد الطوفان؟ وكم كان عمره حين بعثه الله إلى قومه؟! وإذا كان آخرُ العُمُرِ موتًا فسواءٌ قصيره والطويل!

ومن هنا ذكرنا القرآن بالموت وشموله لكلّ الخلق، لا يمتنع منه نبي بنوته، ولا أمير بإمارته، ولا غني بثروته، ولا ذو حصن بحصنه ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الزهد (٣٥٨).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨].

وقال سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]

ولمّا جاء الموت رسول الله ﷺ ولحق بربه، قال بعض الصحابة: لم يمُت، فوقف أبو بكر الصديق يقول: أيها الناس، من كان يعبد محمداً، فإنَّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإنَّ الله حيٌّ لا يموت، ثم تلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «أكثرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَاتِ: الموت»^(٢).

وقد ابن عمر: أتيتُ النبي ﷺ، عاشر عشرة، فقال رجل من الأنصار: من أكيس النَّاسِ - أي أعقلهم - وأكرم النَّاسِ يا رسول الله؟ قال: «أكثرهم ذكراً للموت، وأشدُّهم استعداداً له، أولئك هم الأكياس، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة»^(٣).

وشكت امرأة إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها، فقالت لها: أكثرِي ذكر الموت يرق قلبك.

(١) رواه البخاري في أصحاب النبي ﷺ (٣٦٦٧، ٣٦٦٨)، عن عائشة.

(٢) رواه أحمد (٧٩٢٥)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. والترمذي في الزهد (٢٣٠٧)، وقال: حسن غريب. والنسائي في الجنائز (١٨٢٤)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٨)، وابن حبان في الجنائز (٢٩٩٢)، والحاكم في الرقاق (٣٢١/٤)، وصحّحه ووافقه الذهبي، عن أبي هريرة.

(٣) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٥٩) مختصراً، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (٣)، والطبراني في الصغير (١٠٠٨)، والأوسط (٦٤٨٨)، والكبير (٤١٧/١٢)، وجود إسناده العراقي في تخريج الإحياء ص ١٨٢٨، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٢١٤): رواه ابن ماجه باختصار، ورواه الطبراني في الصغير، وإسناده حسن.

وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء، فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة، ثم ييكون حتى كأن بين أيديهم جنازة.

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء: عظمي، فقال: لست أول خليفة يموت. قال: زدني. قال: ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت، وقد جاءت نوبتك! فبكى عمر لذلك.

وكان الربيع بن خثيم قد حفر في داره قبرًا، وكان ينام فيه كل يوم مرات، يستديم بذلك ذكر الموت! وكان يقول: لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد!

وقال مطرف بن عبد الله: إنَّ هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيمًا لا موت فيه^(١)!

فلينظر الإنسان العاقل: كم شيع من الأقارب والأحباب، وكم دفن من الزملاء والأصحاب، وليستحضر صور هؤلاء، وكيف كانوا في الحياة آمنين، ثم فجأهم الموت غير مستعدين، وليتذكر كيف كان إقبال الواحد منهم على الدنيا، وحرصه عليها، ومزاحمته فيها، ورغبته في الازدياد من متاعها، والاستمتاع بملذاتها، وكيف كان نشاطه وسعيه، وأمله في العيش والبقاء، ونسيانه للموت والآخرة، وركونه إلى القوة والشباب، وانخداعه بموآاة الأسباب، وميله إلى اللهو واللعب، وغفلته عما ينتظره من الموت، حق جاءه على غير موعد، فقال: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿[المنافقون: ١٠، ١١].

(١) هذه الآثار ذكرها الغزالي في الإحياء (٤٥١/٤).

ومن حماقة أن يذكر الموتى ويستبعد نفسه أن يكون واحدًا منهم في أي لحظة، يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا ذكرت الموتى فعد نفسك كأحدهم!

وقال عمر بن عبد العزيز: ألا ترون أنكم تجهّزون كل يوم: غاديًا أو رائحًا إلى الله وَعَلَّكُمُ اللَّهُ قد قضى نحبه، وانقطع أمله، تضعونه في صدع من الأرض، قد توسد التراب، وقطع الأسباب، وخلف الأحباب، وواجه الحساب ^(١)!

ذكر أحوال الناس عند الاحتضار:

ومما يتصل بذكر الموت: ذكر أحوال الناس إذا حضرهم الموت. وأول ما يجب أن نذكره في ذلك: حال رسول الله ﷺ، فقد أحس بدنو أجله بعلامات شتّى، منها: أن جبريل كان ينزل في كل رمضان، فيعرض عليه القرآن مرّة، وفي آخر رمضان عرض عليه القرآن مرّتين، ومنها: نزول قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وهو ما أبكى أبا بكر رضي الله عنه؛ إذ ما بعد الكمال إلا النقصان! ومنها: نزول سورة النصر، ولهذا كان ﷺ يُعلّم الناس في حجة الوداع، ويقول: «خذوا عني مناسككم لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا!» ^(٢). وقال لأصحابه يومًا: «إنّ عبدًا خيره الله بين الدنيا، وبين ما عنده، فاختار ما عنده». فبكى أبو بكر وقال: نفديك بآبائنا وأمّهاتنا يا رسول الله ^(٣)! لأنّه فهم أنّه المراد من هذا الكلام.

(١) إحياء علوم الدين (٤/٤٥٢).

(٢) رواه مسلم (١٢٩٧)، والنسائي (٣٠٦٢) كلاهما في الحج، عن جابر بن عبد الله.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٩٠٤)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٢)، عن أبي سعيد.

قالت عائشة: سمعتُ النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه - وأخذته بُحَّة - : ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] ^(١).

وفي رواية: أنه جعل يقول: «في الرفيق الأعلى» ^(٢)، وهو الرفيق المذكور في الآية السابقة.

وقالت عائشة: إنها سمعتُ النبي ﷺ وأصغت إليه قبل أن يموت، وهو مسند إلى ظهره، يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى» ^(٣).

وقالت عائشة: ما رأيت الوجد على أحدٍ أشد منه على رسول الله ﷺ ^(٤) وذلك ليتضاعف له الأجر.

قالت: وبين يديه ركوة - أو علبة - فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء، فيمسح بها وجهه، يقول: «لا إله إلا الله! إنَّ للموت سكرات». ثم نصب يده فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» ^(٥).

وعن أنس قال: لمَّا ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه، فقالت فاطمة رضي الله عنها: واكرب أبتاه! فقال لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم» ^(٦)!

وكل هذه في «صحيح البخاري» وغيره.

ولمَّا احتضر أبو بكر رضي الله عنه جاءت عائشة إليه، فتمثلت بهذا البيت من الشعر:

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المغازي (٤٤٣٥)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٤).

(٢) رواه البخاري في المغازي (٤٤٣٦).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في المرضي (٥٦٧٤)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٤).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في المرضي (٥٦٤٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٧٠).

(٥) رواه البخاري في المغازي (٤٤٤٩).

(٦) رواه البخاري في المغازي (٤٤٦٢).

لعمرك ما يغني الشراء عن الفتى إذا حشرت يوماً، وضاق بها الصدر^(١)!

فكشف أبو بكر عن وجهه، وقال: ليس كذا، ولكن قل: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]. وقال: انظروا ثوبَي هذين فاغسلوهما، وكفّنوني فيهما، فإنّ الحي أحوج إلى الجديد من الميت^(٢)!

ودخلوا عليه، فقالوا: ألا ندعو لك طبيباً ينظر إليك؟ فقال: قد نظر إليّ طبيبي، وقال: إنّي فعّال لما أريد^(٣)!

وحين طعن عمر رضي الله عنه وعرف الصحابة أنّه ميت، قال ابن عبّاس: فدخلنا عليه، وجاء النّاس يُثنون عليه، وجاء رجل شابّ فقال: أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله، قد كان لك صحبة مع رسول الله، وقدم في الإسلام ما قد علمت، ثم وليتَ فعدلتَ، ثم شهادة! فقال عمر: وددت أنّ ذلك كان كفافاً لا عليّ ولا لي^(٤)!

ولمّا أُصيب عثمان رضي الله عنه من دعة الفتنة الثّائرين عليه، دعا الله تعالى: اللهمّ اجمع أمة محمد صلّى الله عليه وآله.. ثلاثاً^(٥).. ورُوي أنّه حين ضُرب، والدماء تسيل على لحيته، جعل يقول: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]^(٦).

(١) أصل البيت لحاتم الطائي، كما في ديوانه شرح يحيى بن مدرك ص ٦٥، تحقيق حنا نصر الحتي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٤م.

(٢) رواه أحمد في الزهد (٥٦٣)، وابن أبي الدنيا في المحتضرين (٣٦).

(٣) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٥٨١)، وابن أبي الدنيا في المحتضرين (٣٩).

(٤) رواه البخاري في أصحاب النبي صلّى الله عليه وآله (٣٧٠٠).

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في المحتضرين (٤٨)، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، نشر دار ابن حزم، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في المحتضرين (٤٩).

ولمَّا ضرب ابنُ ملجم عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: فُزْتُ وَرَبَّ الكعبة، ثم أوصى
بنه وصية إسلامية جامعة، ثم لم ينطق إِلَّا بـ «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» حتَّى
قُبِضَ^(١). ولمَّا حضر الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الوفاة بكى، فقيل له:
ما يبكيك؟ قال: أَقْدَمُ على سيِّدٍ لم أره^(٢)!

وعند موت معاوية تمثَّل بقول الشاعر:

هو الموتُ لا منجى من الموتِ، والذي نحاذرُ بعدَ الموتِ أدهى وأفظعُ!
ثم قال: اللهم فأقلِ العثرة، واعفُ عن الزلَّة، وعُدْ بحلمك على من
لم يرجُ غيرَكَ، ولم يثق إِلَّا بك، فإنَّك واسعُ المغفرة، يا ربَّ أين لذي
خطيئةٍ مهربٌ إِلَّا إليك^(٣)؟!

وروي أَنَّهُ قال: ليتني كنتُ رجلاً من قريش بذي طوى - موضع
بمكة - وأني لم أَلِ من هذا الأمر شيئاً^(٤)!

ولمَّا حضرت الوفاة عبدُ الملك بن مروان، قال: أشرفوا بي على
الغُوطَة - في دمشق - ففعلوا، فرأى غَسَّالاً يلوي ثوباً بيده، ثم يضرب به
المغسلة، فقال: ليتني كنت غَسَّالاً آكل من كسب يدي يوماً بيوم، ولم أَلِ
من أمر الدنيا شيئاً! فبلغ ذلك أبا حازم التابعيَّ الجليل، فقال: الحمد لله
الذي جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنَّون ما نحن فيه، وإذا حضرنا
الموتُ لم نتمنَّ ما هم فيه^(٥)!

(١) رواه ابن أبي الدنيا في المحتضرين (٥٢، ٥٣).

(٢) الرسالة القشيرية (٤٦٩/٢).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (١١١)، تحقيق مخلص محمد، نشر دار طيبة، الرياض،

ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في المحتضرين (٧٤).

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في المحتضرين (٧٥).

وقيل له في مرضه الذي مات فيه: كيف تجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: أجدني كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] ومات^(١).

ولمّا حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟ أبشر، فقد أحيا الله بك سنناً، وأظهر بك عدلاً. فبكى ثم قال: أليس أوقف فأسأل عن أمر هذا الخلق، فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسي ألا تقوم بحجتها بين يدي الله.. فكيف بكثير ممّا صنعنا؟! وفاضت عيناه، فلم يلبث إلا يسيراً حتّى مات^(٢).

وحكي عن هارون الرشيد: أنّه انتقى أكفانه بيده عند الموت، وكان ينظر إليها ويقول: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩].

وفرش ابنه المأمون رماداً، واضطجع عليه، عند موته، وهو يقول: يا من لا يزول ملكه، ارحم من قد زال ملكه!

وحين حضر إبراهيم النخعي الوفاة بكى، فقيل له ما يبكيك؟ قال: انتظر رسولاً ييشرنني بالجنة أو النار^(٣).

وعن محمد بن المنكدر أنّه جزع عند الموت، فقيل له: لم تجزع؟ قال: أخشى آية من كتاب الله، وهي قوله تعالى: ﴿وَبَدَأْهُمْ مِن لَّدُنَّ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] فأنا أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أحتسب^(٤).

وحين حضر الفضيل بن عياض الوفاة، غشي عليه، ثم فتح عينيه وقال: وابعُد سَفْراه، واقلة زاداه!

(١) رواه ابن أبي الدنيا في المحتضرين (٧٨).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في المحتضرين (٨٩).

(٣) هذه الآثار ذكرها الغزالي في إحياء علوم الدين (٤٨١/٤).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في المحتضرين ص ١٧٠.

وعند احتضار عبد الله بن المبارك قال لنصر مولاه: اجعل رأسي على التراب! فبكى نصر، فقال له عبد الله: ما يبكيك؟ قال: ذكرت ما كنت فيه من السعة والنعيم، وها أنت ذا تموت فقيرًا غريبًا! فقال: اسكت، فإنني سألت الله عَجَلًا أَنْ يَحْيِيَنِي حَيَاةَ الْأَغْنِيَاءِ، وَيُمِيتَنِي مَوْتَ الْفُقَرَاءِ!

وبكى بعضهم عند موته، فقليل له: ما يبكيك قال: آية في كتاب الله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]^(١).

ودخل الحسن البصري على رجل يجود بنفسه، فقال: إِنَّ أَمْرًا هَذَا أَوَّلُهُ لَجَدِيرٌ أَنْ يُتَّقَى آخِرُهُ، وَإِنَّ أَمْرًا هَذَا آخِرُهُ لَجَدِيرٌ أَنْ يُزْهَدَ فِي أَوَّلِهِ^(٢).

ودخل المزني على الشافعي رحمة الله عليهما في مرضه الذي تُوفِّي فيه، فقال له: كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخوان مفارقاً، ولسوء عملي ملاقياً، ولكأس المنية شارباً، وعلى الله تعالى وارداً، ولا أدري: أروحي تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها، ثم أنشأ يقول:

ولمّا قسا قلبي وضّاقت مذاهبي جعلت رجائي نحو عفوك سلماً
تعاظمني ذنبي، فلمّا قرنته بعفوك ربّي، كان عفوك أعظماً
فما زلت ذا عفٍ عن الذنب لم تزل تجود وتغفر منّة وتكرماً^(٣)

* * *

(١) هذه الآثار رواها الغزالي في الإحياء (٤٨٢/٤).

(٢) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٥٤٩).

(٣) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٥٧٥) دون ذكر الأبيات، وذكره الغزالي في الإحياء (٤٨٤/٤).

ذكر الآخرة والجنة والنار

ومن البواعث على التَّوْبَةِ بعد ذكر الموت: ذكر ما بعد الموت، من حياة البرزخ والدار الآخرة، والعظيمتين: الجنة والنار.

فإذا كان ذكر الموت صيقلاً لجلاء القلب، فإنَّ الموت إذا كان أشد ما قبله فهو أهون ما بعده، فبعد الموت مراحل خطيرة، وعقبات شديدة، وأهوال كبيرة، تبدأ بحياة البرزخ، أو حياة القبر، فالإنسان الذي كان يعيش في الدنيا في سكن آمن، وظل ظليل، وعيش رغيد، وأهل وأصحاب، سرعان ما ينتقل من سعة الدار إلى ضيق القبر، ومن أنس الأهل إلى وحشة اللحد، ومن رفقة الخَلان إلى رفقة الديدان.

ذكر القشيري عن أبي عليِّ الدقاق قال: دخلتُ على الإمام أبي بكر ابن فورك عائداً، فلمَّا رآني دمعت عيناه، فقلت له: إن شاء الله تعالى يعافيك ويشفيك. فقال لي: تراني أخاف من الموت، إنَّما أخاف ممَّا وراء الموت^(١)!

وقد جاء عن عثمان بن عفان: أنَّه كان إذا وقف على قبر يبكي حتَّى تبل دموعه لحيته، ف قيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتذكر القبر فتبكي! فقال: إنِّي سمعت رسول الله ﷺ: «القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه، فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه، فما بعده أشد».

(١) الرسالة القشيرية (١/٢٥٤).

وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما رأيت منظرًا إلا والقبر أفضع منه»^(١). قال هانئ مولى عثمان: وسمعت عثمان يُنشد على قبر: **فإن تنج منها تنج من ذي عزيمة وإلا فإنني لا إخالك ناجيا**^(٢) وأنا لا أعني بالقبر: ذلك الشق في الأرض الذي يدفن فيه الإنسان بعد موته في وادي الموتى فهناك شعوب لا تعرف الدفن، ولا القبور، مثل أولئك الذين يحرقون موتاهم، ثم يحتفظون بترابهم - وهو كل ما بقي منهم - فهذه الحفريات من الرماد الباقي من حرق الجثة، هي: القبر، وإن فيها لموعظة وعبرة!

ونحن المسلمون نؤمن إيمانًا لا يتطرق إليه ريب: أن هذا الكون - على ما فيه من جمال وإبداع - ستطوى صفحته، وتهدم أركانه، وتتغير معالمه، ويستحيل كل جمع فيه إلى شتات، وكل حي إلى ممات: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]. هذه

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٠٨)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الزهد (٤٢٦٧)، وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٤٥٤)، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح. والحاكم (٣٧١/١)، وصحّحه، وقال الذهبي: ابن بحير (أحد الرواة) ليس بالعمدة ومنهم من يقويه، وهانئ روى عن جماعة، ولا ذكر له في الكتب الستة. اهـ. والعجب أن الذهبي وافق الحاكم على تصحيح حديث من طريق ابن بحير قبل هذا الحديث مباشرة. وابن بحير وثقه ابن معين وغيره، واضطرب فيه قول ابن حبان.

(٢) قال ابن الأثر في جامع الأصول (٨٦٩٠): رواه رزين. وقال الناجي (ق ٢/٢٢٢): هذه الزيادة في آخره ليست عندهما - أي: الترمذي وابن ماجه - بل ولا عند - رزين - إنما قلده صاحب جامع الأصول في نسبتها إليه توهماً لا أعرف سببه. والبيت ذكره ابن سلام في قصيدة للفرزدق. انظر: طبقات فحول الشعراء (١٨٢/١)، تحقيق محمود محمد شاكر، نشر دار المدني، جدة. ولم أجده في ديوانه. وقد نسب ابن قتيبة الدينوري البيت للأسود بن سريع التميمي، قال: فسرقه الفرزدق. انظر: المعارف (٥٥٧/١)، تحقيق ثروت عكاشة، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٢م.

السماء فوقنا ستنفطر، هذه الكواكب ستنتشر، وهذه الأرض ستبدل غير الأرض، وهذه الشمس ستكور، وهذه النجوم ستتكدر، وهذه الجبال ستسير، وهذه البحار ستفجر، أو تسجر، وهذه القبور ستبعثر: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

وأنَّ الله تعالى سيبعث هؤلاء الموتى، ويحييهم في يومٍ آتٍ لا ريب فيه: ﴿خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْشَرٌّ﴾ [القمر: ٧].

فيقول النبي ﷺ فيما روته عائشة رضي الله عنها: «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً» - أي غير مختونين - قالت عائشة: فقلت: الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «الأمر أشد من أن يهتمهم ذلك»^(١).

وسمعت ذلك أم سلمة رضي الله عنها، فقال: يا رسول الله، واسوأته، أينظر بعضنا إلى بعض؟ فقال: «شغل الناس». قالت: ما شغلهم؟ قال: «نشر الصحائف، فيها مثاقيل الذر، ومثاقيل الخردل». قال المنذري: رواه الطبراني في «الأوسط» بإسنادٍ صحيح^(٢).

يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٥٢٧)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٩).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٨٣٣)، وابن أبي الدنيا في الأحوال (٢٣٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٣٢٠): رواه الطبراني في الأوسط والكبير، ورجاله رجال الصحيح، غير محمد بن موسى بن أبي عباس، وهو ثقة. وصحح البوصيري إسناده في الإتحاف (٧٦٨٨)، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٢٠٨٦).

وقوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۚ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۚ ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُنَوِّلُنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۚ ﴾ [الكهف: ٤٩].

من واجب كل مقصّر، بل كل مكلف، أن يخاف هذا اليوم العظيم: يوم الزلزلة، ويوم القارعة، ويوم الحاقة، ويوم الصاخة، ويوم الطامة الكبرى، وأن يقرأ القرآن، وخصوصاً الجزئين الأخيرين منه، ليرى القيامة أمامه رأي العين، يرى الجحيم وقد سُعِّرَتْ، والجنة قد أزلفت، ويرى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، يرى الحقائق قد تكشفت، والعيون وقد زالت عنها الغشاوات، قد سقط الملوك الزائفون، وبقي ملك واحد هو ملك يوم الدين ومالك يوم الدين، ﴿ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۚ ﴾ [غافر: ١٦].

ما أبلغ ما وصف القرآن ذلك اليوم الموعود، واليوم المشهود! لنقرأ معاً هذه الآيات: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَىٰ ۚ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ۚ وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۚ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ۚ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۚ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۚ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۚ ﴾ [النازعات: ٣٤ - ٤١].

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَةُ ۚ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۚ وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ ۚ وَصَاحِبِهِ وَبَنِيهِ ۚ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۚ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفَرَةٌ ۚ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۚ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۚ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُ الْفَجَرَةُ ۚ ﴾ [عبس: ٣٣ - ٤٢].

إنّ مزية المؤمنين أنهم يخافون هذا اليوم ويتقون، ويحسبون حسابه، ولا غرو أن كان من أواخر ما نزل - أو آخر ما نزل من القرآن - قوله

تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وقد وصف الله الأبرار من عباده بقوله: ﴿وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ إِنَّمَا نُنْعِمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٨ - ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ [المطففين: ١ - ٦].

هذا فيمن زاد حفنة في كيل أو نقصها، أو زاد دراهم من وزن أو نقصها، طمعاً في أن يأخذ أكثر من ماله من حق، فكيف بمن ينهب أموال الناس نهباً؟! وما بالك بمن يختلس الأموال العامة بالملايين، ومن يقبل الرشاً بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة؟! ومن يجمع الثروات الطائلة من عرق الكادحين، ودموع المستضعفين، ودماء المظلومين؟ ومن يتاجر في السلع الفاسدة، والأغذية الضارة، والمخدرات القاتلة، ليربح الملايين القذرة على حساب الشعوب والجماهير ثم يغسل ملايينه - فيما زعموا - بعد ذلك؟! وهي من الخبث والنجاسة بحيث لا تطهرها مياه البحار ولا المحيطات.

ما أحوج هؤلاء إلى أن يقفوا يوماً مع أنفسهم، ليتذكروا هذا اليوم العظيم الذي تنصب فيه الموازين، وتنشر فيه الدواوين، ويحاسبهم فيه ربُّ العالمين، ويشهد عليهم فيه شهود من أنفسهم ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿ [النور: ٢٤، ٢٥].

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ * حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِمَ لُجُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت: ١٩ - ٢١].

أحاديث في الترهيب من النار:

ومِمَّا يجب على المكلف - ولا سيما العاصي - أن يذكره: النار، دار العذاب التي أعدّها الله للكافرين أساسًا، والعصاة تبعًا. وحذّرنا الله تعالى منها في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ.

يقول تعالى: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُورًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحریم: ٦].

وأكتفي هنا بنقل قليل من الأحاديث في «الترهيب من النار»، ممّا ذكره الإمام المنذري في كتابه الشهير «الترغيب والترهيب»:

فعن أنس رضي الله عنه قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: ﴿ رَبَّنَا ءَانِكَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١]، رواه البخاري^(١).

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ». قال: وأشاح ثم قال: «اتَّقُوا النَّارَ». ثم أعرض وأشاح ثلاثًا، حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا ثُمَّ قَالَ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ». رواه البخاري ومسلم^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٨٩)، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٩٠).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٥٣٩)، ومسلم في الزكاة (١٠١٦).

«أشاح» - بشين معجمة وحاء مهملة - معناها: حذر النار كأنه ينظر إليها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فاجتمعوا، فعمّ وخص، فقال: «يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئاً». رواه مسلم واللفظ له، والبخاري، والترمذي، والنسائي بنحوه^(١).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول: «أنذرتكم النار، أنذرتكم النار». حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعه من مقامي هذا، حتى وقعت خميصة^(٢) كانت على عاتقه عند رجله، رواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم^(٣).

وعن أنس رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده، ولو رأيتم ما رأيتم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً». قالوا: وما رأيتم يا رسول الله؟ قال: «رأيتم الجنة والنار!» رواه مسلم، وأبو يعلى^(٤).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٥٣)، ومسلم في الإيمان (٢٠٤)، كما رواه الترمذي في التفسير (٣١٨٥)، والنسائي في الوصايا (٣٦٤٤).

(٢) الخميصة: كساء أسود وأحمر له أعلام.

(٣) رواه أحمد (١٨٣٩٨)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. والحاكم في الجمعة (٢٨٧/١)، وصحّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٤) رواه مسلم في الصلاة (٤٢٦)، وأبو يعلى في مسنده (٣٩٥٢).

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «نَارُكُمْ هَذِهِ، مَا يُوَقَّدُ بَنُو آدَمَ، جُزْءٌ وَاحِدٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ». قَالُوا: وَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ لِكَافِيَةٍ! قَالَ: «إِنَّهَا فَضَّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةِ وَسْتِينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا». رَوَاهُ مَالِكٌ، وَالبُخَارِيُّ، وَمُسْلِمٌ، وَالتِّرْمِذِيُّ^(١)، وَلَيْسَ عِنْدَ مَالِكٍ: «كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا».

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جَبْرِيْلَ إِلَى الْجَنَّةِ، فَقَالَ: انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أُعِدَّتْ لِأَهْلِهَا فِيهَا. قَالَ: فَجَاءَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا. قَالَ: فَرَجَعَ إِلَيْهِ قَالَ: وَعِزَّتْكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا. فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا. فَرَجَعَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: وَعِزَّتْكَ لَقَدْ خَفْتُ أَلَّا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ! وَقَالَ: اذْهَبْ إِلَى النَّارِ فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أُعِدَّتْ لِأَهْلِهَا فِيهَا. قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: وَعِزَّتْكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا. فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا. فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَقَالَ: وَعِزَّتْكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَلَّا يَنْجُو مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَاللَّفْظُ لَهُ، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ^(٢).

أَحَادِيثُ فِي التَّرْغِيبِ فِي الْجَنَّةِ:

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنْ مَا بَيْنَ مَصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكُمَْا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجْرَ، أَوْ هَجْرَ وَمَكَّةَ».

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٥)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٤٣)،

كما رواه الترمذي في صفة جهنم (٢٥٨٩)، ومالك في موطئه (٣٦٤٧) تحقيق الأعظمي.

(٢) رواه أحمد (٨٦٤٨)، وقال مخرجه: إسناده حسن. وأبو داود في السنة (٤٧٤٤)، والترمذي

في صفة الجنة (٢٥٦٠)، وقال: حسن صحيح. والنسائي في الأيمان والنذور (٣٧٦٣).

رواه البخاري ومسلم في حديث^(١)، وابن حبان^(٢) مختصراً إلا أنه قال: «لكما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى».

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ليدخلن من أمتي سبعون ألفاً - أو سبعمئة ألف - متماسكون أخذ بعضهم ببعض، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر». رواه البخاري ومسلم^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون، ولا يتفلون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة، وأزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء»^(٤).

«الألوة» - بفتح الهمزة وضمها، وبضم اللام، وتشديد الواو وفتحها - من أسماء العود الذي يتبخر به، قال الأصمعي: أراها كلمة فارسية عُربت.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧١٢) وفيه: كما بين مكة وحمير - أو كما بين مكة وبصرى -، ومسلم في الإيمان (١٩٤).

(٢) في الأصل (ابن ماجه)، قلت: لعله سبق قلم فلفظه عنده: أتى رسول الله ﷺ ذات يوم بلحم، فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه، فنهس منها. وهو جزء من الحديث المتفق عليه، وليس فيه اللفظ التي ذكرها المصنف. وهي موضع الشاهد. والحديث رواه ابن حبان في التاريخ (٦٤٦٥) مطولاً. وفي وصف الجنة وأهلها (٧٣٨٩) مختصراً كما ذكر المصنف رحمته الله.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٧)، ومسلم في الإيمان (٢١٩).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٢٧)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣٤).

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : «أَنَّ مُوسَى عليه السلام سَأَلَ رَبَّهُ: مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ فَقَالَ: رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَمَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيَقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ: رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ وَأَخَذُوا أَخْذَاتِهِمْ؟ فَيَقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مُلْكٌ مِثْلُ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ لَهُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ. فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ. قَالَ (أَيُّ مُوسَى): رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ». رواه مسلم^(١).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبُ الدَّرِّيُّ الْغَابِرُ فِي الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، لَتَفَاضِلُ مَا بَيْنَهُمْ». قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ؟! قَالَ: «بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رَجُلٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ». رواه البخاري ومسلم^(٢).

وفي رواية لهما: «كَمَا تَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبُ الْغَارِبُ»^(٣). بتقديم الراء على الباء.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». رواه البخاري^(٤).

(١) رواه مسلم في الإيمان (١٨٩).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٦)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣١).

(٣) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٥٦).

(٤) في الجهاد والسير (٢٧٩٠).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخِيْمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مَجْوَّفَةٍ، طُولُهَا فِي السَّمَاءِ سِتُونَ مِثْلًا، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ الْمُؤْمِنُ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا»^(١). رواه البخاري ومسلم والترمذي، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: «عَرْضُهَا سِتُونَ مِثْلًا»^(٢)، وهو رواية لهما.

أَمَّا وَصْفُ الْقُرْآنِ لِلْجَنَّةِ، وَتَرْغِيْبُهُ فِيهَا، فَهُوَ مَعْلُومٌ لِكُلِّ مَنْ قَرَأَ كِتَابَ اللَّهِ، أَوْ اسْتَمَعَ إِلَيْهِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ أَهْلِهَا، وَأَسْكِنَّا الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى فِيهَا. آمِينَ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٣)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣٨) (٢٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٨٧٩)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٣٨) (٢٤)، كما رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٥٢٨).

معرفة آثار المعاصي في الدنيا والآخرة

ومن أعظم البواعث على التوبة: أن يعرف العاصي آثار الذنوب في النفس والحياة، ويستحضر أخطار المعاصي في الدنيا والآخرة، فهي خطر على المرء في حياته الروحية والمادية، الفردية والاجتماعية، خطر على عقله وضميره، خطر على نفسه وجسمه، خطر عليه في ذاته وفي أهله وولده، وفي من حوله، خطر على الفرد، وعلى الأسرة، وعلى المجتمع، وعلى الأمة كلها، بل على الإنسانية قاطبة، بل على الإنسان والحيوان والنبات جميعًا.

وعلى الإنسان الذي عصى الله ﷻ: أن يعرف ويتذكر، ويستحضر عقوبات الله تعالى على المعاصي والذنوب، فقد جرت سنته سبحانه أن يعاقب عليها في الدنيا قبل الآخرة، تنبيهًا للغافلين، وتعليمًا للجاهلين، وتذكيرًا للناسين.

يقول تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

والفساد هنا معناه: الخلل والاضطراب والكوارث التي تقع في الكون والحياة، وعلى الإنسان، بسبب ما كسبت يديه من المعاصي والمخالفات

لنواميس الله الشرعية والكونية، كما قال تعالى في آيات آخر: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢].

وإنما وقع هذا البلاء وهذه المصائب للناس ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾، فهو سبحانه لا يجازيهم بكل ما عملوا من سوء، بل يعاقبهم ببعضه فقط، ويعفو عن الباقي وهو كثير، كما قال تعالى في سورة أخرى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

أكدت هذه الآية هذه القاعدة الشاملة الخطيرة، وهي أن ما أصاب الناس من مصيبة في حياتهم، فليس ذلك ظلماً ولا اعتباطاً، بل هو جزاء وفاق لما قاموا به من أعمال سيئة، وتصرفات مردولة، ثم بين وعجل أنه لا يؤاخذ الناس بكل سيئاتهم، ولا يعاقبهم بكل ما كسبوا، وكل ما ظلموا، وإلا لأهلك الأحياء كلها على ظهر الأرض بظلم الناس وذنوبهم، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

ثم هو سبحانه يُنزل بهم هذه المصائب في أنفسهم وأموالهم، لا لينتقم منهم، ولكن «لعلهم يرجعون»، أي ليكونوا على رجاء الرجوع إليه، بعد أن شردوا منه، وضلوا عن سبيله، فهو تعالى يذكّرهم بهذه البلايا من نسيانهم، وينبّههم من غفلتهم لعلهم يرجعون ويتوبون.

وقد بين القرآن شؤم الكفر والظلم والمعصية على أهلها، فيما أورد لنا من قصص الأنبياء والمؤمنين، وأقوامهم المكذّبين والعصاة، وكيف أنزل الله بهم بأسه الذي لا يُردُّ عن القوم المجرمين، وكانت لهم أموال وأولاد، وجاه ومنزلة وأتباع، فما أغنى عنهم ذلك من الله شيئاً.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾

[الأنفال: ٥٣].

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ * ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

[الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٩].

وفي سورة هود ذكر الله لنا قوم نوح وكيف أغرقهم الله بالطوفان، وكيف ودَّعهم الله بقوله: ﴿وَقِيلَ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، وكيف أهلك من بعدهم عادًا ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٥٩، ٦٠].

وبعد عاد جاءت ثمود، وقال لهم نبيهم صالح: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٠ - ١٥٢]. ولكنهم لم يطيعوه، وعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، وقالوا: يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين، فأخذتهم الصيحة أو الرجفة، فهلكوا جميعًا ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدًا لِّلثَمُودِ﴾ [هود: ٦٨].

وجاء بعدهم قوم لوط، وما ابتكروا من فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين، «فاحشة الشذوذ الجنسي»، فقلب الله قريتهم عليهم، وجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود: ﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

وجاء بعدهم أهل مدين، الذين أشركوا بالله، وعثوا في الأرض مفسدين، وبخسوا الناس أشياءهم، وطففوا الكيل والميزان، فدعاهم

نبههم شعيب إلى الله، وإلى الإصلاح، فكذبوا وأعرضوا، وأصرُّوا على ضلالهم وغييهم، فأخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثُمُودُ﴾ [هود: ٩٥].

وجاء بعدهم فرعون، ومعه هامان، وقارون، وجاءهم موسى بالآيات، وسلطان مبين، فكذبوا وأعرضوا واستكبروا، ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

واستخفَّ فرعون قومه فأطاعوه، واتبَعوا أمر فرعون، وما أمر فرعون برشيد، وأغرق الله فرعون ومن معه أجمعين.

وقد عقَّب الله تعالى على أنباء هؤلاء الأقوام، وعاقبة ما آلوا إليه فقال تعالى يخاطب رسوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠ - ١٠٢].

ويقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لِيَمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ» ثم تلا: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾^(١).

وفي السُّنَّة النبويَّة جاءت أحاديث صحاح وحسان شتى، تبين لنا ما تجلبه المعاصي على مرتكبيها من أضرار ومآسي في أولاهم قبل آخرهم.

وقد رأينا بأعيننا، ولمسنا بأيدينا: صدق هذه الأحاديث، وشاهدنا آثار المعاصي في حياتنا الخاصَّة والعامة.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٦)، ومسلم في الآداب والصلة (٢٥٨٣)، عن أبي موسى.

من هذه الأحاديث: ما رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «يا معشر المهاجرين، خمسُ خصال إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا. ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين (أي القحط والمجاعة) وشدة المؤنة، وجور السلطان عليهم.

ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدوهم من غيرهم، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم.. وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ﷻ، ويتحرروا فيما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم»^(١).

وها نحن نشاهد آثار هذه المخالفات والذنوب في ديانا ماثلة للعباد، وبخاصة عقوبة الذنب الأول من هذه الخمسة، وهو الداء العضال الذي ظهر في عصرنا نتيجة انتشار الفاحشة والمعالنة بها، وهو ما يعبر عنه باسم «الإيدز».

كتاب «الداء والدواء» لابن القيم:

ولالإمام ابن القيم رحمه الله رضي عنه كتاب كامل سماه «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» وقد يطلق عليه اسم «الداء والدواء»، وكله في بيان سوء آثار الذنوب والمعاصي، وشؤمها على الإنسان، فردًا ومجتمعًا، في دنياه وآخرته، في ماديته ومعنوياته، في علاقته بربه، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بأسرته، وعلاقته بمجتمعه، وعلاقته

(١) سبق تخريجه ص ٢٢٠.

بالكون من حوله، وعلاقة النَّاس بعضهم ببعض، وذلك بقلم ابن القيم البليغ، وأسلوبه الأدبي الرفيع.

ونظرًا لأهمية هذا الكتاب، لا بدّ لنا أن نقبس منه - مع بعض التصرف - أهم ما فيه، وإن طال الاقتباس؛ لأننا نريد أن نوقظ الضمائر النائمة، ونحيي القلوب الميتة، ونقوّي العزائم المسترخية، ونأخذ بأيدي العصاة حتّى يتوبوا، وبأيدي التائبين حتّى يستمروا، وبأيدي المهتدين حتّى يزدادوا هدى.

من آثار المعاصي وشؤمها:

يقول ابن القيم: «وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة، المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلّا الله.

حرمان العلم:

فمنها: حرمان العلم، فإنّ العلم نور يقذفه الله في القلب، والمعصية تطفئ ذلك النور.

ولمّا جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته، وتوقّد ذكائه، وكمال فهمه، فقال: إنّي أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصية.

وقال الشافعي رحمه الله:

شكوتُ إلى وكيع سوءَ حظي فأرشدني إلى تركِ المعاصي
وقال: اعلم بأنّ العلمَ فضلٌ وفضلُ الله لا يؤتاهُ عاصي^(١)

(١) انظرو: المحمدون من الشعراء وأشعارهم لجمال الدين القفطي ص ١٣٨، ١٣٩، تحقيق حسن معمري وحمد الجاسر، نشر دار اليمامة، ١٩٧٠م.



حرمان الرزق:

ومنها: حرمان الرزق، وفي «المسند»: «إِنَّ الْعَبْدَ لِيُحْرَمَ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يَصِيبُهُ»^(١). وقد تقدّم، وكما أَنَّ تقوى الله مجلبة للرزق؛ فترك التَّقْوَى مجلبة للفقر؛ فما استجلب رزق بمثل ترك المعاصي.

الوحشة بينه وبين الله:

ومنها: وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله، لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلاً، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تفِ بتلك الوحشة، وهذا أمر لا يُحَسُّ به إِلَّا مَنْ فِي قَلْبِهِ حَيَاةٌ، وما لجرح بميت إيلام! فلو لم تُترك الذنوب إِلَّا حَذَرًا مِنْ وَقُوعِ تِلْكَ الْوَحْشَةِ، لَكَانَ الْعَاقِلُ حَرِيًّا بِتَرْكِهَا.

وشكا رجل إلى بعض العارفين وحشة يجدها في نفسه، فقال له: إِذَا كُنْتَ قَدْ أَوْحَشَتْكَ الذُّنُوبُ فَدَعْهَا إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنَسْ وَلَيْسَ عَلَى الْقَلْبِ أَمْرٌ مِنْ وَحْشَةِ الذَّنْبِ عَلَى الذَّنْبِ؛ فَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

الوحشة بينه وبين الناس:

ومنها: الوحشة التي تحصل بينه وبين الناس، ولا سيما أهل الخير منهم، فَإِنَّهُ يَجِدُ وَحْشَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَكَلَّمَا قُوِيَ تِلْكَ الْوَحْشَةُ بَعْدَ مِنْهُمْ، وَمِنْ مَجَالَسَتِهِمْ، وَحَرَمِ بَرَكَةِ الْإِنْتِفَاعِ بِهِمْ، وَقَرَبِ مِنْ حَزْبِ الشَّيْطَانِ،

(١) رواه أحمد (٢٢٤١٣)، وقال مخرّجوه: حسن لغيره دون قوله: «وإن العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصابه». وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٢)، وابن حبان في الرقائق (٨٧٢)، والحاكم في الدعاء (٤٩٣/١)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

بقدر ما بُعد من حزب الرحمن، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم، فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه، وبينه وبين نفسه، فتراه مستوحشاً من نفسه.

وقال بعض السلف: إني لأعصي الله فأرى ذلك في خُلُق دابّتي وامرأتي.

تعسير أمور العاصي:

ومنها: تعسير أموره عليه؛ فلا يتوجّه لأمر إلا يجد مغلّقا دونه، أو متعسّرا عليه، وهذا كما أنّ من اتقى الله جعل له من أمره يسرا؛ فمن عطل التقوى جعل له من أمره عسرا، ويا لله العجب! كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه وطرقها معسرة عليه، وهو لا يعلم من أين أتى؟

ظلمة القلب:

ومنها: ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا ادلّهم، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره، فإنّ الطاعة نور، والمعصية ظلمة، وكلّما قويت الظلمة ازدادت حيرته؛ حتى يقع في البدع والضلالات، والأمور المهلكة وهو لا يشعر، كأعمى خرج في ظلمة الليل يمشي وحده، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين، ثم تقوى حتى تعلو الوجه، وتصير سوادا فيه يراه كل أحد.

قال عبد الله بن عباس: إنّ للحسنة ضياء في الوجه، ونورا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإنّ للسيئة سوادا في الوجه، وظلمة في القلب، ووهنا في البدن، ونقصا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق.

ومنها: أَنَّ المعاصي وهن القلب والبدن، أمَّا وهنُّها للقلب فأمر ظاهر، بل لا تزال توهنه حتَّى تزيل حياته بالكلية.

وأمَّا وهنُّها للبدن فَإِنَّ المؤمن قوته في قلبه، وكلما قوي قلبه قوي بدنه، وأمَّا الفاجر فَإِنَّه - وإن كان قوي البدن - فهو أضعف شيء عند الحاجة، فتخونه قوته أحوج ما يكون إلى نفسه، وتأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانتهم أحوج ما كانوا إليها، وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم؟

الحرمان من الطاعة:

ومنها: حرمان الطاعة، فلو لم يكن للذنوب عقوبة إِلَّا أن يصد عن طاعة تكون بدله، ويقطع طريق طاعة أخرى، فينقطع عليه بالذنوب طريق ثلاثة، ثم رابعة وهلمَّ جرًّا، فينقطع عليه بالذنوب طاعات كثيرة، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها، وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة، منعت من عدة أكالات أطيب منها^(١)، والله المستعان.

المعاصي تقصّر الأعمار:

ومنها: أَنَّ المعاصي تقصّر العمر، وتمحق بركته ولا بدَّ، فَإِنَّ البرَّ كما يزيد في العمر، فالفجور يقصّر العمر. وقد اختلف النَّاس في هذا الموضع.

(١) في هامش الخطية وفي نسخة:

بأكلة ساعة أكالات دهر
وفيه هلاكه لو كان يدري

وكم من أكلة منعت أياها
وكم من امرئ يسعى لشيء

فقلت طائفة: نقصان عمر العاصي هو: ذهاب بركة عمره ومحقتها عليه. وهذا حق، وهو بعض تأثير المعاصي.

وقالت طائفة: بل تنقصه حقيقة، كما تنقص الرزق، فجعل الله سبحانه للبركة في الرزق أسبابًا كثيرة تكثره وتزيده، وللبركة في العمر أسباب تكثره وتزيده.

قالوا: ولا يمتنع زيادة العمر بأسباب كما ينقص بأسباب، فالأرزاق والآجال، والسعادة والشقاوة، والصحة والمرض، والغنى والفقر، وإن كانت بقضاء الربِّ عَزَّ وَجَلَّ، فهو يقضي ما يشاء بأسباب جعلها موجبة لمسبباتها مقتضية لها.

وقالت طائفة أخرى: تأثير المعاصي في محق العمر إنما هو بأن حقيقة الحياة هي حياة القلب، ولهذا جعل الله سبحانه الكافر ميتًا غير حي، كما قال تعالى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ فالحياة في الحقيقة حياة القلب، وعمر الإنسان مدة حياته، فليس عمره إلا أوقات حياته بالله، فتلك ساعات عمره، فالبر والتقوى والطاعة تزيد في هذه الأوقات التي هي حقيقة عمره، ولا عمر له سواها.

وبالجملة فالعبد إذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التي يجد غبَّ إضاعتها يوم يقول: ﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤] فلا يخلو، إمَّا أن يكون له مع ذلك تطلُّع إلى مصالحه الدنيوية والأخروية أولًا؛ فإن لم يكن له تطلُّع إلى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله، وذهبت حياته باطلاً، وإن كان له تطلُّع إلى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق، وتعسَّرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها، وذلك نقصان حقيقي من عمره.

وسر المسألة أنَّ عمر الإنسان مدة حياته، ولا حياة له إِلَّا بإقباله على ربه، والتَّعَمُّ بحبِّه وذكره، وإيثار مرضاته.

الجر إلى معاصي آخر:

ومنها: أنَّ المعاصي تزرع أمثالها، ويولَّد بعضها بعضًا، حتَّى يعزَّ على العبد مفارقتها والخروج منها، كما قال بعض السلف: إنَّ من عقوبة السيئة السيئة بعدها، وإنَّ من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى إلى جنبها: اعملني أيضًا، فإذا عملها قالت الثالثة كذلك، وهلمَّ جرًّا، فتضاعف الربح، وتزايدت الحسنات، وكذلك جانب السيئات أيضًا، حتَّى تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة، وملكات ثابتة؛ فلو عطلَّ المحسن الطاعة لضاعت عليه نفسه، وضاعت عليه الأرض بما رحبت، وأحسَّ من نفسه بأنَّه كالحوت إذا فارق الماء حتَّى يعاودها، فتسكن نفسه وتقرُّ عينه، ولو عطلَّ المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاعت عليه نفسه، وضاق صدره، وأعيت عليه مذاهبه، حتَّى يعاودها، حتَّى إنَّ كثيرًا من الفسَّاق ليوافق المعصية من غير لذة يجدها، ولا داعية إليها، إِلَّا لما يجد من الألم بمفارقتها، كما صرَّح بذلك شيخ القوم الحسن بن هانئ حيث يقول:

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها^(١)!

(١) كذا قال ابن القيم، والبيت للأعشى الكبير كما في ديوانه (٢٢) شرح د. م. محمد حسين،

نشر مكتبة الآداب، القاهرة، وإنما قال الحسن بن هانئ أبو نواس:

دع عنك لومي فإنَّ اللوم إغراء ودأوني بالتي كانت هي الداء

وقال آخر:

فكانت دوائِي، وهي دائِي بعينه كما يتداوى شارب الخمر بالخمر^(١)!

ولا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتّى يرسل الله ﷻ برحمته عليه الملائكة تؤزّه إليها أزا، وتحرضه عليها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها، ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها حتّى يرسل الله عليه الشياطين فتؤزّه إليها أزا، فالأول قوَى جند الطاعة بالمدد، فصاروا من أكبر أعوانه. وهذا قوَى جند المعصية بالمدد فكانوا أعواناً عليه.

إضعاف إرادة الطاعة:

ومنها - وهو من أخوفها على العبد - أنّها تضعف القلب عن إرادته، فتقوى إرادة المعصية، وتضعف إرادة التّوبة شيئاً فشيئاً، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التّوبة بالكلية؛ فلو مات نصفه لما تاب إلى الله، فيأتي من الاستغفار وتوبة الكذابين باللسان بشيء كثير، وقلبه معقود بالمعصية، مصرّ عليها، عازم على مواقعتها متى أمكنه، وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك.

التبجّح بالمعصية:

ومنها: أنّه ينسلخ من القلب استقباحها، فتصير له عادة، فلا يستقبح من نفسه رؤية النَّاس له، ولا كلامهم فيه، وهذا عند أرباب الفسوق هو

(١) الشطر الأخير من البيت لمجنون ليلي، وشطره الأول:

تداويت من ليلي بليلى من الهوى

انظر: ديوانه رواية أبي بكر الوالبي ص ٧٠، تعليق يسري عبد الغني، نشر دار الكتب العلمية،

بيروت، ط ١، ١٩٩٩م.

غاية التَّهْتِكِ وتَمَامِ اللَّذَةِ؛ حَتَّى يَفْتَخِرَ أَحَدُهُمْ بِالْمَعْصِيَةِ، وَيَحْدُثُ بِهَا مِنْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ عَمَلُهَا، فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتَ كَذَا وَكَذَا، وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ النَّاسِ لَا يُعَافُونَ، وَيُسَدُّ عَلَيْهِمْ طَرِيقُ التَّوْبَةِ، وَتَغْلُقُ عَنْهُمْ أَبْوَابُهَا فِي الْغَالِبِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافَى إِلَّا الْمَجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْإِجْهَارِ: أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يَصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَيَقُولُ: عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا. وَقَدْ بَاتَ يَسْتَرُهُ رَبُّهُ، وَيَصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ»^(١).

هوان العاصي على الله:

ومنها: أَنَّ الْمَعْصِيَةَ سَبَبٌ لِهَوَانِ الْعَبْدِ عَلَى رَبِّهِ وَسَقُوطُهُ مِنْ عَيْنِهِ.
قال الحسن البصري: هَانُوا عَلَيْهِ فَعَصَوْهُ، وَلَوْ عَزُّوا عَلَيْهِ لِعَصَمَهُمْ^(٢).

وَإِذَا هَانَ الْعَبْدُ عَلَى اللَّهِ لَمْ يَكْرَمْهُ أَحَدٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]. وَإِنْ عَظَّمَهُمُ النَّاسُ فِي الظَّاهِرِ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِمْ، أَوْ خَوْفًا مِنْ شَرِّهِمْ، فَهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ أَحَقَرُ شَيْءٍ وَأَهْوَنُهُ.

استصغار معصية الله:

ومنها: أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ يَرْتَكِبُ الذَّنْبَ، حَتَّى يَهُونَ عَلَيْهِ، وَيَصْغُرُ فِي قَلْبِهِ، وَذَلِكَ عَلَامَةُ الْهَلَاكِ؛ فَإِنَّ الذَّنْبَ كُلَّمَا صَغُرَ فِي عَيْنِ الْعَبْدِ عَظُمَ عِنْدَ اللَّهِ.

(١) سبق تخريجه ص ٢١٢.

(٢) ذكره ابن الجوزي في ذم الهوى ص ١٩٦، تحقيق خالد عبد اللطيف، نشر دار الكتاب العربي،

بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

وقد ذكر البخاري في «صحيحه»، عن ابن مسعود قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يرى ذنوبه كأنَّه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإنَّ الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه، فقال به هكذا، فطار»^(١).

شؤم المعصية على جميع الكائنات الحية:
ومنها: أنَّ غيره من النَّاس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم.

قال أبو هريرة: إِنَّ الْحُبَّارَى لَمُوت فِي وَكْرَهَا مِنْ ظَلَمِ الظَّالِمِ^(٢)!
وقال مجاهد: إِنَّ الْبَهَائِمَ تَلْعَنُ عَصَاةَ بَنِي آدَمَ إِذَا اشْتَدَّتِ السَّنَةُ - أَيْ الْقَحْطُ - وَأَمْسَكَ الْمَطَرُ، وَتَقُولُ: هَذَا بِشُؤْمِ مَعْصِيَةِ ابْنِ آدَمَ^(٣).
وقال عكرمة: دَوَابُّ الْأَرْضِ وَهَوَامُهَا حَتَّى الْخَنَافِسُ وَالْعِقَارِبُ تَقُولُ: مَنَعْنَا الْقَطَرَ بِذُنُوبِ بَنِي آدَمَ^(٤).
فلا يكفيه عقاب ذنبه، حَتَّى يَلْعَنَهُ مِنْ لَا ذَنْبَ لَهُ.

المعصية تورث الذلة:

ومنها: أَنَّ الْمَعْصِيَةَ تَوْرَثُ الذَّلَّ وَلَا بَدَّ؛ فَإِنَّ الْعِزَّ كُلَّ الْعِزِّ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، أَيْ: فليطلبها بطاعة الله؛ فَإِنَّهُ لَا يَجِدُهَا إِلَّا فِي طَاعَةِ اللَّهِ.

(١) سبق تخريجه ص ٣٩.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٦٩)، والبيهقي في الشعب (٧٠٧٥).

(٣) رواه ابن جرير في تفسيره (٧٣٤/٢).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٧١)، والبيهقي في الشعب (٣٠٤٦).

وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزني بطاعتك، ولا تُذلني بمعصيتك.

وقال الحسن البصري: إنهم وإن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، إنَّ ذلَّ المعصية لا يفارق قلوبهم، أباي الله إلا أن يذلَّ من عصاه!

وقال عبد الله بن المبارك:

رأيت الذنوبَ تَمِيتُ القلوب وقد يورث الذلَّ إيمانها
وترك الذنوبَ حياءُ القلوب وخيرٌ لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدينَ إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها^(١)؟

إفساد العقل:

ومنها: أنَّ المعاصي تفسد العقل؛ فإنَّ للعقل نورًا، والمعصية تطفئ نور العقل ولا بدَّ، وإذا طفئ نوره ضعف ونقص.

وقال بعض السلف: ما عصى الله أحدٌ حتَّى يغيب عقله، وهذا ظاهر؛ فإنَّه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية، وهو في قبضة الربِّ تعالى، وتحت قهره، وهو مطَّلِع عليه، وفي داره، وعلى بساطه، وملائكته شهود عليه ناظرون إليه! وواعظ القرآن ينهاه، وواعظ الإيمان ينهاه، وواعظ الموت ينهاه، وواعظ النَّار ينهاه، والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها، فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف به ذو عقل سليم؟

(١) تاريخ دمشق (٤٦٧/٣٢).

الطبع على القلب:

ومنها: أَنَّ الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها، فكان من الغافلين. كما قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] قال: هو الذنب بعد الذنب.

وقال الحسن: هو الذنب على الذنب، حتّى يعمى القلب^(١).

وقال غيره: لمّا كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم.

وأصل هذا أَنَّ القلب يصدأ من المعصية، فإذا زادت غلب الصداً حتّى يصير راناً، ثم يغلب حتّى يصير طبعاً وقُفلاً وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذ يتولاه عدوّه ويسوقه حيث أراد.

جلب لعنة الله على فاعلها:

ومنها: أَنَّ الذنوب تُدخل العبد تحت لعنة الله وعَلَّ، ولعنة رسول الله ﷺ، فإنّه لعن على معاصٍ كثيرة، أو أعلن لعنة الله على مرتكبيها، والتي غيرها أكبر منها، فهي أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة، فلعن الواشمة والمستوشمة، والواصلة والموصولة، والنامصة والمتنمصة، والواشرة والمستوشرة، ولعن آكل الربا ومؤكله، وكاتبه وشاهده، ولعن المحلل والمحلل له، ولعن السّارق، ولعن شارب الخمر وساقياها، وعاصرها ومعتصرها، وبائعها ومشتريها، وآكل ثمنها، وحاملها، والمحمولة إليه، ولعن من غيّر منار الأرض، وهي أعلامها وحدودها، ولعن من لعن والديه، ولعن من اتّخذ شيئاً فيه الروح غرضاً يرميه بسهم،

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (٢٠١/٢٤).

ولعن المختنّين من الرجال، والمترجّلات من النساء، ولعن من ذبح لغير الله، ولعن من أحدث حدثًا أو آوى محدثًا، ولعن المصوِّرين، ولعن من عمل عمل قوم لوط، ولعن من سبَّ أباه وأمه، ولعن من كَمَه^(١) أعمى عن الطريق، ولعن من أتى بهيمة، ولعن من وسم دابةً في وجهها، ولعن من ضارَّ مسلمًا أو مكر به، ولعن زوّارات القبور والمتّخذين عليها المساجد والسرج، ولعن من أفسد امرأة على زوجها، أو مملوكًا على سيده، ولعن من أتى امرأة في دبرها، وأخبر أنّ من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتّى تصبح، ولعن من انتسب إلى غير أبيه، وأخبر أنّ من أشار إلى أخيه بحديدة فإنّ الملائكة تلعنه، ولعن من سبَّ الصحابة.

وقد لعن الله «في كتابه» من أفسد في الأرض وقطع رحمه.

ولعن من آذاه وأذى رسول الله ﷺ.

ولعن من كتم ما أنزل الله سبحانه من البيّنات والهدى.

ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة.

ولعن من جعل سبيل الكافرين أهدي من سبيل المسلمين.

ولعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل، ولعن الراشي والمرتشي والرائش - وهو الواسطة في الرشوة - ولعن على أشياء آخر غير هذه.

فلو لم يكن في فعل ذلك إلّا رضاء فاعله بأن يكون ممّن يلعنه الله ورسوله وملائكته لكان في ذلك ما يدعو إلى تركه.

(١) كمه أعمى: يريد أنّه أضلّه وعمّى عليه، ولم يرشده إلى مقصده.

الحرمان من دعاء النبي ﷺ والملائكة:

ومنها: حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة؛ فإن الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧ - ٩].

فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التائبين المتبعين لكتابه وسنة رسوله، اللذين لا سبيل له غيرهما؛ فلا يطمع غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة، إذا لم يتصف بصفات المدعو له بها، والله المستعان.

إضعاف سير القلب إلى الله:

ومن عقوباتها: أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة، أو تعوقه أو توقفه وتقطعه عن السير؛ فلا تدعه يخطو إلى الله خطوة، هذا إن لم تزدّه عن وجهته إلى ورائه؛ فالذنب يحجب الواصل، ويقطع السائر، وينكس الطالب، والقلب إنما يسير إلى الله بقوته، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيره، فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعاً يبعد تداركه. والله المستعان.

المعاصي تزيل النعم:

ومن عقوبات الذنوب: أنها تزيل النعم، وتُحِلُّ النقم، فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب، ولا حلت به نعمة إلا بذنب، كما قال علي بن أبي

طالب ﷺ: ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رُفِعَ إلا بتوبة^(١). وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعَمًا أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

فأخبر الله تعالى أنه لا يغيّر نعمه التي أنعم بها على أحدٍ حتّى يكون هو الذي يغيّر ما بنفسه، فيغيّر طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غيّر غيّر عليه، جزاءً وفاقا، وما ربك بظلامٍ للعبيد.

ولقد أحسن القائل:

إذا كنتَ في نعمة فارعها فإنّ الذنوب تزيل النعم
وحُطَّها بطاعة ربّ العباد فرُبُّ العباد سريع النِّقم^(٢)

إنساء العاصي نفسه:

ومن عقوباتها: أنّها تنسي العبد نفسه، وإذا نسي نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها.

فإن قيل: كيف ينسى العبد نفسه؟ وإذا نسي نفسه فأى شيء يذكر؟ وما معنى نسيانه نفسه؟

(١) طريق الهجرتين ص ٢٧٦، نشر دار السلفية، القاهرة، مصر، ط ٢، ١٣٩٤هـ.

(٢) روى ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٠٣/٥١) أن عمر بن عبد العزيز كان يتمثل بهما، وهما في الديوان المنسوب لعلي بن أبي طالب ص ١٣٠، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، نشر دار ابن زيدون. وحُطَّها: احفظها وحصّنها، واجعل الطاعة كالسور المحيط بالمدينة ليمنع عنها عادية المغيرين.

قيل: نعم ينسى نفسه أعظم نسيان، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]. فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم، كما قال الله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين:

إحداهما: أنه سبحانه نسيه.

والثانية: أنه أنساه نفسه.

ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته؛ فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم، وأما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وما تكمل به، ينسيه ذلك جميعه؛ فلا يخطر بباله، ولا يجعله على ذكره، ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه؛ فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره. وأيضا فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتهما؛ فلا يخطر بباله إزالتها.

وأيضا ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها؛ فلا يخطر بقلبه مداواتها، ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول به إلى الفساد والهلاك، فهو مريض مثخن بالمرض، ومرضه مترام به إلى التلف، ولا يشعر بمرضه، ولا يخطر بباله مداواته، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة.

المعيشة الضنك:

ومنها: المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ، والعذاب في الآخرة قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤]، وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك، والآية تتناول ما هو أعم منه، وإن كانت نكرة

في سياق الإثبات؛ فإنَّ عمومها من حيث المعنى؛ فإنَّه سبحانه ربَّ المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه، وإن تنعم في الدنيا بأصناف النعم؛ ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات التي تقطع القلوب والأمانى الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه، وإنَّما يواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة، وإن لم ينضمَّ إلى ذلك سكر الخمر؛ فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر؛ فإنَّه يُفَيِّق صاحبه ويصحو، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه، إلَّا إذا كان صاحبه في عسكر الأموات؛ فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله ﷺ في دنياه، وفي البرزخ ويوم معاده، ولا تقر العين، ولا يهدأ القلب، ولا تطمئن النفس إلَّا بإلهها ومعبودها الذي هو حق، وكل معبود سواه باطل؛ فمن قرَّت عينه بالله قرَّت به كل عين، ومن لم تقرَّ عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، والله تعالى إنَّما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحًا كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة؛ فلهم أطيب الحياتين؛ فهم أحياء في الدارين، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَأَن أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مِّنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣]. ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة، وحصلوا على الحياة الطيبة في الدارين؛ فإنَّ طيب النفس،

وسرور القلب وفرحه، ولذته وابتهاجه، وطمأنينته وانشراحه، ونوره وسعته وعافيته، من ترك الشهوات المحرّمة، والشبهات الباطلة، هو النعيم على الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه.

فقد كان يقول بعض من ذاق هذه اللذة: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف!

وقال آخر: إنه ليمرُّ بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب!

وقال آخر: إن في الدنيا جنّة هي في الدنيا كالجنة في الآخرة؛ فمن دخلها دخل تلك الجنة، ومن لم يدخلها لم يدخل جنّة الآخرة، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذه الجنة بقوله: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا». قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «حلق الذكر»^(١). وقال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»^(٢).

ولا تحسب أنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ [الانفطار: ١٣، ١٤] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة هم كذلك - أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار - فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟ وأي عذاب أشدّ من الخوف والهم والحزن، وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكلّ واد منه شعبة؟ وكل من تعلق به وأحبه من دون الله، فإنه يسومه

(١) رواه أحمد (١٢٥٢٣)، وقال مخرّجه: إسناده ضعيف. والترمذي في الدعوات (٣٥١٠)، وقال:

حسن غريب. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٦٩٩)، عن أنس.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (١١٩٥)، ومسلم في

الحج (١٣٩٠)، عن عبد الله بن زيد المازني.

سوء العذاب، فكل من أحب شيئاً غير الله عُدَّ به ثلاث مرات في هذه الدار؛ فهو يعذب به قبل حصوله حتَّى يحصل، فإذا حصل عُدَّ به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه، وأنواع من العذاب في هذه المعارضات، فإذا سلبه اشتد عليه عذابه؛ فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

وأما في البرزخ، فعذابٌ يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجو عوده، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده، وألم الحجاب عن الله، وألم الحسرة التي تقطع الأكباد؛ فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما يعمل الهوام والديدان في أبدانهم، بل عملها في النفوس دائم مستمر، حتَّى يردّها إلى أجسادها؛ فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمرّ، فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طرباً وفرحاً وأنساً بربه، واشتياقاً إليه، وارتياحاً بحبّه، وطمأنينة بذكره.

فيا من باع حظّه الغالي بأبخس الثمن، وغبن كل الغبن في هذا العقد، وهو يرى أنّه قد غبن، إذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فسل المقومين!

فيا عجباً من بضاعة معك الله مشتريها، وثمرتها جنّة المأوى، والسفير الذي جرى على يديه عقد التبايع، وضمن الثمن عن المشتري، هو الرسول ﷺ، وقد بعثها بغاية الهوان، كما قال القائل:

إذا كان هذا فِعْلُ عَبْدٍ بِنَفْسِهِ فَمَنْ ذَا لَهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ يُكْرَمُ؟

﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨] ^(١).

* * *

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص ٥٢ - ٧٧، نشر دار المعرفة، المغرب، ط ١،



خاتمة

لقد تبين لنا من هذه الدراسة: أنَّ أعظم ما ينفع الإنسان طاعة ربه، وأكبر ما يضرُّه معصيته وَعَجَلُ، فليس أضرَّ على الإنسان في دنياه وآخرته من ذنوبه وخطاياهم، بل الذنوب والخطايا ضرر على المجتمع كله، وليس على المذنب وحده، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

بل الذنوب والخطايا خطر على البيئة كلها: برية وبحرية، حيوانية ونباتية، بل على التوازن الكوني كله، كما نقرأ عن «ثقب الأوزون» ونحو ذلك.

كما عرفنا أنَّ كل بني آدم خطاء، وخير الخطَّائين التوابون، فمن رحمة الله بالإنسان أن أعطاه هذه «الممحاة» أو هذه «المغسلة»، وهي التَّوْبَةُ ليغسل بها نفسه كلَّما زلَّت قدمه، وغلبت فيه نزعة الطين على نفحة الروح.

وكلُّ إنسان في حاجة إلى التَّوْبَةِ، وعلى قدر رهافة حسه، ورقة شعوره، يكون إحساسه بالتفريط في جنب الله، والتقصير في حقوق الناس، وإحساسه بالحاجة إلى التَّوْبَةِ.

والتَّوْبَةُ مطلوبة من الفرد، وهي مطلوبة من المجتمع أيضًا من ذنوبه

العامة، مثل تعطيل شريعة الله، وإهمال فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستباحة الخلاعة والمسكرات والربا المؤذنة بحرب الله ورسوله، والإعراض عن الوحدة، والاستجابة لدواعي الفرقة والخلاف، والولاء لغير الله، بل موالاته أعداء الله، والوهن والدعوة إلى السلم مع المعتدين على الأرض والعرض.. كل هذه تتطلب من المجتمع كله أن يتوب إلى الله، ويرجع إليه.

ومن الناس من يتصور أن الذنوب تنحصر في الزنى وشرب الخمر ونحوها، ويغفلون ذنوباً أخرى كالتى تتعلق بحقوق الناس وكراماتهم وحرياتهم، أو تتعلق بتلويث البيئة أو إفساد الحياة.

من الناس من تراه يصلي في المسجد، ويتلو القرآن، ويسبح في اليوم مائة مرة، ويذهب إلى العمرة في كل رمضان، وهو - مع هذا - يرتكب مآثم فظيعة، أو يعاون فيها، مثل تزوير الانتخابات، أو الاعتداء على حرية الشعب، وحقوق الإنسان، أو قبول الرشوة باسم الهدية أو العمولة، أو تسهيل استيراد الأغذية الفاسدة، أو الملوثة بالإشعاع، أو لحوم البقر المجنونة، أو مدح الحكام الطغاة، وترويجهم لدى الشعوب. ومن الناس من يعتدي على البيئة، وفيلوثها أو يفسدها أو يدمرها، بعمل من الأعمال التي لا يرضاها الله ولا رسوله ولا المؤمنون، ولا يحسب ذلك من الذنوب والمعاصي التي يجب عليه التوبة والاستغفار منها.

وهناك كثير من الذنوب والخطايا يقع فيها الجُم الغفير من البشر، وهم لا يشعرون، لجهلهم، أو لبلادة حسّهم، أو لخفائها عليهم، ولا سيما إذا كانت من خطايا الضمائر ومعاصي القلوب، التي تدق وتخفى على كثير من الناس.

وطوق النجاة للإنسان من هذا المأزق: أن يتوب إلى الله تعالى توبة عامة شاملة: ممّا يعلم من ذنوبه وممّا لا يعلم، فإنّ ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر ممّا يعلمه، ولا ينفعه في عدم المؤاخذه بها جهله إذا كان متمكّنًا من العلم، فإنّه عاصٍ يترك العلم والعمل، فالمعصية في حقه أشد، وفي «الأدب المفرد»: أن النبي ﷺ قال: «الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل». فقال أبو بكر: فكيف الخلاص منه يا رسول الله؟ قال: «أن تقول: اللهمّ إنّي أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»^(١).

فهذا طلب الاستغفار ممّا يعلمه الله أنّه ذنب، ولا يعلمه العبد.

وفي «الصحيح»، عنه ﷺ: أنّه كان يدعو في صلاته: «اللهمّ اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهمّ اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهمّ اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني»^(٢) وفي الحديث الآخر: «اللهمّ اغفر لي ذنبي كلّه، دِقّه وجِلّه، خطأه وعمده، سره وعلايته، أوله وآخره»^(٣).

فهذا التعميم وهذا الشمول لتأتي التَّوْبَةُ على ما علمه العبد من ذنوبه وما لم يعلمه.

فيا أيّها الشاردون عن الله، آن لكم أن ترجعوا.. ويا أيّها الغافلون عن

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (٧١٦)، وأبو يعلى (٥٨)، وصحّحه الألباني في صحيح

الأدب المفرد (٥٥٤)، عن أبي بكر.

(٢) سبق تخريجه ص ٨٤.

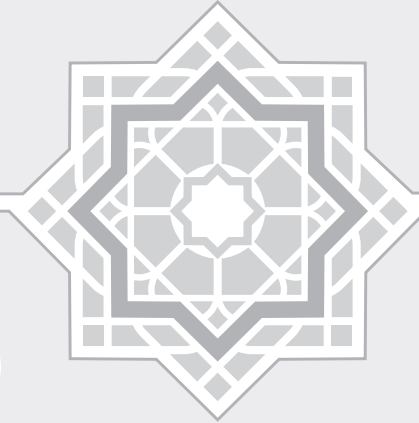
(٣) رواه مسلم (٤٨٣)، وأبو داود (٨٧٨) كلاهما في الصلاة، عن أبي هريرة.

الآخرة، أن لكم أن تنبهوا، ويا أيها الناسون للموت، أن لكم أن تذكروا.. ويا أيها السكارى بحب الدنيا، أن لكم أن تصحوا.. ويا أيها الهازلون، أن لكم أن تجدوا.. ويا أيها المستمرئون للمعاصي، أن لكم أن تتوبوا.. توبوا والباب مفتوح قبل أن يُغلق، والفرصة متاحة قبل أن تفوت، وفي العمر بقية قبل أن تضيع: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِكَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ * وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿[المنافقون: ١٠، ١١].

اللهم ثُب عَلَيْنَا، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، واغفر لنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ * رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿[آل عمران: ١٩٢ - ١٩٤].

* * *

مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَرَضَاوِيِّ



الفهارس العامة



- فهرس الآيات القرآنية الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.
- فهرس الموضوعات.







فهرس الآيات القرآنية الكريمة



غير مرخصة للطباعة

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة البقرة		
﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَا أَيُّهَا الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ * يُخَدِّعُونَ اللَّهَ	١٠ - ٨	٢٢
﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾	٣٤	١٥٥
﴿وَكُلًّا مِنْهَا رَعَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾	٣٥	١٥٥
﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾	٣٧	١٥٣، ١٥٦، ١٦٧
﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾	٣٩	١٥٦
﴿فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾	٥٤	٢٨
﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾	٦١	١١٢
﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ﴾	١٠٩	١٦٥
﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ﴾	١١٢، ١١١	٢٩١
﴿وَبُئِ عَيْنًا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾	١٢٨	٢٨
﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾	١٤٠	٢٥
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ﴾	١٦٠، ١٥٩	٢٥
﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾	١٦٩، ١٦٨	٢٦٧

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾	١٧٣	١٥٤
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ﴾	١٧٤، ١٧٥	٢٤، ٢٥
﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا﴾	١٨٥	١٥٧
﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾	٢٠١	٣٢٧
﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾	٢١٥	١٥٨
﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾	٢١٨	٢٩٠
﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾	٢٢٢	٢٠، ٢٦، ٢٧٢
﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ﴾	٢٨١	٣٢٦
﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾	٢٨٦	١٥٤
سورة آل عمران		
﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾	١٥	٧٨
﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامِنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾	١٦	٧٨
﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾	١٧	٧٨، ٨٧
﴿الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّكَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾	٢١	٢٢١
﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾	٥٧	٢٠
﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾	٨٦ - ٨٩	٢١، ١٣٣
﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ﴾	١٣٣	٧٨، ٢٥٦
﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ﴾	١٣٤	٢٥٦
﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾	١٣٥	٥٦، ٦٥، ٨٠، ٨٦، ١٤٦، ٢٢٧، ٢٣٤، ٢٥٦، ٣٠٩



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾	١٤٤	٣١٤
﴿ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾	١٤٧	٨٨ ، ٧٩
﴿ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ ﴾	١٦٧	٦٦
﴿ أَنْمَأْنُمُ لِهْمُ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا ﴾	١٧٨	٣١٠
﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾	١٨٢	٣٣٤
﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾	١٨٥	٦٦ ، ١٧
﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ ﴾	١٨٧	٢٤
﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾	١٩٢ - ١٩٤	٣٦٠
﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَأَمْنًا ﴾	١٩٣	٣٦٠ ، ٨٩ ، ٧٩
﴿ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾	١٩٤	٣٦٠
﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ ﴾	١٩٥	٩١
سورة النساء		
﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾	١	١٥٨
﴿ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَثِيرًا ﴾	٢	١٩٧
﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ﴾	١٧ ، ١٨	١٢١ ، ٤٥
﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾	٢٨	٢٢٤
﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾	٣١	١٩٦ ، ١٨٩ ، ٤١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٢ ، ٢٠١
﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾	٣٦	١٥٨
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا ﴾	٤٠	١١٧ ، ٩١ ، ٦٤

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾	٤٨	١٣١، ١٣٢، ١٤١، ١٨٨، ٢٣٢، ٢٩٥
﴿ فَإِنْ نَزَعْنَاهُمْ فِي سَيِّئِ فَعْدُوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾	٥٩	٢٩٩
﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ ﴾	٦٤	٢٨
﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ ﴾	٦٩	٣١٧
﴿ قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى ﴾	٧٧	٢٤
﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ﴾	٧٨	٣١٣
﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾	٩٣	١٣٩
﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾	١٠٦	٨١
﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ ﴾	١١٠	٨٠
﴿ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴾	١١٨، ١١٩	١٧٩
﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾	١٢٣، ١٢٤	٢٩٢
﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾	١٢٨	١٨٢
﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ	١٣٨، ١٣٩	٢٢
﴿ الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِنَ اللَّهِ ﴾	١٤١	٢٢
﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ ﴾	١٤٢	٢٢، ١٥٦
﴿ مُدْبِذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾	١٤٣	٢٢
﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾	١٤٥، ١٤٦	٢٢
﴿ فِظْلِهِم مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾	١٦٠، ١٦١	١٦١



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة المائدة		
﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾	٣	٣١٦
﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ﴾	٢٧	١٦٦، ٣٢١
﴿لَنْ بَسَطَ إِلَى يَدِكَ لِنَقُلْنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾	٢٨	٢٦٨
﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾	٢٩	٢٦٨
﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾	٣٠	١٦٦، ٢٦٨
﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾	٣١	٧٤
﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾	٣٩	٢٨
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾	٥١	٢٠
﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾	٧٢ - ٧٤	٢٠
﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾	٩٨	٨٦
سورة الأنعام		
﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾	٤٤، ٤٥	٣١٠
﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا﴾	٥٤	٢٨
﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ﴾	٩٣	٢٢٢
﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمُ مَا خَوَّلْنَاكُمْ﴾	٩٤	٣٢٠
﴿وَذَرُوا ظِلَهِرَ الْأَثَمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْأَثَمَ﴾	١٢٠	١٦٣
﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾	١٤٠	١٦٠
﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾	١٤٥	١٥٤

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾	١٤٨	٣٠١
﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرْ وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى﴾	١٦٤	١٥٣
سورة الأعراف		
﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا تَنبَهُهُمْ﴾	١٧، ١٦	٢٦٦
﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾	٢٣	٥٩، ٦٧، ٨٠، ٨٨، ١٦٧، ٣٠١
﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾	٥٦	٢٩٠
﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾	٩٩	٢٩٣
﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾	١٤٣	٢٩
﴿يَمْسُوْنِي إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي﴾	١٤٤	٢٩
﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾	١٥١	٣٠
﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾	١٥٥	٨١
﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾	١٥٦	٢٩٠
﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ... وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾	١٥٧	١٦١، ٢٩٠
﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾	١٦٩	٢٩٠
﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾	١٨٢، ١٨٣	٣١٠
سورة الأنفال		
﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾	٢٥	٣٥٧
﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾	٣٨	١٣٣
﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا﴾	٥٣	٣٣٥، ٣٥١



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة التوبة		
﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾	٥	٢٠
﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾	١١	٢٠
﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾	١٨	١٣٢
﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ﴾	٣٦	٢١٨
﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾	٦٧	٣٥٢، ٢١٣
﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا﴾	٧٤	٢٣
﴿وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾	١٠٢	٢٣٩، ١٣١
﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾	١٠٤	١٣٣، ٢٧
﴿وَأَخْرُوتُ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾	١٠٦	١٤٨
﴿لَا يَزَالُ بُنِيتُهُمْ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾	١١٠	١٣٧
﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ﴾	١١٨	٥٩، ٤
﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾	١١٨	١٣٣
سورة يونس		
﴿فَلَا يَسْتَخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾	٤٩	٣١٣
﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا﴾	٥٩	١٦٠
﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ﴾	٩٠	٢٠٦
﴿ءَاكَلْنِ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾	٩١	٢٠٦، ٤٥
سورة هود		
﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمْنِعْكُمْ مِّنَّا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾	٣	٣٥٣، ٩٤

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾	٤٤	٣٣٥
﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾	٤٥	٢٩٢
﴿قَالَ يَنْحُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾	٤٦	٢٩٢، ٥٩
﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾	٤٧	٥٩
﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾	٥٢	٧٦
﴿وَلِئَلَّا عَادَ جَحْدُوا بِثَابِتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾	٥٩، ٦٠	٣٣٥
﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾	٦١	٧٦
﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾	٦٨	٣٣٥
﴿مُسُومَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾	٨٣	٣٣٥
﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾	٩٠	٧٧، ٤
﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتِ ثَمُودُ﴾	٩٥	٣٣٦
﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾	٩٨	١٧٨
﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾	١٠٠	٣٣٦
﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ﴾	١٠١	٣٣٦
﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾	١٠٢	٣٣٦، ٣٠٩
﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ﴾	١١٤	٤٠، ٧١، ١٠٠، ٢٣١
﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾	١١٥	٩١
سورة يوسف		
﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾	٢٣	٢٠



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمْتُ ﴾	٥٣	٢٦٨
﴿ إِنَّهُ لَا يَأْتِئُشُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾	٨٧	٢٩٥
﴿ قَالُوا يَتَابَنَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾	٩٨ ، ٩٧	٨٧
﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾	١٠٦	٦٦
سورة الرعد		
﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾	٦	٢٩٣ ، ٨٦
سورة إبراهيم		
﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ ﴾	٣٤	٣١١
﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾	٤١	٨٨ ، ٨١
﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ۗ ﴾	٤٨	٣٢٤
سورة الحجر		
﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾	٤٠ ، ٣٩	٢٦٦ ، ١٧٩
﴿ نَبِيِّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۖ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ ﴾	٥٠ ، ٤٩	٢٩٢ ، ٨٦
﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾	٥٦	٢٩٥
سورة النحل		
﴿ أَمُوتْ غَيْرَ أَحْيَاءٍ ۗ ﴾	٢١	٣٤٢
﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ ﴾	٢٥	١٧٧
﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ ﴾	٣٠	٣٥٣
﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾	٥٣	٣٠٨
﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ ۗ ﴾	٦١	٣٣٤

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا﴾	٨٨	١٧٧
﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾	٩٧	٣٥٣
﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾	١٠٦	١٥٤
﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمُ وَأَبْصَرَتْهُمْ﴾	١٠٩، ١٠٨	١٣٥
﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ﴾	١١٦	١٦٠
﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهَلَةٍ ثُمَّ تَابُوا﴾	١١٩	٢٨
سورة الإسراء		
﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾	١٤، ١٣	٣٢٥
﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾	٢٣	١٥٨
﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾	٢٥	٦١
﴿إِنَّ قُلُوبَهُمْ كَانَ خِطَئًا كَبِيرًا﴾	٣١	٢٢١، ١٩٧
﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾	٣٢	٢١٤
﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾	٥٧	٢٩٥
﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾	١٠٠	١٨٢
سورة الكهف		
﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾	٢٤	٣٠٩، ٥٧
﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾	٣٠	٩١
﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَىٰ الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾	٤٩	٣٢٥، ١٨٩
﴿أَقَلَّتْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكَرًا﴾	٧٤	٢٢١



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾	٩٨	١٣٤
﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾	١٠٤	١٧٠، ٣٠٠
﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾	١١٠	٢٣٢
سورة مريم		
﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾	٦٠، ٥٩	٢٣
﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾	٧٢، ٧١	٢٠
سورة طه		
﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾	٧	٣٠٩
﴿وَأَصْلَ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ، وَمَا هَدَى﴾	٧٩	١٧٨
﴿وَلِيَّ لَغَفَّارٍ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾	٨٢	٢٤، ١٢٢، ١٤١، ٢٥٩
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾	١٠٥ - ١٠٧	٣٢٤
﴿وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾	١١٥	١٢٨
﴿هَلْ أَدْرَاكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾	١٢٠	١٥٥
﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ، فَغَوَى﴾ * ثُمَّ أَجْبَاهُ رَبُّهُ، فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾	١٢١، ١٢٢	١٨، ٢٩، ١٥٢
﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾	١٢٤	٣٥٢
سورة الأنبياء		
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ﴾	٢٥	٢٣٢
﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدِ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾	٣٤، ٣٥	٣١٢
﴿وَنَضْعُ الْمَوْزِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾	٤٧	٣٢٤

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَضَّبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ﴾	٨٧	٣١، ٣٢، ٦٠، ٣١٨، ٣٠١
﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ، وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾	٨٨	٣١
سورة الحج		
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾	٨ - ١٠	١٧٨
﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ، مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾	١٨	٣٤٥، ٣٥٥
﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾	٥٤	٥٦
سورة المؤمنون		
﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ، مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * تُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾	٥٥، ٥٦	٣١٠
سورة النور		
﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ، بِالسِّنِّكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾	١٥	٢٨٧
﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ﴾	١٦	١٩٧، ٢٨٧
﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾	٢٤، ٢٥	٣٢٦
﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾	٣٠	٤١
﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾	٣١	١٧، ١٨، ٤١، ٤٣، ١١٩، ١٣١
﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾	٣١	٤١
سورة الفرقان		
﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾	٢٧ - ٢٩	٦٩
﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ﴾	٦٨	٢٣، ٢٦، ١٣٩، ١٤٠، ١٩٥، ٢٥٩



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿ يَضَعُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخَذُ فِيهِ مَهَانًا ﴾	٦٩	٢٣، ٢٦، ٢٥٩
﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا ﴾	٧٠	٢٣، ٢٦، ١٣٩، ٢٥٩، ٢٦٢، ٢٦٥
سورة الشعراء		
﴿ وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿	٨٧ - ٨٩	١٦٤
﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿	١٥٠ - ١٥٢	٣٣٥
﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿	٢٠٥ - ٢٠٩	٣٣٥
﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿	٢١٤	٣٢٨
سورة النمل		
﴿ وَحَدِّثُوا بِهَا وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴿	١٤	١٦٥، ٣٣٦
﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿	٧٨	١٤٤
سورة القصص		
﴿ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿	١٥	٢٩، ٦٠
﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿	١٦	٢٩، ٦٠، ٨١، ٣٠١
﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَدْعُونَ إِلَى الْتِكَارِ ﴿	٤١	١٧٨، ١٧٩
﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴿	٦٧	٢٣، ١٣١
﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿	٨٨	٣١٣، ٣٢٣
سورة العنكبوت		
﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا ﴿	١٢، ١٣	١٧٧
﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴿	٦٩	٦٧

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الروم		
﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾	٦	١٣٤
﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾	٣٠	١٥٣
﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾	٤١	٢٤٧، ٣٣٣، ٣٣٤
سورة لقمان		
﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾	١٣	١٩٧
﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾	٢٠	٣١١
﴿لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنِ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾	٣٣	١٨٢
سورة السجدة		
﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾	١٧	٢٥٥
﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾	٢٤	١٨٠
سورة الأحزاب		
﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ﴾	٥	١٥٤
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾	٤٢، ٤١	٢٣٨
﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾	٥٣	١٩٧
سورة فاطر		
﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ﴾	٦	٢٦٧
﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾	٨	٢٩٩، ١٧٠
﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾	١٠	٣٤٦
﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾	٤٥	٣٣٤



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة يس		
﴿وَنَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا وَءَاثَرَهُمْ﴾	١٢	٢١٣
سورة الصافات		
﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾	١٤٤ ، ١٤٣	٢٠٦
سورة ص		
﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾	١٧	٣٣
﴿لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾	٢٢	٣٢
﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِيَ نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ﴾	٢٣	٣٢
﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجْمِكَ إِلَى نَجْمِهِ﴾	٢٤	٨١ ، ٣٢
﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾	٢٥	٣٣ ، ٣٢
﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾	٢٦	٣٢
﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾	٣٥	٨١
﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾	٧٢ ، ٧١	٤٩
﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾	٧٦ ، ٧٥	١٦٧
﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾	٧٨ ، ٧٧	١٦٧
﴿قَالَ فِعْزَتِكَ لِأَغْوَيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾	٨٣ ، ٨٢	٢٦٦
سورة الزمر		
﴿أَمَنْ هُوَ قَنْتَ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾	٩	٢٩٥
﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾	٣٠	٣١٢

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾	٤٧	٣٢٠
﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾	٥٣	٤، ٢٦، ٣٧، ٥٦، ٧٦، ١١٧، ١٣٣، ١٤٠، ٢٧٣، ٢٩٤
سورة خافر		
﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾	٣	٢٧، ٨٦، ١٣٢، ٣٠٩
﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾	٧	٢٧، ٢٩٠
﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾	٨	٢٧
﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾	٩	٣٥٠
﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾	١٦	٣٢٥
﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾	٤٦	١٧٨
﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾	٥٥	٨١
سورة فصلت		
﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾	٦	٧٧
﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾	١٩ - ٢١	٣٢٧
﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾	٣٠	١٣٧
﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾	٤٦	٦٦
سورة الشورى		
﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾	٢٥	٢٧، ١١٧، ١٣٢
﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾	٣٠	٣٥١، ٣٣٤
﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمُنْعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ﴾	٣٦، ٣٧	١٩٠



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الزخرف		
﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ، فَأَطَاعُوهُ ﴾	٥٤	١٧٨
﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾	٦٧	٧٠
سورة الأحقاف		
﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾	٣٥	١٢٨
سورة محمد		
﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لِذَنْبِكَ ﴾	١٩	٨١، ٥٧
﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾	٢٣، ٢٢	١٥٨
سورة الفتح		
﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾	١	٢٦٢
﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾	٢	٢٦٢، ٨٢
سورة الحجرات		
﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾	١١	٢٤٦، ٤١، ٢٠، ١٩
سورة ق		
﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾	١٩	٣١٨
سورة الذاريات		
﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾	١٥	٧٩
﴿ ءَاخِذِينَ مَا ءَانَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾	١٦	٧٩
﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾	١٧	٧٩
﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾	١٨	٨٧، ٧٩

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة النجم		
﴿وَيَحْزَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾	٣١	١٩٠
﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾	٣٢	١٤٥، ١٤٦، ١٩٠، ١٩٢
﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾	٣٦ - ٣٨	١٥٣
سورة القمر		
﴿حُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾	٧	٣٢٤
سورة الرحمن		
﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾	٢٦، ٢٧	٣١٤
سورة الحديد		
﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾	٢١	٧٨
سورة المجادلة		
﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾	٦	٢٣٠
﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾	٨	٢١٢
سورة الحشر		
﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾	١٠	٨٩
﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾	١٩	٣٥٢
سورة الممتحنة		
﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾	٤، ٥	٨٨، ٨٩



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الصف		
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكُمُ عَلَىٰ تَجَرُّقِنَا فِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾	١٠ - ١٢	٧٨
سورة الجمعة		
﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ﴾	٨	٣١٤
سورة المنافقون		
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾	٩	٤٤
﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ﴾	١٠	٤٤، ٣١٥، ٣٦٠
﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾	١١	٤٤، ٣١٥، ٣٦٠
سورة التحريم		
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوَا أَنْفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ﴾	٦	٣٢٧
﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ﴾	٨	٤، ١١، ١٥، ٥٠، ١٣١، ٢٢٥، ٢٥٦
سورة الحاقة		
﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾	٢٨، ٢٩	٣٢٠
سورة نوح		
﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾	١٠ - ١٢	٧٦
﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾	٢٨	٨٠، ٨٨
سورة المدهثر		
﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾	٣٨	١٥٣

الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة القيامة		
﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾	٢٠١	٢٦٩
سورة الإنسان		
﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾	٢	١٤٦
﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾	٨ - ١٠	٣٢٦
سورة المرسلات		
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾	٤٨	١٥٦
سورة النازعات		
﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾	٣٤ - ٤١	٣٢٥
سورة عبس		
﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ﴾ يَوْمَ يَقْرَأُ الرَّءُفُ مِنْ أَخِيهِ﴾ وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ﴾ وَصَحْبِيهِ﴾ وَبَنِيهِ﴾	٣٣ - ٤٢	٣٢٥، ١٨٣
سورة التكويد		
﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِلَتْ﴾	٨، ٩	٢٢١
سورة الانقطار		
﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾	١٣، ١٤	٣٥٤
سورة المطففين		
﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾	١ - ٦	٣٢٦
﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾	١٤	٣٤٨، ٤٣



الآية	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة البروج		
﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾	٥ - ٧	٢١
﴿إِنَّ الَّذِينَ فَنَوْا الْمُؤْمِنِينَ وَتُؤْمِنَتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾	١٠	٢١
سورة الفجر		
﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾	٢٤	٣٤٢
﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ﴿	٢٧، ٢٨	٢٦٩
سورة الشمس		
﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾	٧ - ١٠	١٥٣، ٢٦٩
سورة العلق		
﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾	١	٥٧
سورة البينة		
﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾	٥	٨٥
سورة الزلزلة		
﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾	٧	٩١، ٢٥٧
سورة الماعون		
﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿	٤، ٥	١٥٦
سورة النصر		
﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ ﴿	١ - ٣	٨٢





فهرس الأحاديث النبوية الشريفة



الحديث	رقم الصفحة
أ	
ابن آدم، لو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً	١٤١
أندرون ما المفلس؟. قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع	١٨٣
اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتُ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ	١٠٠، ٧١
اتَّقُوا النَّارَ. قال: وأشاح ثم قال: اتَّقُوا النَّارَ. ثم أعرض وأشاح ثلاثاً	٣٢٧
اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله، وما هن؟	١٩٥
أجل إنِّي أوعك كما يوعك رجلان منكم	٢٤٨
أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قل	٢٠٩
أحتسب على الله أن يكفِّر السنَّة التي قبله	٢٣٧
أحسن إليها، فإذا وضعت فأتني بها	٣٧
اخبؤوا عنه كبارها	٢٦٥
أخرجوا من النَّار من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان	١٤٢
إذا أراد الله بعبده الخير، عَجَّلَ له العقوبة في الدنيا	٢٥٠
إذا دعا أحدكم فليُعْظَم الرغبة، فإنَّ الله لا يتعاظمه شيء	٢٩٦
إذا زنى العبد خرج منه الإيمان، فكان على رأسه كالظِّلَّة، فإذا أُلْقِع، رجع إليه	٢٥٨

رقم الصفحة	الحديث
٣٥٤	إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا. قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر
١٢٣	إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً
٢٣٥	أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات
٢٣٣	ارفعوا أيديكم، وقولوا: لا إله إلا الله. فرفعنا أيدينا ساعة
٢٣٠	أسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم
٨٢	أستغفر الله الذي لا إله إلا الله هو الحي القيوم، وأتوب إليه
٦١	الإسلام يجب ما قبله
١١٩	اعمل ما شئت، أو فليعمل ما يشاء
٢٧٥، ١٣٠	أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد
٣١٤	أكثرهم ذكراً للموت، وأشدُّهم استعداداً له، أولئك هم الأكياس
٣١٤	أكثروا ذكر هادم اللذات: الموت
٢٣٥	ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟
١٦٤	ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله
١٩٤	ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً. قالوا: بلى، يا رسول الله
٥	الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره، وقد أضله في أرض فلاة
٣٥٩، ٨٩، ٨٤	اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري
٣٥٩	اللهم اغفر لي ذنبي كله، دقه وجله، خطأه وعمده، سره وعلا نيته، أوله وآخره
٨٩	اللهم اغفر لي ذنبي، ووسع لي في داري، وبارك لي في رزقي
٣١٧	اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى
٨٧	اللهم إنني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت



رقم الصفحة	الحديث
٨٩	اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ
٢٣٤	أَلَيْسَ قَدْ صُلِّيتَ مَعَنَا؟. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكَ ذَنْبَكَ
٢٣٧	إِنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَإِنَّ الْهَجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا
٨٠	إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثَلَاثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ
١٤٢	إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ
١٨٧	إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا
٣٣، ٥	إِنَّ اللَّهَ وَجَّهٌ يَسْطُرُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مَسِيءُ النَّهَارِ
٢٤٩	إِنَّ اللَّهَ وَجَّهٌ يَقُولُ: إِذَا أَنَا ابْتَلَيْتُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنًا
١٩٢	إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حُظَّهُ مِنَ الزُّنَى، أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مُحَالَاةَ
١٦٤	إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَامِكُمْ وَصُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ
٣٣٦	إِنَّ اللَّهَ لِيَمْلِكُ لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ
١٥٤	إِنَّ اللَّهَ وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ
١٣٤	إِنَّ اللَّهَ يَسْطُرُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مَسِيءُ النَّهَارِ
٦٤	إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ الْمَفْتَنَ التَّوَّابَ
١٢٢، ٣٦	إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يَغْرُغْ
٣٣١	إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لِيَتَرَاءَوْْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْْنَ الْكُوكَبُ
٣٣٠	إِنَّ أَوَّلَ زَمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ
١٢٣	إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سَرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ
١٦٨	أَنَا أَغْنِي الشُّرَكَاءَ عَنِ الشُّرْكِ، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشُرَكَهُ
٢١٩، ٢١٦، ٢١٩	أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نَدًّا، وَهُوَ خَلَقَكَ

رقم الصفحة	الحديث
١٩٣	إِنَّ تَغْفِرَ اللَّهُ تَغْفِرَ جَمًّا، وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمًا؟
٣٦	إِنَّ رَبَّكَ يَقْرُوكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ لَكَ: إِنَّ شَيْئًا أَصْبَحَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا
٢٣٩	إِنَّ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ: تَنْفُضُ الْخَطَايَا
١٢٢	إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتْكَ يَا رَبُّ لَا أَبْرَحُ أَغْوِي عِبَادَكَ
١١٧، ٣٥، ٥	إِنَّ عَبْدًا أَذْنِبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ! أَذْنِبْتُ، فَاعْفُ رُبِّي
٣١٦	إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ الدُّنْيَا، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ
٤٣	إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكْتُتَ فِي قَلْبِهِ نَقْطَةٌ
١٣٢	إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ
٣٣٩	إِنَّ الْعَبْدَ لِيُحْرَمَ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يَصِيْبُهُ
٦٣	إِنَّ الْعَبْدَ لِيَعْمَلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ سِتِينَ سَنَةً
٦٣	إِنَّ الْعَبْدَ لِيَعْمَلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ
٢٤٩	إِنَّ عَظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عَظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ وَجَّكَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ
٣٣١	إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
٢٢٢	إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكُذْبِ عَلِيٍّ أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا
٣٣٢	إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الْجَنَّةِ لَخِيْمَةً مِنْ لَوْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مَجُوفَةٍ
١٩٦، ١٩٥	إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ: اسْتِطَالَةُ الرَّجُلِ فِي عَرْضِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ بَغَيْرِ حَقٍّ
٣٩	إِنَّ مَثَلَ الَّذِي يَعْمَلُ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ يَعْمَلُ الْحَسَنَاتِ
٢٢٢	إِنْ مِنْ أَفْرَى الْفِرَى أَنْ يُرَى عَيْنِيهِ مَا لَمْ تَرَ
٣٣١	أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ سَأَلَ رَبَّهُ: مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟
٣٥	إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنِبَ ذَنْبًا كَانَتْ نَقْطَةٌ سُودَاءَ فِي قَلْبِهِ
٣٤٦	إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ فِي أَصْلِ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ



رقم الصفحة	الحديث
١٧٦	أَنَّ يَوْمًا مِنْ وَالٍ أَوْ إِمَامٍ عَادِلٍ: أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سِتِينَ سَنَةً
٢٤٩	الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه
٣٢٨	أَنْذَرْتَكُمْ النَّارَ، أَنْذَرْتَكُمْ النَّارَ
١٧٥	انطلق، انطلق. قال: فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ عَلَى قَفَاهُ
٨٥	إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى
١٧٣	إِنَّمَا أَنَا أَخْشَاكُمُ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمُ لَهُ، وَلَكِنِّي أَقُومُ وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأَفْطِرُ
١١٧	إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مَيِّسِّرِينَ، وَلَمْ تَبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ
٨٢	إِنَّهُ لِيُغَاثُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ
٢٦٣	إِنِّي لَأَعْلَمُ آخَرَ رَجُلٍ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ: يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
١٦٦	إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ، فَإِنَّمَا هَلَكُ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالشُّحِّ، أَمْرُهُمْ بِالْبَخْلِ فَبَخَلُوا
١٦٨	إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ
١٦٩	إِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ
٢٨٧، ١٩١	إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ
ب	
٢٥٢، ١٤١	بَايَعُونِي عَلَى أَنْ لَا تَشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا
٤٠	بَلْ لِلنَّاسِ كَافَةٌ
٢٣٠	بَيْنَمَا رَجُلٌ مُسْتَلْقٍ، إِذْ نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ وَإِلَى النُّجُومِ
ت	
٢٢٦، ١١٨، ٣٦	التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ
٢٣٧	تَابَعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ خَبْثَ الْحَدِيدِ
٦٢، ٦١	التَّوْبَةُ تَجِبُ مَا قَبْلَهَا

الحديث	رقم الصفحة
ث	
ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه	٢٩٨، ١٦٤
ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان	٢١٥
ح	
الحج عرفة	٥٨
حديث الرجل الذي قتل مائة نفس، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض	٧٠
حرمة نساء المجاهدين على القاعدين، كحرمة أمهاتهم!	٢١٨
الحلال بيّن، والحرام بيّن، وبينهما كثير من المشتبهات	١٦١
خ	
خذوا عني مناسككم لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا!	٣١٦
خياركم كل مفتن تواب	١١٨
د	
دب إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة	٢٩٩، ٢٩٨، ١٦٧
دعوة أخي ذي النون، ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه: لا إله إلا أنت	٣١
ر	
رب اغفر لي خطيئتي واغفر لي ما قدّمت وما أخرت	٨٣
رب اغفر لي وتب عليّ، إنك أنت التواب الغفور: مائة مرة	٨٢
س	
سبحان الله! سبحان الله! ما أنزل الله من التشديد؟! قال: فعرفنا وسكتنا	١٨٥
سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت!	٨٤
سيروا، سبق المفردون، المُستَهْتَرُونَ بذكر الله، وضع الذكر أوزارهم	١٤٥



الحديث	رقم الصفحة
ش	
الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل	٣٥٩
شغل الناس. قالت: ما شغلهم؟ قال: نشر الصحائف، فيها مثاقيل الذرّ	٣٢٤
ص	
الصَّدَقَةُ تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النَّارَ	٢٣٨
الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان	٢٤٤، ٢٣٥، ١٩٠
ظ	
الظلم عند الله يوم القيامة ثلاثة دواوين: ديوان لا يغفر الله منه شيئاً	١٨٨
ع	
عُذِّبَت امرأة في هَرَّةٍ أَمَسَكْتَهَا حَتَّى مَاتَتْ مِنَ الْجُوعِ	٢٤٣
عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصّالحين قبلكم، وقربة إلى الله تعالى	٢٣٦
العمرة إلى العمرة: كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، والحج المبرور ليس له جزاء إِلَّا الْجَنَّةُ	٢٣٧
غ	
غُفِرَ لَامْرَأَةٍ مِوَسَّةٌ - بَغِيٌّ - مَرَّتْ بِكَلْبٍ عَلَى رَأْسِ رَكِيٍّ - بئر - يلهث	٢٤٢
ف	
فإن أبيت فعليك إثم المجوس	١٧٧
فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين	١٧٧
فإن توليت فإن عليك إثم القبط	١٧٧
فهل أسلمت؟. قال: أمّا أنا فأشهد أن لا إله إلا الله، وأنتَ رسول الله	٤٠



الحديث	رقم الصفحة
ق	
قال الله تعالى: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه، ثم صبر، عوّضته منهما الجنة	٢٤٩
قال الله ﷻ: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني	٣٩
قال الله ﷻ: يا ابن آدم، قم إليّ أمشِ إليك، وامشِ إليّ أهرول إليك	٣٩
قال لي جبريل: رغم أنف عبد أدرك أبويه أو أحدهما لم يدخله الجنة	٢٤٠
القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه، فما بعده أيسر منه	٣٢٢
قد أجبتُ	١٥٤
قل: اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبي، ورحمتك أرجى عندي من عملي	٢٩٦
ك	
كان أكثر دعاء النبي ﷺ: ﴿رَبَّنَا إِنَّا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ...﴾	٣٢٧
كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً	١٤١، ٣٨
الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس	١٩٤
كتب على ابن آدم حظّه من الزنى، فهو مدرك ذلك لا محالة	٢٢٩
كل ابن آدم خطّاء، وخير الخطّائين التّوّابون	٣٤
كل أمتي معافى إلّا المجاهرين، يبيت أحدهم على ذنبٍ قد ستره الله	٣٤٥، ٢١٩، ٢١٢
كلٌّ معروفٍ صدقة	٢٤١
كل مولود يولد على الفطرة	١٥٣
كلّا، إنّي رأيته في النّار، في بردة غلّها أو عباءة	١٨٦
كلّا، والذي نفسي بيده، إنّ الشّملة التي أخذها يوم خبير من المغنم	١٨٦
كلّكم خطّاؤون، وخير الخطّائين التّوّابون	١٨



رقم الصفحة	الحديث
٢٨٩	كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعُدَّ نفسك من أهل القبور
٢٩٣	الكَيِّس: مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ
ل	
٢٥٢	لا أدري: الحدود كفارة لأهلها أم لا؟
٣١٧	لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ! إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ
٢٤٨	لا بأس، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
١٦٨	لا تغضب
٢٤٤، ٢٣٦	لا يتطهر الرجل - يعني يوم الجمعة - فيُحسن طهوره
٢٩٨، ١٦٧	لا يدخلُ الجنةَ من كان في قلبه مثقال ذرةَ من كِبَرٍ
٢٤٨	لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة: في نفسه وماله وولده، حتَّى يلقى الله
٢٥٨، ٢٤	لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق
١٨٧	لا يقبل الله صدقة من غُلُولٍ
٢٥٨	لا يؤمن أحدكم حتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه
١٠٢	لقد تاب توبة لو قُسمت بين أمة لوسعتهم
٣٨	لقد تابت توبة لو قُسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم
٢٧٧	لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً، وبه مهلكة، ومعه راحلته
٢٧٤، ٣٩	لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضلَّهُ بأرض فلاة
٣٢٩	لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جَبْرِيْلَ إِلَى الْجَنَّةِ
١٣٤، ٢٧، ٥	لو أخطأتم حتَّى تبلغَ خطاياكم السماء، ثم تُبْتُمْ، لتاب الله عليكم
٣٤	لو أخطأتم حتَّى تبلغَ الشمسُ ثم تبتُمْ؛ لتاب الله عليكم



رقم الصفحة	الحديث
٣٠٨	لو أنَّ رجلاً يُجْزُّ على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هراً...
٣٣٠	ليدخلن من أمتي سبعون ألفاً - أو سبعمائة ألف - متماسكون أخذ بعضهم ببعض
٣١٧	ليس على أبيك كرب بعد اليوم
٢١٥	ليس منّا من خبّب - أي أفسد - امرأة على زوجها
م	
٨٦	ما أصرّ من استغفر، ولو عاد في اليوم سبعين مرة
٣٥٤	ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة
٢١٦	ما تقولون في الزنى؟ قالوا: حرام، حرّمه الله ورسوله
٣٢٣	ما رأيت منظراً إلّا والقبر أفضع منه
٢٦٢	ما رأيت النبي فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية
٣١٧	ما رأيت الوجل على أحد أشد منه على رسول الله
٢٢٠	ما ظهر في قوم الزنى والربا إلّا أحلّوا بأنفسهم عذاب الله
٢٤٨	ما لك تُزفّفين؟ - أي ترتعدين - قالت: الحمى، لا بارك الله فيها!
٢٤٤	ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها
٢٣٣، ٨٥	ما من رجل يذنب ذنباً، ثم يقوم فيتطهّر ثم يصلي، ثم يستغفر الله
١٨٠	ما من نفس تُقتل، إلّا كان على ابن آدم الأول كفل منها؛ لأنّه أول من سنّ القتل
٢٤٧	ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن
٦٩	مثل الجليس الصالح والسوء
٢١٧	مثل الذي يجلس على فراش المغيبة
٢٣٧	مثل الذي يعمل السيئات، ثم يعمل الحسنات
٣٤	مثل المؤمن ومثل الإيمان كمثّل الفرس في آخيته



رقم الصفحة	الحديث
٩١	المستغفر من الذنب وهو مُصِرٌّ عليه كالمستهزئ برَّبِّه
٣١٧	مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين
٢٥٢	من أتى منكم حدًّا فأقيم عليه فهو كفارته
٢٩٩، ١٦٩	من أحدث في أمرنا - أي في ديننا - ما ليس منه فهو رد
٦٢	من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية
٣٩	من أحسن فيما بقي عُفِرَ له ما مضى
٢٥١	من أصاب حدًّا، فعُجِّلَ عقوبته في الدنيا
١٩٥	من أكبر الكبائر: أن يسبَّ الرجل والديه
٢٣٤	من توضأ فأحسن الوضوء، ثم قام فصلَّى ركعتين أو أربعًا،
٢٣٥	من توضأ فأحسن الوضوء، خرجت خطاياهُ من جسده
٢٣٤	من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلَّى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه
٢٣٧	من حجَّ هذا البيت، فلم يرفث، ولم يفسق، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه
١٨١	من دعا إلى هدى، كان له أجره وأجر مَنْ اتَّبَعَهُ إلى يوم القيامة
٣٤	من سعادة المرء أن يطول عُمره، ويرزقه الله الإنابة
١٨١	من سنَّ سُنَّةَ حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة
٢١٣	من سنَّ سُنَّةَ سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها، لا ينقص من أوزارهم شيئًا
٩٤	من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه
٢٣٨	من قال: سبحان الله وبحمده، في يومه مائة مرة، حُطَّتْ خطاياهُ
٢٣٨	من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد
٢٣٧، ٢٣٦	من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدَّم من ذنبه
١٤٢	من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخل الجنة

رقم الصفحة	الحديث
١٨٤، ١١٢، ١٠٦	من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض، فليتحلله اليوم
٢٥٩	من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره
١٤١	مَنْ مَاتَ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ
١٠٥	من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها
١٤٦	المؤمن كالسنبلة، تفيء أحيانًا، وتميل أحيانًا
١٤٦	المؤمن مفتن تَوَّاب
٢١٠	المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه، يخاف أن يقع عليه
٢٨٦	المؤمن يرى ذنبه كالجبل يخاف أن يقع عليه
ن	
٣٢٩	ناركم هذه، ما يوقد بنو آدم، جزء واحد من سبعين جزءًا من نار جهنم
١٢٣، ٣٧	الندم توبة
١٨٥	نعم، إن قُتِلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر
هـ	
٢٤٠	هل لك من أم؟ قال: لا. قال: فهل لك من خالة؟ قال: نعم. قال: فبَرِّها
١٤٧	هلك المصرون قُدمًا إلى النار
٦١	هو الندم على الذنب حين يفرط
و	
٢٣١	وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا
٥٧	واعظ الله في قلب كل مسلم
٣٢٩	والذي نفس محمد بيده إنَّ ما بين مصراعي من مصاريع الجنة



رقم الصفحة	الحديث
٧٨ ، ٣٧ ، ٥	والذي نفسي بيده لو لم تُذنبوا لذهبَ الله بكم
٢٤٤	والذي نفسي بيده، ما من عبدٍ يصليّ الصلوات الخمس، ويصوم رمضان
٣٢٨	والذي نفسي بيده، ولو رأيتم ما رأيتم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً
١٩٢	والعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام
٨٣	والله إنِّي لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة
٢٥٨ ، ٢١٦	والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن! من لا يأمن جاره بوائقه
٣٦	والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه
٥٧	وإنَّ في البدن لمضغة إذا صلحت صلح جميع البدن
٢٦٨	وبعزتي لأظل أغفر لهم ما استغفروني
١٤٢	وعزتي وجلالي، لأخرجنَّ من النَّار من قال: لا إله إلاَّ الله
٢٧٣	وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتَّى أحبه
٢٥١	ويحك! وما يُدريك لو أنَّ الله ابتلاه بمرض، فكفر عنه من سيئاته!
ي	
٢٧٥	يا ابن آدم، استطعمتك فلم تُطعمني
٢٩٦	يا ابن آدم، إنَّك ما دعوتني ورجوتني، غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي
٢٣٢	يا ابن آدم، لو أتيتني بقرابِ الأرضِ خطايا، ثم لقيتني لا تشركُ بي شيئاً
٤٣ ، ٣٣ ، ٥	يا أيُّها الناس، توبوا إلى الله، فإنِّي أتوب إليه في اليوم مائة مرة
٣٢٨	يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النَّار
٢٨٧	يا عائشة، لقد قلتِ كلمةً لو مُزجت بماء البحر لمزجته



رقم الصفحة	الحديث
٨٧، ٧٨	يا عبادي، إنَّكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً
٣٠٨	يا معاذ، أتدري ما حقُّ الله على العباد؟ وما حقُّ العباد على الله؟
٣٣٧، ٢٢٠	يا معشر المهاجرين، خمس خصال إذا ابتليتم بهن
٣٢٤	يحشر النَّاس يوم القيامة حفاة عراة غُرلاً - أي غير مختونين -
٣٠٠، ١٧١	يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم، وقيامه إلى قيامهم، وقراءته إلى قراءتهم
١٨٤	يُغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين
٣٠٠	يقرؤون القرآن لا يُجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم
٢٣٢	يقول الله تعالى: من تقرب مِنِّي شَبْرًا تقَرَّبْتُ منه ذراعًا
٢٢٦	يُكتب عليه. قال: ثم يستغفر! قال: يغفر له ويتاب عليه
١٨٧	ينادي منادٍ من قَبْلِ بُطنان العرش يوم القيامة: يا أمة محمد
٢٥٠	يودُّ أهل العافية يوم القيامة، حين يُعطى أهل البلاء الثواب

* * *



فهرس الموضوعات

- ٤ ❖ من الدستور الإلهي للبشرية
- ٥ ❖ من مشكاة النبوة الخاتمة
- ٧ • مقدمة
- ١٣ • الباب الأول: وجوب التَّوْبَةِ وفضلها
- ١٥ ❖ وجوب التَّوْبَةِ وضرورتها
- ١٥ التَّوْبَةُ فِي الْقُرْآنِ
- ١٥ توبوا إلى الله توبة نصوحًا
- ١٧ توبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون
- ١٩ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون
- ٢٠ آيات آخر
- ٢٠ دعوة المشركين والكفار إلى التوبة
- ٢١ التَّوْبَةُ مِنَ النِّفَاقِ
- ٢٣ التَّوْبَةُ مِنَ الْكِبَائِرِ
- ٢٤ التَّوْبَةُ مِنْ كِتْمَانِ الْحَقِّ



- ٢٦ فضل التَّوْبَةِ والتَّائِبِينَ فِي الْقُرْآنِ
- ٢٨ تَوْبَاتُ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْقُرْآنِ
- ٣٣ التَّوْبَةُ فِي السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ
- ٤١ هَلْ تَجِبُ التَّوْبَةُ مِنَ الصَّغَائِرِ؟
- ٤٣ وَجُوبُ التَّوْبَةِ عَلَى الْفُورِ

• الباب الثاني: مقومات التوبة ٤٧

- ٤٩ مقومات التوبة
- ٥٠ التَّوْبَةُ النَّصُوحُ
- ٥٢ مَجْرَدُ الْكَلَامِ بِاللِّسَانِ لَيْسَ تَوْبَةً
- ٥٣ التَّوْبَةُ كَمَا شَرَحَهَا الْغَزَالِيُّ
- ٥٥ شَرْحُ الْعُنَاوَةِ الْمَكُونَةِ لِحَقِيقَةِ التَّوْبَةِ
- ٥٥ ١ - الْعُنْصُرُ الْمَعْرِفِيُّ فِي التَّوْبَةِ
- ٥٨ ٢ - الْعُنْصُرُ الْوُجْدَانِيُّ الْإِرَادِيُّ
- ٦٦ ٣ - الْجَانِبُ الْعَمَلِيُّ فِي التَّوْبَةِ
- ٧٣ ٤ - أَنْ تَكُونَ التَّوْبَةُ لِلَّهِ

• الاستغفار ٧٦

- ٨٥ شُرُوطُ الْإِسْتِغْفَارِ وَأَدَابُهُ
- ٩٠ هَلْ يَنْفَعُ الْإِسْتِغْفَارُ مَعَ الْإِصْرَارِ؟



• الباب الثالث: تتمات التَّوْبَةِ وأحكامها ٩٥

٩٧ ❖ تمام التَّوْبَةِ ودوامها

٩٨ قضاء حقوق الله

١٠١ مظالم الخلق

١٠٦ التَّوْبَةُ من حقوق العباد

١٠٦ توبة من تعذَّر عليه رد الحقوق المالية

١١٠ من عاوض غيره معاوضة محرمة

١١١ مظالم العباد الأدبية كالغيبة والسبِّ

١١٤ التَّوْبَةُ من ذنب مع الإصرار على غيره

١٢٠ توبة العاجز عن المعصية

١٢٤ هل يرجع التَّائِب من الذَّنْب إلى درجته قبل الذَّنْب؟

١٢٦ أيهما أفضل: المطيع أم التَّائِب توبة نصوحًا؟

١٣١ ❖ قبول التوبة

١٣٢ التَّوْبَةُ مقبولة قطعًا من ناحية وعد الله

١٣٥ التَّوْبَةُ مقبولة من ناحية سنن الله

١٣٧ علامات التَّوْبَةُ المقبولة

١٣٩ هل هناك ذنوب لا تُقبل التَّوْبَةُ منها كالقتل؟

١٣٩ القائلون: لا توبة للقاتل وأدلتهم

- ١٤٠ حجج الجمهور على قبول التَّوْبَةِ من القاتل
- حكم القاتل إذا اقْتَصَصَ منه: «واختلفوا فيما إذا تاب القاتل وسلَّم نفسه، فُقْتِلَ
- ١٤٢ قصاصًا، هل يبقى عليه يوم القيامة للمقتول حق؟
- ١٤٥ ❖ أقسام النَّاسِ في التَّوْبَةِ
- ١٤٩ • الباب الرابع: الذنوب التي يُتَاب منها وأقسامها
- ١٥١ ❖ ممَّ نتوب؟
- ١٥١ أقسام الذنوب والمعاصي
- ١٥٢ الإنسان والخطيئة
- ١٥٥ ❖ الذنوب ترك مأمور وفعل محظور
- ١٦٢ ❖ ذنوب الجوارح وذنوب القلوب
- ١٦٩ ❖ الذنوب معاصٍ وبدع
- ١٧٤ ❖ الذنوب القاصرة والذنوب المتعدية
- ١٧٤ الذنوب الممتدة في المكان
- ١٧٩ الذنوب الممتدة في الزمان
- ١٨٢ ❖ الذنوب المتعلقة بحقوق الله والمتعلقة بحقوق العباد
- ١٨٩ ❖ صغائر الذنوب وكبائرها
- ١٩١ معنى اللطم
- ١٩٤ اختلاف السلف في معنى الكبيرة وعددها



❖ حقائق حول الكبائر والصغائر ١٩٩

١ - الصغيرة تجزئ إلى الكبيرة ١٩٩

٢ - اجتناب الكبائر يكفر الصغائر ٢٠١

٣ - الكبيرة قد تصغر بأسباب وملايسات ٢٠٥

٤ - الصغيرة قد تكبر بأسباب وملايسات ٢٠٩

الإصرار والمواظبة ٢٠٩

استصغار المعصية ٢١٠

الفرح بالمعصية ٢١١

التهاون بستر الله عليه ٢١٢

إظهار المعصية والتبجح بها ٢١٢

معصية العالم والقدوة ٢١٣

أسباب وملايسات أخرى لتضخيم الذنوب ٢١٤

❖ مكفّرات الذنوب ٢٢٤

١ - حمام التوبة ٢٢٥

٢ - حمام الاستغفار ٢٢٧

٣ - حمام الحسنات والطاعات ٢٣١

التوحيد والخلوص من الشرك ٢٣١

إحسان الوضوء والصلاة ٢٣٣

الصيام والصدقة والحج ٢٣٦

ذكر الله ٢٣٨

البر والصلة ٢٤٠



- الإحسان إلى الخلق ٢٤١
- هل تكفر الأعمال الصالحة الكبائر؟ ٢٤٣
- ٤ - حمّام المصائب والهموم ٢٤٧
- ٥ - حمّام الحدود والعقوبات الشرعية ٢٥١

• الباب الخامس: ثمرات التوبة ٢٥٣

❖ ثمرات التوبة ٢٥٥

- ١ - تكفير السيئات ودخول الجنات ٢٥٥
- ٢ - تجديد الإيمان ٢٥٧
- ٣ - تبديل السيئات حسنات ٢٦٢
- ٤ - الانتصار على العدو الدائم ٢٦٦
- ٥ - الانتصار على النفس الأمّارة بالسوء ٢٦٨
- ٦ - انكسار القلب لله ٢٧٠
- ٧ - محبة الله تعالى ٢٧٢
- ٨ - فرح الله بالتائب ٢٧٧

• الباب السادس: الموانع من التوبة ٢٨٣

❖ الموانع من التوبة ٢٨٥

- ١ - الاستهانة بالذنوب ٢٨٥
- ٢ - طول الأمل ٢٨٧
- ٣ - الاتكال على أمانيّ العفو الإلهي ٢٩٠
- ٤ - استحكام الذنوب واليأس من المغفرة ٢٩٤



٥ - الجهل بحقيقة المعصية ٢٩٨

٦ - الاحتجاج بالقدر ٣٠٠

• الباب السابع: البواعث على التوبة ٣٠٥

❖ البواعث على التوبة ٣٠٧

❖ ١ - معرفة مقام الله تعالى وحقه ٣٠٨

❖ ٢ - ذكر الموت والقبر ٣١٢

ذكر أحوال النَّاس عند الاحتضار ٣١٦

❖ ٣ - ذكر الآخرة والجنة والنَّار ٣٢٢

أحاديث في الترهيب من النَّار ٣٢٧

أحاديث في الترغيب في الجنة ٣٢٩

❖ ٤ - معرفة آثار المعاصي في الدنيا والآخرة ٣٣٣

كتاب «الداء والدواء» لابن القيم ٣٣٧

من آثار المعاصي وشؤمها ٣٣٨

حرمان العلم ٣٣٨

حرمان الرزق ٣٣٩

الوحشة بينه وبين الله ٣٣٩

الوحشة بينه وبين الناس ٣٣٩

تعسير أمور العاصي ٣٤٠

ظلمة القلب ٣٤٠

الحرمان من الطاعة ٣٤١

- المعاصي تقصّر الأعمار ٣٤١
- الجر إلى معاصي آخر ٣٤٣
- إضعاف إرادة الطاعة ٣٤٤
- التبجح بالمعصية ٣٤٤
- هوان العاصي على الله ٣٤٥
- استصغار معصية الله ٣٤٥
- شؤم المعصية على جميع الكائنات الحية ٣٤٦
- المعصية تورث الذلة ٣٤٦
- إفساد العقل ٣٤٧
- الطبع على القلب ٣٤٨
- جلب لعنة الله على فاعلها ٣٤٨
- الحرمان من دعاء النبي ﷺ والملائكة ٣٥٠
- إضعاف سير القلب إلى الله ٣٥٠
- المعاصي تزيل النعم ٣٥٠
- إنساء العاصي نفسه ٣٥١
- المعيشة الضنك ٣٥٢
- ❖ خاتمة ٣٥٧
- فهرس الآيات القرآنية الكريمة ٣٦٣
- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ٣٨٥
- فهرس الموضوعات ٣٩٩

